المقدمة

13513/1

هذه هي الحلقة السادسة عشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام (غير رواية انقلاب العثماني) وقد اختلفت فيها المظاهر والصور الاخلاقية والاجتماعية عما كانت عصر الماضية لاختلاف الاشخاص القائمين بها عن اهل تلك الاعصر

بطل هذه الرواية من الاكراد وزعيمهم السلطان صلاح الدين المشهور. وهي سعيه في استخراج مصر من الدولة العبيدية او الفاطمية باسم السلطان نور الدين حب الشاه. لكنه ارادها لنفسه فاشرنا الى ما اقتضاه ذلك من المساعي وما تخلله من احوادث الغريبة. ومن جملتها اعمال الحشاشين او الاسماعيلية الذين تكاثروا في ذلك المصر برئاسة امامهم الشيخ راشد الدين سنان. وكان لهم شأن في قتل كثير من الملوك والامراء غيلة مما ادهش العالم

وبذلنا الجهد في درس احوال تلك الطائفة وتمثيلها للقارئ كما يستفاد من مجمل ما كتبه عنها المؤرخون وهم على تناقض واختلاف ليس هنا محل تحقيقهما. وانما جمعنا في هذه الرواية اغرب ما يروى عنها من المعجزات المدهشة

ونحن الآن في الحلقة ١٦ من هذه السلسلة واذا اضفنا اليها ما نشر من رواياتنا المستقلة الاخرى مما يدخل في تاريخ الاسلام - نعني استبداد المماليك والمملوك الشارد واسير المتمدي والانقلاب العثماني — بلغ عدد رواياتنا التاريخية الاسلامية ٢٠ رواية ١٦ منها في تاريخ الاسلام من ظهوره الى اواخر القرن السادس للهجرة واربع في تاريخه من اواسط القرن الحادي عشر الى اعلان الدستور العثماني. فاذا وفقنا الى اصدار الحلقات الموصلة بين هاتين المدتين تمت السلسلة. وكانت من خيرة ما تقضى به اوقات الفراغ بلذة وفائدة والله الموفق

تاريخ .....
مصنوف .....

المقدمة

1353/

هذه هي الحلقة السادسة عشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام (غير رواية حرب العشرين) وقد اختلفت فيها المظاهر والصور الاخلاقية والاجتماعية عما كانت عليه في الحلقة الماضية لاختلاف الاشخاص القائمين بها عن اهل تلك الاعصر

هذه الرواية من الاكراد وزعيمهم السلطان صلاح الدين المشهور . وهي استطراد مصر من الدولة العبيدية او الفاطمية باسم السلطان نور الدين الشهيد لكنه [redacted] من المساعي وما تخلله من [redacted] ومن جملتها اعمال الحشاشين او الاسماعيلية الذين تكاثروا في ذلك العصر برئاسة الشيخ راشد الدين سنان . وكان لهم شأن في قتل كثير من الملوك والامراء غيلة مما ادهش العالم

وبذلنا الجهد في درس احوال تلك الطائفة وتمثيلها للقارئ كما يستفاد من مجمل ما كتبه عنها المؤرخون وهم على تناقض واختلاف ليس هنا محل تحقيقهما . وانما جمعنا في هذه الرواية اغرب ما يروى عنها من المعجزات المدهشة

ونحن الآن في الحلقة ١٦ من هذه السلسلة واذا اضفنا اليها ما نشر من رواياتنا المستقلة الاخرى مما يدخل في تاريخ الاسلام — نعني استبداد المماليك والمملوك الشارد واسير المتمدي والانقلاب العثماني — بلغ عدد رواياتنا التاريخية الاسلامية ٢٠ رواية ١٦ منها في تاريخ الاسلام من ظهوره الى اواخر القرن السادس للهجرة واربع في تاريخه من اواسط القرن الحادي عشر الى اعلان الدستور العثماني . فاذا وفقنا الى اصدار الحلقات الموصلة بين هاتين المدتين تمت السلسلة . وكانت من خيرة ما تقضى به اوقات الفراغ بلذة وفائدة والله الموفق

Marfat.com

Marfat.com

الفصل الاول

فذلكة تاريخية

رؤية « فتاة القيروان » بدخول مصر في حوزة الفاطميين او العبيديين سنة ٩٦٩ يد القائد جوهر وبادت دولة الاخشيد وخرجت مصر بذلك من حوزة العباسية لانها كانت في زمن الطولونيين والاخشيديين مع استقلال هاتين الدولتين تحت رعاية الخليفة العباسي في بغداد وهو يثبتهم على الامارة ويبعث اليهم بالخلع او بكتاب التولية (الفرمان) نحو ما يفعل السلطان العثماني بامراء مصر لهذا العصر. لكن ادارة الحكومة الداخلية وسائر اعمالها كان يجريها الامير الطولوني او الاخشيدي استقلالاً بدون مراجعة بغداد . وهو يشبه ما يعبر عنه كتّاب هذا العصر بالاستقلال الاداري على تفاوت بدرجات ذلك الاستقلال

فلما دخلت مصر في حوزة الفاطميين تغيرت حالها السياسية واصبحت دولة مستقلة بنفسها استقلالاً تاماً لا تراجع احداً ولا تعترف بسيادة احد غير الخليفة الفاطمي المقيم في القاهرة

وهي اول مرة استقلت بها مصر بالسيادة السياسية بعد الاسلام . وبقيت الخلافة العباسية في بغداد كما كانت وظهرت الخلافة الاموية بالاندلس في بني مروان . فاصبحت المملكة الاسلامية يتنازعها ثلاثة خلفاء كل منهم يزعم لنفسه الحق بالخلافة الحقيقية وينكرها على الآخرين . وكان النزاع على اشده بين خليفة بغداد وخليفة القاهرة وبينهما اختلاف في المذهب ايضاً لان الخلافة العباسية كانت سنية والفاطمية شيعية وهو في اصله تنازع سياسي ادخلوا فيه الدين وسيلة لتأييد دعواهم

والدولة الفاطمية اول دولة شيعية تسمّى ملوكها بالخلفاء . وعاصرتها دولة اخرى شيعية في العراقين وفارس تعني الدولة البويهية لكنهم لم يسموا انفسهم خلفاء ولا ادعوا نسباً قرشياً يؤهلهم لذلك . وحافظوا على الخلافة العباسية مع اعتقادهم ان اصحابها اغتصبوها من مستحقيها — وانما استبقوها ليحكموا بها العامة . واشار بعضهم على معز الدولة البويهي بعد قيام الدولة الفاطمية ان ينقل الخلافة الى الفاطميين او الى غيرهم من العلويين فاعترض عليه بعض خاصته قائلاً « ليس هذا برأي فانك اليوم مع خليفة تعتقد انت واصحابك انه ليس من اهل الخلافة لو امرتهم بقتله لقتلوه

مستحلين دمه ومتى اجلست بعض العلويين خليفة كان معك من يعتقد انه واجب صحة خلافته فلو امرهم بقتلك لقتلوك » فرجع المعز الدولة عن عزمه [1]

استقرت الخلافة الفاطمية بمصر والخلفاء العباسيون في بغداد واتباعهم السنيون انحاء العالم ينكرون على الفاطميين صحة انتسابهم الى فاطمة الزهراء وهم لايبالون وكان يهمهم تأييد سلطانهم بالسيف والدهاء ولا سيما في اوائل دولتهم . فمن المعز الله لما بنى له جوهر مدينة القاهرة ودعاه اليها خرج الناس للقائه فاجتمع به اناس الاشراف وفيهم عبد الله بن طباطبا المشهور فتقدم الى الخليفة المعز وقال له « الا ينتسب مولانا » فقال له « سنعقد مجلساً نجمعكم فيه ونسرد عليكم نسبنا »

ولما استقر المعز في القصر جمع الناس في مجلس عام وجلس لهم وقال هل بقي من رؤسائكم احد » قالوا « لم يبق معتبر » فسلّ نصف سيفه وقال « هذا نسبي ونثر عليهم ذهباً كثيراً وقال « هذا حسبي » فقالوا جميعاً « سمعنا واطعنا »

فتوالى على مصر من الفاطميين احد عشر خليفة حكموا نيفاً ومئتي عام (من سنة ٣٥٨ — ٥٦٧ هـ) اولهم المعز لدين الله وآخرهم العاضد لدين الله . مرت الدولة في اثنائها في ثلاثة ادوار : كانت في اول امرها قائمة بالعرب والبربر وهم الذين فتحوا مصر مع جوهر فكان النفوذ مشتركاً بين هذين العنصرين . ثم صار الى البربر ثم الى الاتراك [2] كما انتقل النفوذ في الدولة العباسية من العرب والفرس الى الاتراك

وكان السبب في تكاثر الاتراك بمصر انه لما مات الخليفة الحاكم بامر الله وخلفه ابنه الظاهر لاعزاز دين الله سنة ٤١١ هـ اكثر من اللهو والقصف ومال الى الاتراك والمشارقة فانحط جانب البربر وما زال قدرهم يتناقص حتى كاد يتلاشى . فلما ملك المستنصر سنة ٤٢٧ هـ بعد الظاهر كانت امه امة سوداء فاستكثرت في جنود ابنها من العبيد ابناء جلدتها حتى بلغوا الف عبد اسود . وكان ابنها يستكثر من الاتراك فاصبح الجند طائفتين كبيرتين تتنافسان وتتسابقان الى الاستئثار بالنفوذ . فآل التنافس الى حرب تعبت بها مصر واضطر الخليفة الى استنصار صاحب الشام فاتاه امير الجيوش بدر الجمالي من سوريا وهو ارمني الاصل فقتل اهل الدولة واقام بمصر جنداً من الارمن والاتراك وصار من حينئذ معظم الجيوش منهم وذهب نفوذ البربر وصاروا من جملة الرعية ولم يبق لهم شان في الدولة بعد ان كانوا وجوهها واكابر اهلها

وكان السلاجقة في اثناء ذلك قد غلبوا على العراق وفارس وذهبت دولة آل بويه

---

(١) ابن الاثير ١٧٧ ج ٨ (٢) تاريخ التمدن الاسلامي ٢٠٠ ج ٤

Marfat.com

و[illegible] الشيعة هناك وولى السلاجقة مماليكهم وقوادهم (الاتابكة) على الولايات [illegible] منهم بولايته ومنهم نور الدين زنكي في الشام . وكان في جملة قواد نور الدين [illegible] من الاكراد، منهم نجم الدين ايوب واخوه اسد الدين شركوه وقد بلغا [illegible] الشيعة . وكانت خلافة مصر قد افضت سنة ٥٥٦ هـ الى العاضد لدين الله يوسف وكان ضعيف الرأي وقد غلب وزراؤه على دولته وتنافسوا بملء الاستئثار [illegible] تنافسهم حتى اخربوا البلاد والخليفة لا يستطيع عملاً

وكان في جملة المتنافسين وزير اسمه شاور غلب على امره فذهب الى نور الدين [illegible] واستنجده على رجل آخر كان ينافسه في الوزارة فاغتنم نور الدين تلك الفرصة [illegible] ى مصر وانجده باسد الدين شركويه في جند من المماليك فردّ الوزارة الى [illegible] ر هذا يدفع ثلث خراج مصر الى نور الدين

وكانت الحروب الصليبية في تلك الاثناء قد احتدمت، فزاد دخول نور الدين في شؤون مصر ونائبه فيها شركويه ومعه ابن اخيه يوسف بن نجم الدين وهو صلاح الدين الايوبي الشهير . ومات شركويه بمصر سنة ٥٦٤ هـ فخلفه صلاح الدين في منصب النيابة وسمي وزيراً

فاتخذه صلاح الدين ذلك وسيلة للاستقلال بسلطنة مصر لنفسه ــ وهو ما يُطلب بسطه في اثناء هذه الرواية

الفصل الثاني

موكب الخليفة العاضد

انهض يا اخي .. اما كفاك نوماً ؟ والقاهرة قد ضجت والناس يتراكضون ؟ قم وانج بجمارك

الى اين ؟ ولماذا ؟ هل احرقوا القاهرة كما احرقوا الفسطاط ؟ ام هناك ضريبة جديدة علينا ؟ تركت مواقف القاهرة واتيت بجماري الى هذا الموقف خارج باب الفتوح لاتخلص من تعدياتهم وتعديات هؤلاء الاتراك والاكراد و ..

اسكت ياعمر ان هؤلاء الاكراد كل الخير منهم .. هل نسيت ما كنا نقاسيه من العذاب قبلهم ؟ حتى ان احدنا لم يكن يتحرك ما لم يضربوا عليه ضريبة . ومن كان

يجسر ان يذكر ابا بكر او عمر رضي الله عنهما ؟

صدقت . . ان والديَّ ندما على تسميتي بهذا الاسم . . وماذا جرى الآن يا حسن ؟ هل نقدر ان نتحرك ؟ ها انت تقول لي قم انج بحمارك

اقول لك ذلك لان الخليفة العاضد لدين الله خارجٌ من قصره في موكبه وستتبعه طائفة من الاتراك وغيرهم فربما سطا احدهم على حمارك فيركبه .. وربما اخذه لنفسه

الخليفة خارج من قصره ! واين نحن وقصره ؟ اننا خارج القاهرة

انه آت الى هنا وسيخرج من باب الفتوح هذا

من هذا الباب ؟ الى اين ؟

انه خارج لاستقبال نجم الدين ايوب

الخليفة خارج من القاهرة لاستقبال نجم الدين ؟ ومن هو نجم الدين هذا

هو والد الوزير صلاح الدين يوسف جاء من الشام لزيارة ابنه

الله الله يا دنيا ـ الخليفة امير المؤمنين ابن بنت الرسول وظل الله على الارض يخرج من قصره الى خارج بلده لملاقاة والد وزيره ـ متى كان الخلفاء الفاطميون يفعلون ذلك ياعم حسن ؟

تغيرت الاحوال يا صاحبي .. ان الخليفة لم يبق له من الخلافة الا الاسم . وصار النفوذ الى هذا الكردي . . مسكين العاضد

مسكين ليه ؟ بل نحن المساكين ويمكن هذا الكردي يكون احسن منه

الكردي احسن من الخليفة ؟ لا ....

وما الذي يصيبنا من هؤلاء الحكام ؟ انهم يختصمون على الاستبداد فينا وماذا يهمني ان كان حاكمي كرديا او عربيا اوهنديا انما يهمني ان لا يظلمني .. مش كده ؟

اسكت انهم قادمون الا تسمع الابواق والصنوج ؟ انج بحمارك خبه في مكان وتعال

ها انا ذاهب وسارجع اليك على عجل لأرى موكب الخليفة .. ان ذلك حسرة في قلبي منذ ولدت . طالما سمعت بهذا الموكب وما يحفُّ به من الفرسان وما يلبسه الخليفة من الجواهر والحرير و ...

انا في انتظارك . . استعجل يا عمر

لا . . لا . . الاحسن ان تتبعني انت لنضع الحمار في هذا البيت ونصعد على سطحه فنكون اقدر على المشاهدة وابعد عن الخطر

طيب . . هيا بنا

Marfat.com

ن على هذا السطح مشرفون على الموكب
ون من القصر . وبعد قليل يصلون الى باب الفتوح هذا فنراهم وهم
ون الا تسمع الضوضاء وقرقعة اللجم
نعم اسمع واخاف ان يكون علينا خطر
لا ما فيش خطر . . اراك تخاف من خيالك
لا تؤاخذني يا عم حسن ان المدوع يخاف من جرة الحبل . وهؤلاء الجنود لم جوا بمثل هذه الحركة الا تعدوا علينا واخذوا دوابنا ..
من الص وكب انظر نظرة عامة اليه وهو في الشارع الداخلي قبل خروجه
• ي ارى الاعلام تخفق والخيول تصهل والرماح تتلالأ والسيوف تلمع والشارع يموج بمن فيه كالنيل في فيضانه . ياحفيظ ! اشكرك يا عم حسن على هذه الفرجة .. قل لي الان وقد اخذوا يخرجون من باب الفتوح من هو الخليفة منهم هل هو هذا الراكب على هذا الفرس الاشهب وعليه الثياب القصبية ؟
يظهر انك لم تشاهد احداً من رجال الدولة في حياتك .. ان الذين يتقدمون موكب الخليفة كثيرون . وهل تظن الخليفة يلبس القصب ؟ انه لباس بعض اتباعه . اما الذين تراهم في مقدمة الموكب فهم الامراء واولادهم واخلاط من العسكر وراءهم ارباب القصب ثم ارباب الاطواق الى الاستاذين المحنكين وهم اكبر رجال الدولة . انظر الى البستهم الفاخرة التي تأخذ بالابصار والى سروج خيولهم المفضضة ومن يسير في ركابهم من الخدم الاتراك وغيرهم . ان ذلك كله ليس شيئاً بالنظر الى موكب الخليفة . انظر .. انظر .. هذا هو موكب الخليفة عند تلك المظلة
ان المظلة تغطيه فلا نراه جيداً . وانما ارى فرسه وما يحدق بها من الاعلام والفرسان بجانبه من هم ؟
لا تستعجل في الاستفهام ان الموكب يسير ببطء وانا شارح لك كل شيء — هل ترى فرس الخليفة ؟ تأملها جيداً ان سرجها من الديباج الاحمر مصوغ بالذهب ومنزل فيه الميناء ولو تأملت مقدم السرج لرايت عليه حجاراً كريمة . وفي عنق الفرس قلائد الذهب ولو استطعت النظر الى قوائم الفرس لرايت حولها الخلاخل الذهب . ويقدرون كل فرس بما عليها من العدة بالف دينار [1] وافراس الوزراء

(١) المقريزي ٤٤٧ ج ١

Marfat.com

والإمراء ايضاً في مثل هذا الترتيب وهي كلها في الاصل هدية من الخليفة بها لامرائه في الاعياد

هنيئاً لك ياعم حسن لابد انك ذقت الركوب على هذه الافراس وانت من غلمان القصر الكبير

ذقت يا بني اشياء كثيرة كدت انساها الآن . ورايت مجوهرات ومصوغات تبهر العقل . فكيف بما يلبسه الخليفة ؟ انظر إلى هذه المظلة فانها تشبه الهرم بشكلها وهي من الديباج الازرق السماوي وثوب الخليفة تحتها في هذا اللون ايضاً . ولو كانت حمراء لكان ثوبه احمر . وانظر الى الاهلة الذهب التي تتدلى من حواشي المظلة وكيف ان اضلاع المظلة او قوائمها ملبسة بالذهب . وفي قمتها رمانة ذهب كبيرة فوقها رمانة ذهب صغيرة مرصعة بالجوهر — انظر الى لمعانها فانه يخطف البصر

صحيح .. ولكنني لا ارى حامل المظلة .. وكيف يستطيع حملها وهي ثقيلة ؟

ان حاملها راكب على فرسه بجانب فرس الخليفة . وللمظلة قناة يركزها ذلك الفارس في قربوس فرسه . وهمه في اثناء الركوب ان يراقب موقف الخليفة من جهة الشمس بحيث لا تقع اشعتها عليه

وماذا يحدث اذا وقعت الاشعة عليه ؟ . ها ها .. اني ارى رأس الخليفة فان صاحب المظلة انحرف عنه .. يا سلام ما هذا الذي يلمع على راسه

الفصل الثالث

العاضد وصلاح الدين

تمهل لاتم حديثي .. انظر الى هذه العمامة على رأس الخليفة فانها بيضاء وشكلها اهليلجي . وفي اعلاها فوق الجبهة حلية بشكل الهلال من ياقوت احمر ليس له مثال في الدنيا وفي وسط الهلال جوهرة عظيمة مشهورة يقال لها اليتيمة لا يعرف لها قيمة . ويقال ان وزنها ٧ دراهم ووزن الهلال كله ١٠ مثقالاً وبدائرة اليتيمة قصبة زمرد ذبابي له قدر عظيم

ياحفيظ ! ياحفيظ ! ايكون مثل هذه الجواهر عند هذا الرجل بلا فائدة والناس في مملكته يتضورون جوعاً وهو يأخذ اموالهم ظلماً ؟ آه ياعم حسن قد وجعني قلبي من هذا المنظر

Marfat.com

يا شيخ ان النعم من عند الله يؤتيها من يشاء .. ولعلك لو عرفت ما في قلب الخليفة لم تحسده على هذه الجواهر . مالنا ولهذا الآن .. اسمع . الا ترى الى يسار الخليفة وفي يده منديل ابيض ؟

نعم ارى ، ماذا يوجد في هذا المنديل ؟

في هذا المنديل الدواة الثمينة التي هي من اعاجيب الزمان فانها من الذهب وحليتها من الجان .. نظر الى الجانب الآخر من الخليفة ترَ فارساً آخر يحمل سيفاً حليته من الذهب مرصعة بالجوهر وهو مغمد لايظهر الا راسه وحامله يقال له « حامل السيف » وهو من اصحاب الرتب العالية . وانظر الى حوالي فرس الخليفة فانك تجد عشرات من الصبيان وعليهم المناديل الطبقات وفي اوساطهم السيوف واوساطهم مشدودة بمناديل وفي ايديهم الحراب مشهورة وهم بجانبي الخليفة كالجناحين . وبينهما فسحة امام وجه الفرس ليس فيها احد . وبالقرب من عنق الفرس صقليان يحملان المذبتين وهما مرفوعتان كالنخلة لذب مايسقط من طائر او غيره

اني ارى فارساً فخيماً يذهب ويجيء الى يسار الموكب ويأمر وينهى من هو ؟

هذا والي القاهرة يحافظ على ترتيب الموكب ليسهل مروره ويمنع الازدحام ... انظر الى الذين هم وراء دابة الخليفة .. هناك جماعة من الصبيان يقال لهم صبيان الركاب يحملون العمائم المدقولة المذهبة بدل السيوف المحدبة وبايديهم الدبابيس الكمخت الاحمر والاسود ورؤوسها مدورة مضرسة . وبعضهم يحملون عمد الحديد وبين ايديهم لواء الحمد المختص بالخليفة وحوله ٢١ راية على كل منها كتابة بالحرير تخالف الوانها وهذا نص الكتابة « نصر من الله وفتح قريب » ألم تقراه ؟

فيضحك عمر وقال « من اين لي ذلك ؟ ان اهلي لم يدعوني في الازهر لان التعليم فيه على مذهب الشيعة واهلي سنيون »

فقطع العم حسن كلامه وقال « فالآن صرت تقدر تتعلم لان صلاح الدين جعل التعليم فيه عاماً لكل المذاهب .. »

قال عمر لقد تأخر عليَّ بهذه النعمة وهل بعد الاربعين من العمر تعليم ... فلنترك ذلك لاولادنا . من هذا الذي اراه ؟ ان موكبه لا يقل عن موكب الخليفة في شيء وارى عليه لباساً انفس من لباسه

هذا هو ياصاحبي صلاح الدين الوزير وهذا الثوب الذي عليه هو خلعة السلطنة خلعها عليه هذا الخليفة نفسه منذ ثلاث سنوات . وهي كما ترى عمامة بيضاء من

Marfat.com

نسج تنيس . لها طرف مذهب وتحتها ثوب ديبقي بطراز ذهب . وكذلك الجبة التي عليه فان طرازها من الذهب وفوق ذلك طيلسان مطرز بالذهب . وانظر في عنقه هل ترى العقد ؟ انه من الجوهر يساوي عشرة آلاف دينار . والى جانبه سيف محلى بخمسة آلاف دينار وتحته حجرة (فرس) قيمتها ثمانية آلاف دينار . وعليها سرج مذهب وسرسار ذهب مجوهر وفي رأسها مائتا حبة جوهر وانظر الى قوائمها فان حولها اربعة عقود جوهر وعلى رأسها قصبة بذهب وفيها شدة بياض باعلام بيض[1] هذا هو صلاح الدين . . ان منظره يدعو الى الهيبة اكثر من منظر الخليفة . انظر الى هيبته وكيف ان الشجاعة ظاهرة في وجهه ولا يراه انسان الا احترمه وخافه . والحق يقال ان الامور الآن في يديه وهو الآمر الناهي كما قلت لك وانظر الى الرجال المحيطين بموكبه . وفيهم قوم يقال لهم صبيان الزرد من اقوياء الاجناد يختارهم لنفسه وهم مئات يمشون الى الجانبين وبينهم فسحة امامه مثل فسحة الخليفة . ووراءه الطبول والصنوج والصفافير ألا تسمع صوتها يدوي به البر ؟ ووراء موكب الوزير يأتي حامل الرمح . تأمله فانه رمح لطيف في غلاف منظوم من اللؤلؤ وله سنان مختصر بحلية من الذهب . ومعه درقة بكوامخ يقولون انها درقة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه

كان عمر الحمار يسمع كلام صديقه العم حسن وقد اخذته الدهشة فلما سمع قوله درقة حمزة بغت وقال « درقة حمزة ! حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلعم ؟ »

قال « نعم هكذا يقولون . وقد آن لي ان اختصر لك بالوصف لان الموكب لا يزال طويلاً .. فانظر الى ما وراء موكب الوزير انك تجد فرقاً من الاجناد المختلفة زمرة زمرة في عدة وافرة تزيد على اربعة آلاف . ثم اصحاب الرايات ووراءهم طوائف من العسكر على اختلاف اجناسهم الاتراك والاكراد والديلم وغيرهم »

فقال عمر « قف بالله قليلاً واخبرني عن فارس اراه راكباً بجانب صلاح الدين وعليه ثياب فاخرة »

قال انه من بعض خاصته ولكنه فارس شجاع يحبه صلاح الدين كثيراً ولا صبر له على فراقه واسمه عماد الدين

فبغت الحمار عند ذلك وقال « ما بال هؤلاء لا يسمون احداً الا منسوباً الى الدين

---

(١) حسن المحاضرة ٢٥ ج ٢

Marfat.com

لاة ذكرت لي اسماءهم هم نور الدين وصلاح الدين ونجم الدين وهذا لدين

فقال العم حسن تلك عادتهم في التسمية ـ ها قد انتهى الموكب وقصصت عليك فاذن بانصرافي

فقال « مع السلامة كثر الله خيرك » وانصرفا

هذا هو موكب الخليفة العاضد لاصفناه باختصار دفعاً لملل القاري فان الكلام فيه يطول

سار الموكب على هذه الصورة بعد خروجه من باب الفتوح والناس في اثره ركوباً او مشاة واخرون وقوف على اسطحة المنازل يشرفون على ذلك الموكب وقد تصاعد الغبار حتى حجب وجه السماء وغشى الرؤوس والمناكب . ولم تبق فتاة ولا غلام الا خرج الى الشارع او صعد على السقف والبسطاء يستغربون خروج الخليفة لاستقبال ذلك الكردي والعارفون لا يرون فيه غرابة لضعف امر الخلافة

الفصل الثالث

قاعة الذهب

ما زال الموكب سائراً على هذه الصورة حتى وصل الى مسجد النبر (في اخر الجيينية) واتت البشائر باقتراب نجم الدين فاتقوا به هناك . وحالما تقابلا ترجل نجم الدين احتراماً للخليفة وكذلك فعل رجاله الذين معه وفيهم اخوه شمس الدين وترجل صلاح الدين وقبل يدي والده فقبله والده ولما رأى ذلك الموكب وما على ابنه من الخلع لم يتمالك عن البكاء من الفرح وشكر الله على نعمه . وكان نجم الدين عاقلا مدبراً فترامى على يد الخليفة يقبلها ويظهر امتنانه من ذلك الاكرام والخليفة يجيبه بلطف لكنه لم يتحول عن فرسه

وبعد السلام والاكرام عاد الموكب بجلاله نحو القصرين وركب نجم الدين الى جانب ابنه وبجانبهما عماد الدين الشاب الشجاع وتحادثا ملياً . وكان حديثهما في لغة لا يفهمها رجال العاضد نعني اللغة الكردية . وكان اكثر الحديث عن نور الدين صاحب الشام

Marfat.com

وعن العاضد صاحب مصر

اما الخليفة العاضد فلو دنوت منه تحت تلك المظلة وتفرست في عينيه لرأيت الدمع يترقرق فيهما . ولوجسست قلبه لسمعت خفقانه الشديد من الاسف والغم لاضطراره الى الخروج في هذا الموكب لتكريم رجل يخافه على حياته كما يخافه على منصبه . ولكنه لم ير بدًّا من مسايرته فكظم غيظه وخرج لاستقبال والده . وذلك اثقل على قلبه من الجوع والعري . ولعله يتمنى ان يكون من بعض العامة ولا يتحمل ذلك الضيم

ووصل الموكب قبيل الغروب الى القصر الكبير الشرقي من قصور القاهرة . وهو مجموع قصور ربما زاد عددها على بضعة عشر قصراً منها قصر الزمرد وقصر المظفر وقصر الاقبال وقصر البحر وقصر الحريم وقصر الشوك ودار الوزارة ودار الضيافة ودار الضرب وخزانة البنود وخزانة الكتب وحجر الصبيان الحجرية وغيرها . وتسمى كلها معاً القصر الكبير الشرقي . كما تسمى قصور عبد الحميد في الاستانة قصر يلدز وهو مجموع قصور

وموضع القصر الكبير الشرقي الآن في شرقي القاهرة القديمة وشماليها في ما بين الازهر وباب الفتوح ويدخل في ذلك خان الخليلي وبيت القاضي والجمالية والنحاسين. وقد سمي هذا القصر بالشرقي تمييزاً له عن قصر آخر غربي اصغر منه كان غربي القصر الشرقي وبينهما ساحة يقال لها الميدان بين القصرين . ووراء القصر الغربي نحو الغرب منتزه كبير يقال له البستان الكافوري يحده من الغرب خليج القاهرة وعلى هذا الخليج كانت منتزهات الخلفاء الفاطميين

وكان في جملة ابنية القصر الكبير الشرقي بناء يسمونه قصر الذهب كان الخليفة يجلس فيه للناس في يومي الاثنين والخميس من كل اسبوع ـ فوقف الموكب عنده

فترجل الخليفة ودخل القاعة المعدة للاستقبال وتسمى قاعة الذهب يدخل اليها من باب يسمى باب الذهب (حيث المارستان المنصوري في النحاسين) فجلس على سرير من الذهب في صدر القاعة ذكروا ان وزنه الوف من المثاقيل وحوله ستر محلى بالطراز الذهب المرصع بالجواهر فيه خمسمائة وستون قطعة جوهر على اختلاف الوانه[1] وفوق السرير شمسية من ذهب وزنها ثلاثون الف مثقال . واكثر جدران الغرفة مغطاة بالستور الديباج المزركش . حتى ان الناظر اليها يحسب نفسه في حلم ولا سيما اذا نظر الى ما فوق عمامة العاضد من الجواهر المتلألئة

(١) المقريزي ٣٨٥ ج ١

Marfat.com

وبعد جلوس الخليفة على سريره دخل الوزير صلاح الدين فجلس في مرتبة خاصة به . ولم يؤذن في الدخول يومئذ لاحد من رجال الدولة وانما جعلت الجلسة خاصة باكرام نجم الدين . فامر صاحب الباب باستقباله وادخاله عليه فدخل نجم الدين وكان بهي الطلعة عظيم الهيبة فوقع من نفس العاضد موقعاً عظيماً فاشار اليه بالجلوس ورحب به فقعد نجم الدين باحترام . وكانت العادة اذا دخل الوزير على الخليفة الفاطمي قبل يد الخليفة ورجله ولم يفعل صلاح الدين ذلك ولا جعل والده يفعله ولم يستغرب ذلك الخليفة وكان في جملة الحضور في تلك القاعة كهل ربعة دقيق العضل ممتقع اللون قاعد في مجلس اقارب الخليفة قعود من يريد الاستتار ويود ان لا ينتبه له احد لكن صلاح الدين لمحه فعلم من مجلسه انه من بعض الامراء ولم يكن رآه من قبل

ولما استقر بالجلوس المقام بدأ العاضد بالكلام وهو يومئذ شاب لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره مع انه تولى الخلافة منذ عشر سنين (سنة ٥٥٦ هـ) لانه كان عند مبايعته في الحادية عشرة من عمره والذي يراه الآن يحسبه في حدود الاربعين لكثرة ما كابده من الهموم وتحمله من الاحن . وكان لا يقع نظره على صلاح الدين الا ندم على استنجاد نور الدين زنكي صاحب الشام

الفصل الرابع

المداجاة

فلما جلس القوم وجه الخليفة كلامه الى نجم الدين قائلاً « عسى ان لا يكون القائد نجم الدين قد تعب في اثناء الطريق »

قال « كلا يا سيدي ان سفري كان في غاية الراحة ولا سيما لاني اتوقع التشرف بلقيا الامام اعزه الله . . »

فابتسم الخليفة ابتسامة اغتصابية وقال « اهلاً وسهلاً بكم قد نزلتم على الرحب والسعة . وقد امرت زمام القصر ان يعد لمقامكم منظرة اللؤلؤة وهي اجمل قصورنا بل احد منتزهات الدنيا فعسى ان تجدوا فيها راحة »

فتأدب نجم الدين في مجلسه وابدى الاحترام واثنى على الخليفة ثناء كثيراً . فقال صلاح الدين « ان تنازل مولانا الامام بالخروج للقاء والدي نعمة لا انساها له ونحن ما كنا فاننا نتمنى له بطول البقاء »

Marfat.com

فملك الخليفة عثنونه بسبابته وتناول قضيب الخلافة عن الوسادة الى جانبه (وهو قصير مغشى بالذهب) وجعل يتلاهى بالنظر اليه ثم سعل والتفت الى نجم الدين وقال « كيف فارقت صديقنا الاتابك نور الدين ؟ »

فاجاب وهو يتلطف ويتجمل « فارقته في خير وقد حملني سلاماً كثيراً ومودة لمولانا العاضد حفظه الله وهو يدعو بطول بقائه ودوام سلامته »

قال « اني مسرور من صداقته وارجو دوامها »

قال « ان ذلك شرف عظيم له وقد كافني ان ابلغ المولى اعزه الله انه هو ورجاله في خدمته ... لنصرة الحق »

فوقع هذا الكلام موقعاً مؤلماً من نفس العاضد لانه ذكره بالسبب الذي جرّه الى هذه المتاعب فانها تبدأ من استنصاره نور الدين . . لكنه تجلد وكظم والتفت الى نجم الدين وقال « لقد نصرنا غير مرة جزاه الله خيراً .. وقد كفينا الان مؤونة الاستنصار بوجود ولدكم الملك الناصر .. » واشار الى صلاح الدين

فقال نجم الدين « ان ولدنا من مواليكم يا سيدي ولا يدخر وسعاً في خدمتكم والاخذ بناصركم »

فمد العاضد يده الى عنقه استخرج عقداً من الجوهر يشبه العقد الذي حول عنق صلاح الدين وقدمه الى نجم الدين وهو يبتسم وقال « هذه هدية منا تتذكرون بها هذه الزيارة ايها القائد الباسل . وقد استحققت عندنا ان ندعوك « الملك الافضل » وستحمل اليك الالطاف والهدايا الى قصر اللؤلؤة . ونوليك الاقطاعات السنية فانك اهل لاكثر من ذلك .. »[1]

فوقف نجم الدين وتناول العقد وهو يقبل يد الخليفة . ثم قبل العقد ووضعه في عنقه وهو يقول « لقد غمرتني يامولاي بنعم لا استحقها . ان اللقب الذي خلعته علي فوق قدري و ... »

فقطع الخليفة كلامه قائلاً « بل انت الملك الافضل كما ان نجلك الملك الناصر »

فكرر نجم الدين شكره وجلس متأدباً

ولاحت من صلاح الدين التفاتة الى الكهل المتقدم ذكره فراى في وجهه اهتماماً وقد ابرقت عيناه وكادتا تتقدان من التفكير فشغله امره لحظة

فادرك الخليفة اشتغاله بذلك واراد تحويل الاذهان عن هديته فوجه خطابه

(١) كتاب الروضتين ١٨٤ ج ١.

Marfat.com

إلى صلاح الدين وقال وهو يشير بيده الى ذلك الجليس « اظنك لا تعرف الشريف ابا الحسن » . انه من اعمامنا كان في سفر وقد جاءنا من عهد قريب . » والتفت الى ابي الحسن وقال « لا اظنك تحتاج الى التعريف بوزيرنا الباسل ابي المظفر صلاح الدين »

فاشار ابو الحسن بعينه وراسه وكتفيه انه شاكر لهذا التعريف وانحنى كانه يهم بالقيام . فقال صلاح الدين « سررت كثيراً بمعرفة هذا الشريف ويكفي انه متصل النسب بمقام الخلافة »

وكان نجم الدين في اثناء ذلك ينظر الى ابي الحسن نظر المتفرس ولم يعجبه ما في سحنته من الدهاء وما في عينيه من المكر . لكنه تجاهل وتوجه بكليته الى الخليفة يبدي شكره على هذا التعريف

ثم وضع العاضد قضيب الخدمة من يده على الوسادة ففهم القوم انه قد آن الذهاب فاستأذن نجم الدين بالانصراف وهمَّ بوداع الخليفة . ثم تقدم صلاح الدين وودَّع الخليفة واظهر انه يهم بتقبيل يده . فاجتذب الخليفة يدهُ تلطفاً

خرج نجم الدين وابنه من مجلس الخليفة ورجالهما ينتظرونهما خارج القصر بالافراس والسلاح وفيهم الشاب عماد الدين الذي كان راكباً بجانب صلاح الدين في الموكب . وقد صلاح الدين يختصه بالالتفات لما يراه فيه من المروءة والبسالة . وهو شاب في مقبل العمر قلما يفارق ركاب صلاح الدين الا لامر هام . ولم يكن يراه احد الا احبه لجماله وبسالته مع ذكاء وفصاحة . فلما صار صلاح الدين خارجاً صاح « اين عماد الدين ؟ »

فقدم الشاب وعيناه تتكلمان قبل لسانه وقد لبس ثوباً من اثواب الحرس الخاص بصلاح الدين وهو السراويل القصيرة وحول الخصر منطقة من جلد فيها عدة من الفضة وفوقها درّاعة مطرزة بالقصب . وعلى راسه عمامة صغيرة كالطاقية مركبة بالقصب . وقد علق بمنطقته سيفاً قصيراً وغرس فيها خنجراً . فلما وقف بين يدي صلاح الدين قال له « هلم بنا الى منظرة اللؤلؤة فقد امر الخليفة ان ينزل والدي هناك وانا انزل معه الان »

فاهتم عماد الدين بارشاد الركب الى المكان وركبوا جميعاً الى المنظرة المشار اليها وكانت على خليج القاهرة . فقطعوا الميدان بين القصرين ومروا بجانب القصر يبي الى البستان الكافوري احد منتزهات القاهرة وانتهوا منه الى المنظرة على ضفة

Marfat.com

الخليج الكبير اي من جهة قصور الخلفاء المتقدم ذكرها . وهي تشرف على الخليج من الغرب ووراء الخليج غرباً بركة كان يقال لها بطن البقرة ووراءها ارض الطبالة وبستان المقسي (الفجالة وباب الشعرية وما يليهما الآن) ووراءها بركة الازبكية الى مجرى النيل

الفصل الخامس

منظرة اللؤلؤة

وكانت المنظرة المذكورة من اجمل متنزهات القاهرة لها حديقة تتصل بالخليج فيها الاشجار والرياحين والازهار . وفيها القاعات المقصورات في اجمل ما يكون من الفرش الثمين يشبه ما كان للخلفاء في قصورهم من ستائر الديباج المطرز بالذهب والبسط المحوكة بالذهب وسائر الانية من العاج وخشب الصندل وفيها من الفواكه والوسائد . وقد سرح في البستان مئات من الطيور الداجنة على اختلاف انواعها الحانها بعضها في الاقفاص والبعض الآخر مطلق . وعلى ضفة الخليج مجالس من الخشب كالشرفات قد فرشت بالسجاد عليها المساند المزركشة وفوقها مظلات من الخشب تغطي على النبات وكل ما في المنظرة ثمين يستوقف النظر وناهيك بانها كانت منتزهاً للخلفاء والسلاطين في ايان دولتهم

وصل نجم الدين وابنه ومن في ركابهما من الحاشية فتلقاهم غلمان المنظرة بالطيب والبخور فدخلوا الى قاعة كبيرة للاستراحة ومعهم بعض الخاصة من رجاله فلبثوا ساعة لم يدر فيها من الحديث غير العام المتعلق بالاسفار وما قد يراه المسافر في طريقه من التعب او الراحة . وتخلل الحديث طبعاً ذكر الافرنج (الصليبيين) الذين كانوا يومئذ اصحاب السيادة في نواحي سوريا وفلسطين وكثير من مدنها

ثم مالت الشمس الى المغيب وقد اعدت مائدة العشاء فتناوله معهم طائفة من الخاصة وفيهم شمس الدين . فلما فرغوا من الطعام انصرف الخاصة كل منهم الى فراشه في المنظرة وتركوا نجم الدين وابنه على حدة لعلمهم ان نجم الدين لم يأت مصر الا لامر هام يريد أن يسره الى صلاح الدين

اختلى نجم الدين بابنه في غرفة انيرت بالشموع الضخمة وفيها ما توزن الة

Marfat.com

منه علة إرطال . وقد رأى نجم الدين في قصور القاهرة ما لم ير مثله في دمشق الشام . ولما صدق انه خلا بصلاح الدين فاتكأ على وسادة واشار اليه ان يقعد بين يديه وقد تخففه بلباس الرقاد . وفي يد نجم الدين انبوبة حرص عليها منذ بدل ثيابه

فلما قعدا قال نجم الدين « سرني يا يوسف ما رأيته من منزلتك عند هذا الرجل ولكنني رأيتك لا تحترمه كثيراً وهو يرى نفسه خليفة وملكاً »

فضحك صلاح الدين وقال « هل يكفي يا ابي ان يرى نفسه كذلك ؟ ونحن نعلم انه اسيرنا . . وصنيعتنا . . »

فقطع نجم الدين كلامه قائلاً « نعم ولكن الامر لم يتم لنا بعد فلا ضرر من المجاملة ومراعاة العادات الجارية . . . على انني اراك من الجهة الاخرى تحاذر غضب رجاله وانصاره رغم ما يأتيك من امر نور الدين في امر البيعة والدعوة للخليفة العباسي »

قال « وكيف ذلك يا ابتي »

قال « الم نكتب اليكم منذ عام ان تدعو للخليفة العباسي على منابر القاهرة ولماذا هذا التأخير ؟ »

فاطرق صلاح الدين لحظة وقد ظهر الاهتمام في محياه . . ثم رفع بصره الى ابيه وقال « تدعوني الى المجاملة ثم تعاتبني على تأخير الدعوة . وليست تلك الدعوة الا اعلان سيادة العباسيين على مصر وسقوط دولة الفاطميين . ولا يخفى عليك ما يكون من تأثير ذلك في نفس هذا الخليفة المسكين . وما الذي يهمنا من مصر غير ان يكون لنا فيها الكلمة النافذة والصوت المسموع والربع المطلوب ؟ ولنترك هذا الخليفة الشاب يلهج بالقاب الخلفاء ومجاملاتهم حتى نرى ما يأتي به القدر . . ان اعلان سيادته على مصر امر ميسور متى شئنا . . وعهدي بك انك تحب التؤدة »

قال « نعم يا بني ولكن نور الدين يلح في ذلك وقد وعد الخليفة العباسي المستضيء بالله يدعو له على منابر مصر . فلما تأخرت الدعوة بعث الخليفة اليه يستبطئه فكتب نور الدين اليك كتاباً يستحثك فيه على ذلك . وقد اوفدني لتبليغك هذه الرسالة وهذا هو كتابه » ودفع اليه الانبوبة

فتناولها صلاح الدين واستخرج منها لفافة قرأها واكثر من الامعان في فحواها ولا سيما قوله بعد التحريض على اعلان الدعوة « وهذا امر يجب المبادرة اليه لتحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت . لا سيما والامام في الوقت متطلع الى ذلك بكليته وهو عنده من اهم امنيته »

واطال صلاح الدين النظر في ذلك الكتاب وابوه يراقب ما يبدو في وجهه من التغيير وقد ادرك ما في خاطره فقال « مابالك يايوسف .. ما الذي تحدثك نفسك به ؟ »

قال « تحدثني نفسي بامر لا تجهله يا سيدي »

قال « لا بد من اعلان الدعوة العباسية . . هل ذلك صعب عليك ؟ »

قال « كلا . . ولكنني اراك تتجاهل امراً آخر اضمره »

قال « فهمت مرادك انك تفكر في امر نور الدين . . وهل اذا اعلنت الدعوة في المساجد للعباسيين تكون مصر ملحقة بالشام تابعة لنور الدين ام . . ؟ »

فابرقت اسرة صلاح الدين ولمعت عيناه واتم كلام ابيه قائلاً « ام لصلاح الدين وحده؟ »

فابتسم ابوه وقال « انك تتعجل امراً لا بد من التؤدة فيه انما يهمنا الآن الدعوة »

قال « اما الدعوة فسننظر في امرها ولكنك لم توضح لي رأيك من الوجه الاخر »

قال « وما هو ؟ »

قال « انت تعلمه ولكنك تريد ان تسمعه من فمي : فاسمع اني قد دبرت امر مصر وضبطت شؤونها بسيفي وتدبيري وبسيف عمي من قبلي . ونور الدين قاعد في قصره بدمشق ومملكته واسعة ومماليكه كثيرون ، فهل من العدل ان تكون مصر له ايضاً ونبقى نحن في خدمه أوقواده ؟ ما الذي يمتاز به نور الدين عنا ألعله ابتاعنا بماله ؟ نحن لسنا مماليكه . اننا قواد .. وهذه مصر يستحيل عليه اخضاعها بدوني .. فانا لا ابايع للخليفة العباسي الا على ان اكون انا صاحب مصر وليس نور الدين . . »

وما اتم كلامه حتى بان الغضب في جبينه مع الاهتمام وتفرس في وجه ابيه ليرى رأيه في ذلك فابتسم نجم الدين وقال « بورك فيك يا يوسف انك تطلب السيادة . وانت اهل لها .. ولكن لكل اجل كتاب »

قال « أحب ان اعلم رأيك . ألا ترى لي حقاً في ما اقول »

فضحك نور الدين ضحك استخفاف وعبث بلحيته يمشطها باصابعه ثم قال « ان الحق يابني للقوة ـ تلك هي قاعدة اصحاب السياسة .. والاّ لوجب علينا ان نخرج من هذا البلد ونتركه لاهله لان صاحبه انما استنجد الاتابك نور الدين لينصره على رجل من عشيرته تمرد عليه فانجده بعمك اسد الدين وانت معه . وكان ينبغي لكما ان تخرجا من مصر بعد الفراغ من تلك المهمة وقبض ما تستحقانه من الاجر على نصركم . فبقاؤك هنا سواء كان باسم نور الدين او باسمك جشع . وانما تعدُّه حقاً اذا كنت قادراً على تنفيذه فالحق هو القوة يا بني — تلك هي شريعة الفاتحين »

Marfat.com

وكلمت حجة نجم الدين قوية الى درجة لم يقوَ معها صلاح الدين على المدافعة وكاد يفحم . لكنه طامع في البلد ويريد ان يتذرع باية وسيلة كانت لنيل مرامه . فنهض وهو يتشاغل باصلاح عمامته الصغيرة ثم اخذ في فتل شاربيه وهو ينظر الى احد جدران الغرفة التي هم فيها ويتأمل صوراً ملونة مرسومة هناك لم يشاهدها من قبل . وبجانب كل صورة رفٌّ لطيف مذهب . فتقدم نحو الجدار وتفرَّس في الصور فرأى تحت كل صورة اسم صاحبها . واذا هم من شعراء الدولة الفاطمية الذين كانوا يفدون على الخلفاء في ايام مجدهم . وتذكر حديثاً سمعه عن الخليفة الآمر باحكام الله الفاطمي انه لما بنى منظرة بركة الحبش صوَّر الشعراء على جدرانها كل شاعر وبلده ونظم كل واحد منهم يومئذ قطعة من الشعر في المدح نقشوها عند رأسه في الصورة . وبجانب صورة كل منهم رفٌّ مذهب فلما دخل الآمر وقرأ الاشعار امر ان يضع على كل رف صرة مختومة فيها خمسون ديناراً وان يدخل كل شاعر ويأخذ صورته بيده (١)

وقف صلاح الدين هنيهة عند تلك الصور وهو غارق في الهواجس . فادرك ابوه ما يجول في خاطره فسكت ليرى ما يكون منه وتشاغل بالنهوض ايضاً . ثم اظهر انه يهم بالذهاب الى الفراش وصلاح الدين لا يستطيع رقاداً قبل ان يوافقه ابوه على الطلب . فالتفت اليه وقال « تمهل يا ابتاه .. ان هذا الخليفة دعانا الى نصرته على الافرنج واهل القاهرة انفسهم راسلوا نورالدين وبذلوا له ثلث بلاد مصر اقطاعاً وان يقيم عمي اسد الدين عندهم وله الاقطاع هو ورجاله ايضاً — لا ان يقضي مهمته وينصرف كما تقول . ثم نكث وزيره شاور ولم يف بما وعد فقتلته انا بيدي فصفا لنا الجو . ولو لم اقتله لم يكن لنور الدين اقطاع ولا . . . »

فقطع نجم الدين كلامه وهو ينهض نحوه وقال بلهجة الشيخ الوقور «انك تخاصم نور الدين على غنيمة لا تزال في حوزة اصحابها» ولا يحق التنازع بينكما عليها الا بعد اخراجها من قبضتهم . وهذا لا يكون الا بنقل الدعوة من الفاطميين الى العباسيين ثم نرى بعد ذلك . وهذا يكفي الآن . . . »

وكان لنجم الدين نفوذ على ابنه مثل نفوذ السحر فاكتفى صلاح الدين بما سمعه وتحول وهو يقول « اظنك في حاجة الى الرقاد يا ابتي » وامر الخدم بان يهيئوا الفراش وذهب كل الى منامه

(١) المقريزي ٤٨٦ ج ١

Marfat.com

الفصل السادس

العاضد وابو الحسن

اما الخليفة العاضد فقد تركناه في قاعة الذهب بعد خروج نجم الدين وابنـه ولم يبق معه الا ابو الحسن . فلما خرج الكرديان امر الحاجب ان يأتي بصاحب اللباس لينزع عنه ثيابه وحلاه لانه في حاجة الى الراحة وان لايأذن لاحد في الدخول . فاتى صاحب اللباس واشتغل في نزع العمامة وما عليها من الجواهر ووضع كل قطعة في علبة خاصة بها . وجاءت الوصائف يحملن الثوب الآخر ليلبسه الخليفة وقد تغيرت سحنته وانقبضت اسرته واحمرت عيناه وشعر ببرد طقطقت له اسنانه واصطكت ركبتاه حتى لم يعد يستطيع الوقوف . فبادر ابوالحسن اليه فاسنده وبالغ في التخفيف عنه . ولكنه حالما لمس يده احس بحرارتها فعلم ان الخليفة مصاب بالحمى لكنه لم يشأ ان يخوفه

ولما فرغ الخليفة من تبديل الثيـاب التى نفسه على السرير وقد احس بانحطاط عزائمه فقال له ابو الحسن « بماذا يشعر مولاي امير المؤمنين ؟ »

قال « اشعر بارتعاد مفاصلي وببرد يتمشى في ظهري .. لا اظنه الا من عواقب الكظم وتحمل الضيم .. آه يا ابا الحسن ..» قال ذلك بصوت مختنق وتلألأ الدمع في عينيه

فبادر ابو الحسن الى التهوين عليه عنه فقال « لكل اجلٍ كتاب يا مولاي . ولا بد من زوال هذه الازمة »

فقال وهو يلهث من شدة الحمى « شعرت بهذه القشعريرة منذ ركبت في هـذا الموكب لملاقاة هذا الكردي .. آه كيف اقوى على احتمالهم وقد سلبوني ما في يدي من سيادة وثروة ؟ وانا مع ذلك لا اقدر الا ان اجاملهم والاطفهم وارحب بهم »

فمشط ابو الحسن لحيته بأنامله ثم قبض عليها وهو يتمتم كانه يدعو او يصلي ويظهر التقوى وسعة الصدر وقال « لابد من الصبر يا مولاي ولا شك ان الله سامع دعاءنا . فاني اصلي ليل نهار واطلب اليه تعالى ان ينصفك من هؤلاء الظالمين . . »

فقال « الى متى الصبر يا ابا الحسن . كانك لم تعلم بما فعلوه معي . . ولم تسمع الا بجاماتهم لي بالكلام ومخاطبتي بالامارة ... انهم لم يتركوا لي من هذه الامارة الا لفظها .. ان يوسف صلاح الدين هذا قد منع المؤذنين الاذان «حي على خير العمل » كما كانوا

يفعلون في دولتنا . وعزل قضاة مصر لانهم من شيعتنا وولى قضاة شافعية [1] على مذهبه — وقبض على مرافق البلاد بيد من حديد . . . . وتقول لي اصبر! اين الصبر ؟ » قال ذلك وغص بريقه

وكان ابو الحسن صفراوي المزاج لمفاويهُ لا يبدو في سحنته شيء من التأثرات مهما بلغ من تأثيرها في قلبه . أولعل قلبه لايتأثر الا مما يريده . او هو قادر على التظاهر بما يشاء من غضب او فرح او حزن بغير ان يكون ذلك ناتجاً عن تأثر قلبي . فلما سمع قول الخليفة تنحنح واظهر الاهتمام وقال « لا ازال اقول لك اصبر . اتكل عليَّ فاني باذل نفسي في سبيل هذا الامر وهو يهمني كما يهمك . اليست الدولة دولتنا والشيعة شيعتنا وفي حياتها حياتنا وفي موتها موتنا ؟ لاسمح الله .. ثق اني فاعل ما تريد ولولا خوفي من التثقيل عليك لذكرت لك التفاصيل . . ولكنك الآن في حاجة الى الراحة فامض الى فراشك اذا شئت . وسأقص الخبر على الشريف الجليس وهو يقصه على مولاي ؟ »

فقال وهو يتململ من القشعريرة والسخونة « افعل .. اني ذاهب الى دار النساء » قال ذلك ونهض فاعانه ابو الحسن على القيام واتى بعض الخصيان تعاونوا على حمله على محفة في دهليز يؤدي الى دار النساء فودعه ابو الحسن وقال « انا ذاهب بامرك الى الشريف الجليس أقص عليه ما يسرُّك ثم يلحق هو بك الى دار النساء ؟ »

فاشار الخليفة برأسه ان افعل

وكانت دار النساء قصراً قائماً بنفسه لكنه يستطرق الى قاعة الذهب بدهليز مسقوف لانتقال الخليفة اليه متى شاء . وللقصر باب خاص عليه الحرس من الخصيان . وكان رئيسهم من عهد غير بعيد خصيًّا يسمى مؤتمن الخلافة فاتى عملاً اغضب صلاح الدين فقتله وجعل مكانه الطواشي بهاء الدين قراقوش احد رجاله المخلصين

وحالما صار العاضد في تلك الدار انزلوهُ من المحفة فمشى وهو يتوكأ على بعض الغلمان وهم يظنونهُ يطلب الذهاب الى حجرة احدى نسائه . فاذا هو يشير اليهم ان يأخذوه الى حجرة اخته سيدة الملك . وكانت امرأة عاقلة حازمة يرتاح العاضد لحديثها ويستأنس بآرائها . كأنه وهو في تلك الحال احسَّ بحاجته الى رأيها .

(١) حسن المحاضرة ٢٥ ج ٢

Marfat.com

الفصل السابع

سيدة الملك

فسارُوا به في رواق يؤدي الى غرفتها وهي منفردة عن سائر غرف القصر ولما بلغ السيدة قدومه خرجت لاستقباله ورحبت به واعانته على الدخول الى غرفتها فجلس على مقعد وهي تقول له « ما بال اخي امير المؤمنين مما يشكو ؟ روحي فداه »

قال « اشكو من برد وقشعريرة .. اصرفي الخدم . . فاني احب السكينة وان لا يبقى في هذه الغرفة غيرنا »

ففعلت . وكانت سيدة الملك جميلة الخلقة طويلة القامة صبوحة الوجه ذهبية الشعر جذابة النظر اذا نظرتَ في وجهه شعرت بهيبة تجلي في عينيها . وهي اكبر من اخيها الخليفة ببضع سنين اي انها في الخامسة والعشرين من العمر

فلما خلت به جلست بجانبه على السرير وطوقت عنقه بيدها وهي تقول « ما بال اخي ؟ فم يشكو ؟ حماه الله من كل اذى. اذا اعتل امير المؤمنين اعتل الناس جميعاً »

فأسند رأسه الى كتفها وتنفس الصعداء وهو يقول : اشكو حسبُ الظاهر من حمى تنتابني . . لكن العلة الحقيقية في هذا القلب . . » واشار الى صدره . ثم ارخى يده من شدة الحمى فجستها يده فرأتها شديدة الحرارة فقالت « هل ادعو لك الطبيب ؟ »

قال « كلا . . ان هذه الحمى ستنصرف الليلة . ولكن اذا كنت تعرفين طبيباً ينقذني من أولئك الاكراد ادعيه »

فاظهرت انها تمازحه وقالت « لو عرفت طبيباً في الهند وعلمت انه يشفيك لذهبت اليه بنفسي ولكن . . »

فرفع رأسه عن كتفها ليعاتبها بنظره . فوقعت عمامته فمد يده ليتناولها فتناولتها هي ووضعتها على رأسه فقال « انك تتجاهلين يا سيدة الملك .. انك افطن من ان تنبهي الى مرادي بالطبيب »

فضحكت وقالت « هب اني فهمت مرادك فانا لا ارى الامر يستوجب الاهتمام الى هذا الحد . . اصبر لا بدَّ من الفرج . . »

فتنهد وهو ملق رأسه على كتفها وحوّل عينيه نحو وجهها ازوراراً وقال « لم اجد بين رجالي من يسعفني في هذا الامر الا ابن عمنا ابا الحسن فانه تقيٌّ غيور. وقد

Marfat.com

اكد لي انه باذل جهده في هذا السبيل »

فلما سمعت اسم ابي الحسن اجفلت وكادت البغتة تظهر في وجهها لو لم تبادر الى التجلد . ولو انتبه العاضد وهو مستلق على صدرها لشعر بتسارع ضربات قلبها حالما سمعت ذلك الاسم . لكنه كان في شاغل من امر نفسه . اما هي فتجلدت وقالت « كيف اكد لك ذلك ؟ »

قال « اكده لي اليوم وسيذكر تفصيله للشريف الجليس وهو يقص علينا ذلك متى جاء بعد قليل . . »

قالت « هل تصدق هذا الرجل ؟ » وبان الكدر في عينيها

قال « كيف لا اصدقه . انه رجل محبٌّ مخلص ومن ذوي قرابتنا وانت تعلمين غيرته على دولتنا »

فهزت رأسها وسكتت ولسان حالها يقول « انه منافق مرائي »

فاعتدل العاضد في مجلسه لان الحمى اخذت في الهبوط واشتدت عزائمه وقبض على يد اخته وهو يقول « ارى الحمى تخف وطأتها عني أليس كذلك ؟ . . أنت يا سيدة الملك سيئة الظن في هذا الرجل منذ عرفناه لغير سبب او دليل .. فانه من ابناء عمنا ؟ . نعم انه ليس من احفاد الحافظ لدين الله جدنا . ولكنه من احفاد الآمر باحكام الله فهو من اعمامنا .. »

قالت « طيب . فليكن ما شئت » وتشاغلت بطرف ضفيرتها الذهبية تفتلها بين انامليها وبان الغضب في وجهها

فقال « وما الذي يغضبك من ذكره ؟ انك تكرهينه بلا سبب وهو بعكس ذلك . لم اسمع منه الا التعلق بك .. انه يتفانى في سبيل ارضائك »

فنظرت اليه شذراً نظر العاتب وقالت « كثر الله خيره .. اني لا التمس هذا الرضى »

قال « لا حاجة بنا الى التمسك بالرفض وهو ابن عمنا »

فقالت بصوت المرتاب « ومن يؤكد لنا صدق انتسابه الى الآمر . ليس عنده دليل غير شهادته لنفسه .. دعنا منه انه لا يستحق هذا الاهتمام »

قال « انك تظلمينه بهذا الحكم » واراد ان يتم كلامه فاذا باحد الغلمان دخل ووقف فعلمت سيدة الملك انه آت بخبر فقالت « ما وراءك »

قال « ان الشريف الجليس بباب القصر يطلب المثول بين يدي مولانا امير المؤمنين — والطواشي بهاء الدين قراقوش يمنعه »

Marfat.com

فالتفتت الى الخليفة وسألته اذا كان يشعر براحة تؤهله لمجالسة الشريف الجليس فقال « اني اشعر براحة فليأت »

فالتفتت الى الغلام وقالت « امض الى الطواشي وقل له ان امير المؤمنين هنا يريد ان يرى الشريف الجليس فلا يمنعه من الدخول »

فمضى الغلام . واحست سيدة الملك باستياء اخيها من معاملة بهاء الدين ولكنها تجاهلت . وبعد قليل جاء الجليس وهو شيخ طاعن في السن يجالس الخليفة ويؤانسه ويحدثه وهو مستودع اسراره

فلما رآه الخليفة هش له وامره بالجلوس بين يديه . ولم تحتجب سيدة الملك عنه لانه من المقربين وقد تعودته من صغرها فاكتفت بتغطية شعرها والالتفاف بمطرف من الخز فوق ثوابها وجلست على كرسي بجانب سرير اخيها

اما الخليفة فنظر الى الجليس نظر استفهام عما جاء به فادرك غرضه فقال « جئت للسؤال عن صحة مولاي .. فقد بلغني من الشريف ابي الحسن انك اصبت بحمى . لا اصابك الله بسوء وارواحنا فداك »

فابتسم وقد استلطف عبارة الجليس وقال « اني بدعائك وحسن نيتك قد زال عني كل بأس . جس يدي .. قد ذهبت الحمى ... ما الذي جئتنا به غير ذلك ؟ »

فجس يده واشار بعينيه اشارة الاقتناع وان لم يقتنع لان الحمى لا تزال وقال « نحمد الله على ذلك »

فقال الخليفة « قل ما الذي جئتنا به »

قال « خيراً ان شاء الله » وظهر في ملامح وجهه انه يكتم شيئاً لا يستحسن ذكره بين يدي سيدة الملك

فادركت ذلك فنهضت وقالت « اذا كان وجودي يمنع الجليس من الكلام فاني خارجة »

فامسك اخوها بثوبها وقال « اجلسي . . لست ممن يكتم عنهم . . تكلم ياعماه قل ما الذي جئت به ؟ »

135131

قال « اني جئت بامر ذي بال .. هل تأذن ان اقول كل شيء ؟ »

قال « قل . . لا تخف . . ما الذي اطلعك عليه ابو الحسن من مساعيه في سبيل مصلحتنا ؟ انه محب غيور ؟ »

قال « اصبت ياسيدي ان ابا الحسن شديد الغيرة على منصب امير المؤمنين وهو

Marfat.com

ساع في انقاذنا من هذا العدو المقيم »

قال الخليفة « سمعته يقول ذلك لكنه وعد بتفصيله . فهل فصله لك ؟ »

قال « فصله تفصيلاً اعجبني »

فتوجه الخليفة نحو الجليس بلهفة وقال « وما هو ؟ »

الفصل الثامن

الحشاشون

قال الجليس وهو يخفض صوته ويتطاول بعنقه كانه يحاذر ان يسمعه احد « يرى ابو الحسن يا مولاي ان العقدة التي يطلب حلها انما هي يوسف صلاح الدين هذا . فاذا ذهب تخلصنا من كل هذه الشرور . . وابو الحسن يسعى في انقاذنا منه »

فقال العاضد « وكيف ينقذنا ؟ »

فاشار الجليس بكفه على عنقه اشارة الذبح يعني انه يقتله . فبان الاستغراب في وجه الخليفة وقال « من يقتله ؟ ليس في مصر كلها من يجسر ان يمد يده اليه »

قال « ليست هذه خطته .. انه سيقتل هذا الرجل بدون ان يعرف القاتل »

قال « وكيف يمكن ذلك ؟ »

قال « ألا يعرف مولاي جماعة الباطنية او الاسماعيلية ؟ »

فاجفل العاضد عند سماع ذلك الاسم وقال « نعم اسمع بهم . واسمع انهم من انصارنا »

قال « اصلهم من شيعتنا ولكنهم الآن قوم شغلهم القتل »

فقطع الخليفة كلامه وقال « ليس هذا شأنهم اليوم فقط . اظنك حدثتني عن افعالهم غير مرة . الم تقل لي انهم قتلوا الملك الافضل اميرالجيوش وزير الآمر باحكام الله . وكان رئيسهم يومئذ يدعى بهرام . وهم قتلوا نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقي وقتلوا غيره ؟ »

قال « نعم ياسيدي وقتلوا كثيرين غيرهم ـ هذا هو شغلهم »

فقال العاضد « من هو زعيمهم الآن ؟ واين هم ؟ »

قال « ان اصلهم ياسيدي من اتباع الحسن بن الصباح في زمن جدك الحاكم بامر

Marfat.com

الله رحمه الله اي منذ اكثر من مئة وخمسين سنة . فاقام حسن هذا في قلعة الاموت قرب قزوين . والف جمعية من الفدائيين الذين لا يخافون الموت . ويعرفون بالحشيشية او الحشاشين نسبة الى عقار مخدر يتناولونه يسمونه الحشيشة . وتوالى عليهم زعماء كثيرون في بلاد فارس والعراق والشام . وزعيمهم الآن يقال له راشد الدين سنان يقيم في جبل السماق من اعمال حلب يعتصم هناك بالقلاع وعنده رجال مجربون يطيعونه حتى الموت . اذا امر احدهم بقتل ملك او سلطان بادر الى الطاعة حالاً . وقد قتلوا كثيرين كما ذكرت . وللشريف ابي الحسن صداقة شخصية مع سنان هذا بالنظر الى نسبه الشريف وله عليه دالة فاذا امره ان يبعث رجلاً يقتل هذا الرجل فعل . . »

فبان البشر في عيني العاضد يخالطه الاستغراب وقال « وكيف يستطيع القاتل ان ينجو من هذا المعسكر . وكيف يتصل الى عمله ودون الوصول اليه سدود وعراقيل كما تعلم »

قال « ان هؤلاء الفدائيين يتنكرون عادة بالبسة السياس او الخدم ويختاطون بالخدم زمناً يترقبون الفرص فاذا سنحت فرصة فعلوا فعلهم ثم لا يهمهم ماذا يصيبهم بعد ذلك ولا يبالون بالموت لانهم يرون القتل في هذا السبيل حياة سعيدة . . »

فالتفت الخليفة الى اخته يلتمس مشاركتها اياه في الاعجاب . فرآها مطرقة تفكر فقال لها « ارأيت اهتمام هذا الشريف في مصلحتنا ؟ »

فظلت ساكتة ولم تجب

فالتفت الى الجليس وقال « هل اخبرك متى يباشر هذا العمل ؟ »

فتشاغل الشيخ بحك عثنونه وسعل وتنحنح وبان الارتباك في عينيه فلم ينتبه الخليفة له . اما سيدة الملك فلم يفتها ما ينطوي تحت تلك الحركات فاخذت تختلس النظر وتصيخ بسمعها فاذا هو يقول « انه يا مولاي يشترط على هذا العمل شرطاً واحداً »

قال « وما هو ؟ اظنهُ يعني التزوج باختي .. »

فاجفلت سيدة الملك عند هذا التصريح الفجائي لكنها حولت وجهها الى ستارة معلقة بالحائط مطرزة بالوان بديعة فيها صور الطيور والاشجار تأخذ بالابصار واظهرت انها تتفرس في بعض صورها

اما الجليس فقال « لم يذكر ذلك لي ولكن ... مولاي يعلم .. ان ابا الحسن عريق في النسب الشريف ... وهو... اكبر ابناء عمكم المرشحين لولاية العهد سناً ..وو... »

Marfat.com

فلحظت سيدة الملك غرضه فبادرت الى الانتقام من تأثير عبارة اخيها عن زواجها فقالت « اظنهُ يشترط ان يكون ولياً للعهد بعد امير المومنين .. »

فاجاب الشريف بسرعة كانه يعتذر عن تطاول ابي الحسن قائلاً « ان طلبه هذا من قبيل الجنون.. ولامعني له لان مولانا امير المؤمنين اطال الله بقاءه وعجل موتنا قبل ان يصاب بسوء لايزال شابًا في مقتبل العمر وابو الحسن في حدود الكهولة ، ولكنه يشترط ذلك ترضية لنفسه على تحمل تلك المشقة .. مع ما يحدق بها من الخطر . ومن يدري هل يبقى حيًا يوماً واحداً بعد تنفيذ مهمته ؟ »

فقال الخليفة « يشترط ان يكون ولي عهد الخلافة بعدي ؟ »

قال « اطال الله عمر امير المؤمنين — ان الرجل لايرجو ان يتولى الملك ولكنه يحب ان يتمتع بولاية العهد فقط على ما يظهر »

فاطرق الخليفة وهو يعمل فكرته والتردد ظاهر في عينيه ثم رفع بصره الى الجليس وقال « وما رأيك ؟ »

قال « اذا اذن لي مولاي ارى ان يوليه الوِلاية ويشترط في عقدها ان تكون بعده الى نجلكم سيدي الحامد لله الامير داود ولي العهد الحقيقي . فاذا استطاع انقاذنا من هذا الكردي واعادة النفوذ الى مولاي امير المؤمنين فانه يكون قد استطاع عملاً لم يستطعه سواه وتكون ولاية العهد ترضية معنوية له »

الفصل التاسع

حرية الفكر

ولحظت سيدة الملك ان اخاها اوشك ان يقبل وظهر لها من خلال حديثه انه راض ان يزوجها به وهي لا تقدر ان تتصوره بل هي تكرهه كرهاً شديداً لغير سبب غير الشعور الذاتي . فانها تتصور فيه الخبث والخيانة وهي منصفة لا ترى صلاح الدين يستحق القتل لانه لم يعمل عملاً يستوجب ذلك وانما هي نعرة السيادة تحمل طلابها على اتحال الاسباب الباطلة . فنظرت الى اخيها وقالت « تريد ان تقتل صلاح الدين وتستبدله بابي الحسن هذا ؟ »

قال « لا استبدله .. لكنه اذا استطاع قتله سميته ولي العهد »

قالت « وما ذا تفعل بداود ابنك ؟ »

Marfat.com

قال « يكون وليًّا للعهد بعده »

قالت « ولماذا هذا العمل . لماذا تريد التخلص من صلاح الدين ؟ وترتكب كل هذه الآثام والاخطار في سبيل قتله . . ماذا فعل ؟ »

قال « تسألينني عما فعله ؟ كالكِ لاتعلمينه »

قالت « ربما كنت اعلمه لكنني احب ان يقول ذلك امير المؤمنين من فيه »

قال « انه جعل كل النفوذ اليه ولم يبق لي من السيادة غير الاسم »

قالت « وهل كان النفوذ اليك قبله ؟ الم يكن الوزراء هم اصحاب النفوذ ؟ وكلهم من الاجانب الارمن او الاتراك . وهذا كردي وما الفرق بينهم ؟ »

فقال « لكنه استبد وغير وبدّل و . . »

فاحست انها فازت عليه بالبرهان فلم تصبر حتى يتم كلامه فقالت « اذا كان قد استبد فانما استبدّ في رفع المظالم عن الناس . كانت المكوس لاتحتمل فرفعها او خففها .. الاجل ذلك تدس الدسائس عليه وتكيد المكائد لقتله ؟ ان الساعون في ذلك هم طلاب السلطة يحسدون الرجل على مكانته فيثيرون غضب اميرالمؤمنين عليه . واذا شاء اخي ان يعرف حقيقة منزلة هذا الكردي ليتذكر الطريقة التي استنجدنا بها سلطانه نور الدين . الم تراسل شعورنا مع كتاب الى نور الدين تقول فيه « هذه شعور نسائي في قصري يستغثن بك لتنقذهن من الصليبيين » ؟ فالرجل ابي الطلب وانجدك باسد الدين وابن اخيه هذا يوسف صلاح الدين . . هل يُستنجد قائد بطريقة اذلّ من هذه ؟ ان شعري لا يزال ينقص تلك الخصلة التي قطعتها منه » قالت ذلك وجسّت ضفائرها كأنها تحقق ذلك . ثم عادت الى الحديث فقالت « ومع ذلك فقد اشترطنا لنورالدين ان نعطيه ثلث البلاد اقطاعاً غيراقطاع رجاله . ولما اتوا وانقذونا من الافرنج نسيناجميلهم وصار وزيرك شاور يدافعهم ويماطلهم فقتلوه . ويشهد الله ان صلاح الدين احسن قلباً واشدُّ اخلاصاً لك من شاورهذا . لكننا لم نستفد من هذا الحادث فشجعنا الخصي مؤتمن الخلافة قيم هذه الدار على مناهضة صلاح الدين ورجاله حسداً منه . الايعلم مولاي واخي ماذا فعل مؤتمن الخلافة ؟ انه اتفق مع جماعة من المصريين على مكاتبة الصليبيين ليتحد معهم على قتل صلاح الدين . فهل فعل ذلك غيرة عليك اوعلى الدولة ؟ وبلغ خبره الى صلاح الدين فقتله فغضب خصيان القصر لمقتله لانهم سود من جنسه فاجتمع منهم خمسون الفاً وناهضوا رجال صلاح الدين والتقى الجيشان امام هذا القصر ونحن فيه . لا انسى هول ذلك اليوم ولا انسى امير المؤمنين يومئذ وقد جلس في

Marfat.com

المنظرة يشرف على المقاتلة وهواه مع السودان . فاشتدت عزائمهم وخاف صلاح الدين ان تعود العائدة عليه وعلى رجاله فامر النفاطين أن يرموا قوارير النفط المشتعل على المنظرة وعلى القصر و . . . »

فقطع الخليفة كلامها قائلا « ولكنني شجعت رجال صلاح الدين فارسلت زعيم الخلافة يقول « دونكم والكلاب العبيد اخرجوهم من بلادكم » فامتنعوا عن ارسال النفط »

قالت « ولكنك لم تقل ذلك الا خوفاً على المنظرة من الحريق » وكانت سيدة الملك تتكلم بحماسة وكل جوارحها تتكلم معها وقد توردت وجنتاها وابرقت عيناها . فلما وصلت الى ذكرى الحريق امتقع لونها وتغيرت ملامحها كأنهـا فوجئت بذكرى محزنة فتوقفت عن الكلام . فاستغرب اخوها تغيرها فجأة والتفت الى الجليس فرآه ينظر اليها ايضاً

اما هي فتجلدت وعادت الى الكلام قائلة « ولم يكن كلامك وحده الذي اوقفهم . . »

قال « وكيف ذلك ؟ »

قالت « دعنا من هذا الموضوع الآن . . لان في تذكاره ما يؤلمني ويؤلمك . . وانت احوج الى الراحة والسكينة » وتشاغلت باصلاح نقابها على رأسها

فجس العاضد يده وقال « اني في خير ولا بأس بي وقد زالت الحمى والحمد لله قولي ما هو السبب الآخر »

قالت « هل اقول ؟ »

قال « قولي . . »

الفصل العاشر

خصلة الشعر

فمدت يدها الى جيبها واستخرجت خصلة من الشعر ذهبية من لون شعرها ودفعتها اليه وهي تقول « هل تعرف هذا الشعر ؟ »

فاجفل وقال « هو بشعرك » هذه هي الخصلة التي قطعتها من شعرك وارسلتهـا في جملة شعور نسائي الى صاحب دمشق . . من اين اتتك ؟ وكيف وصلت اليك ؟ »

قالت وصلتني في ذلك اليوم الذي انتشبت فيه الحرب بين عبيدنا ورجال صلاح الدين »

Marfat.com

قال « وكيف ذلك »

قالت « قد ذكرت انت الآن ان صلاح الدين منع رجاله من ارسال قوارير النفط قبل ان ينطلق منها شيء على القصر . . قد يكون هـذا هو الواقع لكنني اعلم اننا ونحن في هذا القصر وقلوبنا ترتجف هلعاً والسهام تترامى علينا من رجال صلاح الدين رأيت قارورة مشتعلة وقعت في الدار قرب حجرتي هذه لا ادري من اين اتت فذعرت وصحت بالخدم ان يتلافوا خطرها فلم يسمعني احدٌ لاشتغال الرجال برمي النشاب بعيداً عني . وانا في ذلك واهل القصر كل منهم في شاغل من نفسه رأيت رجلاً متنكراً بثوب الخصيان قد غطى وجهه باللثام وثب من داخل الدار ـ لا ادري كيف دخلها . فذعرت ولكنني ظننته اسرع الى نجدتي فما عتمت ان رأيته امسك بيدي وجذبني نحوه كانه يريد ان اتبعه فانتثرت منه فعاد وامسكني ثانية وجذبني اليه كانه يريد ان يحملني ويطير بي . ولم يكن في هذه الغرفة احدٌ يراني فصحت واستغثت فلم يسمع صوتي لان الضوضاء كانت قد ملأت هذا الفضاء ثم جاء رجلٌ آخر اعان الاول على اجتذابي وهما يشيران اليَّ ان اتبعهما حالاً وهددني احدهما بخنجر استله من منطقته فأثر فيَّ ذلك المنظر وخارت قواي . وكدت اغلب على امري وقد ذهب نقابي وانحل شعري . وانا في ذلك رأيت شاباً وثب نحوي يظهر من لباسه انه من رجال صلاح الدين فايقنت انه سيعين ذينك الرجلين عليَّ واذا به صاح بهما صيحة الجبارين وخنجره مسلول في يده واوشك ان يقتلهما جميعاً فلما رأياه خافا وتركاني واركنا الى الفرار . وظل هو واقفاً كالاسد ونظر اليَّ بلطف وقال « من هم اولئك الانذال ؟ »

قلت « لا اعلم . ومن انت وماذا تريد مني ؟ »

فقال « لا تخافي يا سيدتي اني من رجال صلاح الدين المحاصرين لهذا القصر ورأيت ذينك الرجلين يعذبانك وحالما رايت شعرك الذهبي علمت انك من نساء الخليفة فبادرت الى انقاذك واحمد الله اني قد فزت »

فسألته اذا كان علينا بأس من الاحراق فاكد لي انهم لم يلقوا نفطاً علينا وانما كان ذلك من بعض اللصوص رموا النفط من جهة اخرى لغرض لهم . ولعلهم ارادوا ان يشغلوا الناس بالنار ويختطفوني »

ولما وصلت سيدة الملك الى هذه العبارة تغيرت سحنتها وتوردت وجنتاها وبلعت ريقها وهي تلهث من التأثر .

وكان الخليفة والجليس يسمعان كلامها وبراعيان الحماسة التي كانت تتجلى في محياها

Marfat.com

ولحظا المتغير الذي طرأ عليها عند ذكر ذلك الشاب ولم ينتبها لما يخالج قلبها من جهته . فلما سكتت قال العاضد « من هو هذا الشاب وكيف عرف انك من نساء الخليفة ؟ . انه لامر غريب . كيف يعرفك شاب غريب وانت لا تخرجين الا محجوبة ؟ وهذا مع ذلك من رجال صلاح الدين . . قولي الحق »

قالت وهي تنظر اليه شذراً « انك تتهمني يا امير المؤمنين . ولا مكان للريب . . قد سألت هذا الشاب كيف عرفني فمد يده الى جيبه واستخرج هذه الخصلة ودفعها اليَ وقال . أليست هذه من شعرك « وادناها من شعر رأسي فاذا هما بلون واحد »

فابتدرها الخليفة قائلاً « مس شعرك بيده ؟ »

قالت « لم يمسه ولكنه ادناها من شعري .. انه شاب غير متّهم وانا مدينة له بحياتي وشرفي ولولاه لذهبت فريسة ذينك الخائنين .. » وحرقت اسنانها

قال « الم تعرفي من هما ؟ »

قالت « لم اعرفهما يقيناً ولكنني اشتبهت بواحدٍ منهما »

قال « من هو ؟ . قولي »

قالت « لا اقول . . لاني اخاف ان يخطئ ظني فاورث الاذى لرجل بريء . ولولا ذلك لاطلعتك على هذا الحادث من ذلك اليوم . وقد مضى عليه الآن اكثر من سنة ولم اذكره لك لئلا القي الشك في خاطرك »

فصاح العاضد وقد امتقع لونه من شدة الغضب « لماذا لم تخبريني حتى الآن . ايصيبك مثل هذا الامر وتكتمينه طول هذه المدة ؟ من تجاسر على هذا العمل ؟ من تظنين ذلك الرجل ؟ قولي »

قالت « لا تغضب يا اخي . اني لم اقل ولا اقول الان خوف الوقيعة بالابرياء وقد نجوت والحمد لله . ولكنني قصرت بحق ذلك الشهم الذي انقذني » وحالما ذكرته ابرقت عيناها ولو تفحص اخوها صدرها لرأى قلبها يخفق خفقاناً سريعاً . لكنه لم يفقه فقال « الا تعرفين اسم الذي انقذك .. من هو ؟ »

قالت « لم اسأله عن اسمه وكنت اتوقع ان يأتيك في اليوم التالي ويقص عليك الواقع فتكافئه فالظاهر انه لم يفعل . وانا لم أتملَّ من رؤيته اما هو فبعد ان اطمأن عليَّ وتحقق نجاتي من الخطر دفع اليّ هذه الخصلة وهو يقول « خذي ياسيدتي هذه الخصلة من شعرك .. صيانة لها من ان يمسها غير مستحقيها . ولم يكن يجدر بالخليفة ان يرسلها وسيلة للاستغاثة » قال ذلك وانصرف مسرعاً سرعة البرق ولم اعد ارى من ذلك الحين

Marfat.com

الفصل الحادي عشر

من تتهمين

فاصبح صدر الخليفة يغلي من شدة الحنق ونسي ضعفه في ذلك اليوم . ولم يتمالك عن النهوض بسرعة حتى قبض على الخصلة واجتذبها من يد سيدة الملك وجعل يتفرس فيها ويقابلها بسائر الشعر فاذا هو هي فالتفت الى الجليس وقال « ماذا ترى يا عماه ؟ . كيف يدخل الغرباء قصري ومعهم شعور نسائي .. ولكن آه ! انا المذنب لاني تسرعت في الاستغاثة فارسلت شعورهن الى صاحب دمشق .. ولكن كيف وصلت هذه الخصلة الى هذا الشاب و كيف احتفظ بها حتى عرف صاحبتها ؟ لا ادري »

وكان الجليس يسمع ويرى وقد إخذته الدهشة فلما رأى غضب الخليفة وشدة تأثره قال « خفِّفْ عنك يا سيدي . لكل شيء سبب ولا يهمنا سبب وصول هذه الخصلة الى ذلك الكردي بقدر ما يهمنا معرفة الرجل المتنكر الذي اراد اختطاف مولاتي سيدة الملك .. من يجسر على ذلك ؟ »

فالتفت العاضد الى اخته وقال « قولي .. قولي من تتهمين ؟ من هو ذلك النذل الذي تجاسر على دخول قصري وخرق حرمتي ..» قال ذلك وهو يلهث وقد احمرت عيناه وارجع الخصلة اليها ورجع الى مقعده وقد احس بانحلال عزائمه

فتقدمت اخته نحوه واخذت تخفف عنه وتمسح جبينه وتقول له « لا تغضب يا اخي .. اسمح لي ان لا اذكر اسم الرجل الذي اتهمه لاني اتهمته بمجرد الظن وبعض الظن اثم . وانا واثقة ان هذه التهمة مهما كانت ضعيفة تكفي لايقاع الاذى بصاحبتها . فحرام عليَّ ان اعرّض نفساً للهلاك . »

قال « وحياة رأسي الا قلت من هو ذلك الخائن واعدك ان لا اسارع الى الانتقام الا بعد التبصر »

فاطرقت وهي تصلح نقابها على رأسها ثم جعلت تلاعب خصلة الشعر بين انامِلها واخوها شاخص فيها ينتظر نطقها فلما استبطأ جوابها قال « ما بالك لا تقولين ؟ »

قالت « بالله دعني .. سأقول لك ذلك بعد الان دعني افكر قليلاً .. »

فالتفت الشيخ الجليس الى العاضد وقال « دعها يا مولاي الان ولا تغضبها .

Marfat.com

وسنقول لنا . . وليس في الامر ما يدعو الى العجلة ولنرجع الان الى ما كنا فيه من امر النجاة من هؤلاء الاكراد . . ماذا رأى مولاي في ما عرضه علينا ابن عمه ابو الحسن »

فلما سمعت سيدة الملك ذلك الاسم اقشعر بدنها ولكنها تمالكت وصبرت لتسمع ما يقوله اخوها فالتفت الى الجليس وقال « هو يعدنا بقتل الرجل ويطلب ولاية العهد مكافأة له . . فنحن نعده بذلك »

قال « وعد امير المؤمنين يكفي وقوله حجة لكن ابا الحسن لا يصدقني فهل تكتب له كلمة ؟ »

قال « لا . . لا . . يكفي ان تقول له ذلك شفاهاً »

فقال « حسناً . . سأقول له . . ولكن هناك . . » وسكت وهو يتشاغل بحك لحيته كانه يكتم امراً آخر يخاف المجاهرة به

فقال العاضد « ولكن هناك ماذا ؟ قل »

قال « اخاف ان تغضب سيدتي الاميرة لانها . . » وسكت

فقالت « ما الذي يغضبني ـ كيف عرفت انه يغضبني ؟ »

فتبسم وقال « قد ادركت من خلال حديثك انك لا تحبين ابا الحسن »

فابتدرته قائلة « وماذا احبه وهل هو يتطلب مني ذلك ؟ »

قال « لا . لكنه يلتمس التقرب من امير المؤمنين والتشرف بـ . . »

قالت « بماذا ؟ »

فالتفت الجليس الى العاضد وقال « هل اقول يا مولاي ؟ »

قال « قل بماذا يريد ان يتشرف ؟ اظنني علمت مراده لانه طالما لمح الى ذلك في حديثه معي . . والحق يقال انه كفء لما يطلبه . . » وتنحنح وحوّل وجهه نحو سيدة الملك

فادركت ما يعنيه . وكان قد ذكر لها مرة قبل هذه رغبة ابي الحسن بالزواج بها فرفضت . فلما سمعته يشير الى ذلك تجاهلت وقالت « لم افهم مرادك . ماذا تعني ؟ »

فقال « اظنك فهمت ما اعنيه » والتفت الى الجليس وقال « ما هو رأيك في هذا الامر يا عماه . . اني لا ارى اكفأ من ابي الحسن لأختي »

فاعتدل الجليس في مقعده وقال « لاريب انه خير كفء لما يتصل به من النسب الشريف فضلاً عن تعقله ودهائه . ويكفي ما رأيناه من تفانيه في مصلحة مولاي

لانقاذه من هؤلاء القوم . والذي اراه ان توافقه على هذا الطلب فيهون عليه السكوت عن الشرط الآخر — اعني اذا كان جواب مولاي من حيث خطبة مولاتي له بالايجاب لا اظنه يشدد في طلب الشرط بولاية العهد بل يكتفي بهذا لانه شديد الاعتزام لسيدة الملك ويعدُّ حصوله عليها منة كبرى . وعند ذلك يكون هو عوناً لنا في ما نريد بلا شرط »

فلما سمعت سيدة الملك ذلك التصريح قالت وهي تتصنع بخفض صوتها « هو يطلب ان يتزوجني وانت تستحسن ذلك ؟ واحب ان اعرف رأي اخي امير المؤمنين ايضاً »

فظنها تعني ما تقوله حقيقة وهو يريد ان تقبل طمعاً بالنجاة من صلاح الدين فقال « وهذا هو رأيي أيضاً كما تعلمين من قبل »

فاجابت ببرود « لكنه ليس رأيي انا .. » وحولت وجهها عنه

فقال العاضد « يظهر انك لا تزالين على خطئك .. ان ابا الحسن ليس في اهلنا جميعاً من هو اكفأ منه لك .. فضلاً عن تفانيه في خدمتنا »

فقالت « اني لا اطلب كفوءا ولا غير كفء . قلت لك من قبل اني لا اطلب الزواج . . دعنا من هذا الان .. وليطلب النصيب من طريق آخر .. »

فقال الجليس « ولكن ياسيدتي .. اذا قبلت فانك تخدمين مصلحة مولانا امير المؤمنين لان ابا الحسن اقدر انسان في الدنيا على انقاذه .. »

قالت وهي تنظر اليه نظر الاستخفاف « ان ابا الحسن كاذب .. انه لا يستطيع شيئاً من ذلك »

فضحك الجليس ضحك استعطاف وقال « قد ظلمته بهذا الحكم يا سيدتي .. لاني على يقين من تفانيه في خدمة مولانا وهو صادق الغيرة على شرف آل البيت لانه من صميمهم »

فقالت « وهو كاذب في هذا ايضاً — ان آل البيت عرفوا بصدق اللهجة والاخلاص وهذا رجل منافق وكفى »

فامتعض العاضد من حكمها بهذه الصراحة وقال « لا دليل على ما تقولين غير قولك .. قد عرفت الرجل منذ بضعة اعوام ولم ار منه الا كل مودة واخلاص .. ولا اعلم كيف جاز لك الحكم عليه بالكذب والنفاق »

Marfat.com

قال: « اما انا فاعلم . وستبدي لك الايام صدق قولي .. اظنك قد تعبت يا اخي واتأسف لاننا شططنا بالحديث الى هذا الحد . . وانت منحرف المزاج فاذهب الى فراشك وستهدى في الغد اني اقول الحق »

وكان العاضد قد تعب فعلاً وكان لقوله عليه تأثير شديد . فرأى ان يطيعها ويؤجل الامر الى فرصة اخرى . فنهض ونهض الجليس وذهب كل الى فراشه والخليفة احوج الجميع الى الرقاد

الفصل الثاني عشر

دار الاضياف

اما الجليس فكان اقلهم رغبة في الرقاد لما اصابه من الفشل في المهمة التي كلفه ابو الحسن بقضاءها . وكان الجليس شيخاً حسن الظن قد استهواه ابو الحسن بدهائه ومواعيده واقنعه ببرهانه وزلاقة لسانه ان انتقال ولاية العهد اليه خيرٌ للدولة وله ولكل واحد . ولم يكن عند الجليس شكٌّ في اقتدار ابي الحسن على انقاذ الدولة من صلاح الدين . فلما كلفه بهذه المهمة سعى فيها من كل قلبه وصمم على ترغيب العاضد فيها وهو يعتقد انه يخدم بها مصلحته

فلما عاد بالفشل اصبح لا يدري كيف يبلغ ابا الحسن نتيجة تلك المهمة فاعمل فكرته في تلطيف الاسلوب حتى لا يثقل الامر عليه

وكان ابو الحسن نازلاً في دار الاضياف على مقربة من القصر الغربي وهي دار كبيرة كانت في الاصل قصراً للمظفر بن امير الجيوش اقام فيها حتى توفي فجعلت داراً للاضياف برسم الرسل الواردين من الملوك [1] يتولاها نائب يسمى عدي الملك ينوب عن صاحب الباب في لقاء الرسل الوافدين على مسافة وينزل كلاً منهم في دار تصلح له ويقيم له من يقوم بخدمته . ثم صار صاحب دار الاضياف يسمى في الدولة التركية مهمندار ولكنه كان في زمن روايتنا يسمى عدي الملك

وكان عدي الملك كثير العناية بابي الحسن لما رأى من تقربه الى الخليفة ومنزلته

(١) المقري ١٦١ ج ١

Marfat.com

عنده فافرد له داراً خاصة وامر الغلمان بخدمته . وكان ابو الحسن قد سحره بظاهراته وبما يقصّه عليه من اقتداره وعلو منزلته ـ والدولة في اواخر ايامها تروج فيها السفاسف والمظاهرات ويتعلق اصحابها بالاوهام دون الحقائق وبالقشور دون اللب . يصيرون الى ذلك لما يتولى الدولة من الهرم وتتزعزع اركانها وتصبح عرضة للفاتحين فتذهب انفة اصحابها ويشتغل كلٌّ منهم بنفسه ويصبح همُّه الاحتفاظ برزقه ورزق اهله وهو يتوقع زوال الدولة فلا يرجو ضمان ذلك فيها فتطيش آماله وتتعلق باضعف الاسباب واوهى المواعيد . والانسان اذا تولاه اليأس في امر صدَّق كل قول يعيد اليه الامل ولو كان ذلك القول من المستحيلات . ويتكاثر اهل الدسائس في مثل هذه الحال للاصطياد في الماء العكر فيزينون القول ويزوقون الاعمال فيصبح اكثر معوَّل الناس على الظواهر

وكان ابو الحسن من اولئك الصيادين وهو من اهل الدهاء والذكاء قوي الحجة لا يبالي بما تد يرتكب في سبيل الوصول الى غرضه من قتل او كذب او تملق او تزلف . والذكي الداهية اذا اغضى عن مراعاة الذمة وصدق النية لا يعجزه الوصول الى ما يبغيه من الاغراض . وكان ابو الحسن طامعاً بالخلافة او بولاية العهد على الاقل كما تبين لك من حديث الجليس الشريف . فاتخذ كل وسيلة تؤديه الى ذلك الغرض . ومن جملة ذلك طلبه التزوج بسيدة الملك لعلمه بنفوذها على اخيها ولان انتسابه الى العلويين يتأيد بزواجها . حتى انه يفضل التزوج بها اولاً فيسهل عليه زواجه كل ما يبغيه "لكنها لم تكن تحبه ولا تخلص له ولا كانت تعتقد صحة نسبه . وقد خطأت اخاها لانه سلم بصحة ذلك النسب ولا شاهد له عليه الا دعواه

على انه راى ان يستعين بالجليس الشريف لما يعلمه من منزلته عند العاضد لكبر سنه فكلفه بتلك المهمة واقنعه بصدق نيته فصدقه واخذ جانبه . لكنه لم يستطع اقناع سيدة الملك فعاد في ذلك المساء آسفاً لفشل مهمته وقضى ليلته وهو يفكر في الاسلوب الذي سيبلغ فشله به لابي الحسن

وفي الصباح التالي بكر الى ابي الحسن في دار الاضياف قبل ان يطلبه الخليفة لمجالسته . وكان ابو الحسن في انتظاره على مثل الجمر لكنه حالما جاءه الغلام ينبئه بمجيئه نهض لاستقباله ورحب به واظهر انه لم يكن يتوقع مجيئه واهتمامه الى هذا الحد فابتدره بالسؤال عن صحة الخليفة فقال « فارقته مساء الامس احسن حالاً »

قال « ارجو ان يكون العارض قد زال بحول الله بزوال السبب »

Marfat.com

فابرك الجليس غرضه فقال « ارجو ان يزول السبب تماماً وعند ذلك تحقق زوال المسبب »

قال « ان السبب لا بدَّ من زواله باذن الله .. وهل تظنني ارجع عن هذا الامر ؟ اني افعل ذلك لمصلحة امير المؤمنين . . وانا احبُّـه واحترمه لا لغرض يرمني . . »

فاعجب الجليس بطيب عنصره وازداد خجلاً من التصريح له بما جرى بالامس . ولحظ ابو الحسن سبب ارتباكه لانه كان يتوقع رفض الخليفة طلبه ويعلم ان سيدة الملك لا تقبل به من اول طلب فتجاهل ونظر الى الجليس وهو يظهر السذاجة وسلامة النية وقال « انما ارجو ان يطمئن ولانا امير المؤمنين منذ الآن انه ناجٍ من كل شرّ ليرتاح خاطره ويسترجع صحته . . هل اقنعته بذلك ؟ »

قال « اكدت له عزمك وهو يعتقد اقتدارك على هـذا الامر لكنه . . . . » وتشاغل بحك لحيته وقد ارتج عليه

فابتدره ابو الحسن قائلاً « اود انك لم تفاتحه بما كنا تحادثنا به البارحة من حيث ولاية العهد لئلا يظنني اعلق اهمية على هذا الشرط . . اني لم اعن اشتراطه ولا جعلت نجاة الخليفة متوقفة على انقاذه لكنني متى وفقت الى انقاذه لا اظنه الا فاعلاً ذلك من تلقاء نفسه — وانا اؤكد لك اني اذا فعل هو ذلك ابادر الى رفضه لان مشاغل الخلافة ثقيلة .. وافضل ان اكون من بعض المشيرين المقربين و . . . . »

فلم يصبر الجليس الى اتمام كلامه فقاطعه قائلاً « بارك الله فيك وهذا ما كنت اتوقعه من اريحيتك ولكنني لم اتمالك ان صرحت بالامر البارحة و . . . »

فاسرع ابو الحسن قائلاً « ولا شك ان الامر شق عليه . . طبعاً لانه غريب على خاطره ولا استغرب رفضه . . اني منصف . . لا اقول الا الحق . . »

قال « لا . . لا . . لم يرفضه ولكن . . »

قال « هل ذكرت ذلك بينك وبينه في جلسة سرية ؟ »

قال « لا . لم اوفق الى ذلك . . . ولكن الاحوال قضت ان اذكره له وهو في دار الحريم و . »

فقال ابو الحسن مسرعاً « وفي حضور اخته على ما اظن . . »

قال « نعم . . هكذا حصل . . »

فقال « لا بد انها كانت اكثر استغراباً منه . . انا لا الومها على ذلك كما اني لم الم اخاها . . . ولعلك ذكرت لها شيئاً آخر غير ولاية العهد . . » قال ذلك وهو ينظر في

Marfat.com

عيني الجليس ويظهر المداعبة

فابتسم الجليس وقال « نعم ذكرت لها وتكلمت بما يمليه عليَّ اخلاصي لك .. »

وبلغ ريقه

فعلم ابوالحسن ان جوابها لم يكن بالرضا ولولا ذلك لانتهج الجليس اسلوباً آخر في التبليغ فراى ابو الحسن ان يغطي فشله بالدهاء فقال « اتمنى ان تكون قد ترددت في اجابة هذا الطلب ايضاً »

فاستغرب تمنيه وقال « نعم ترددت قليلاً .. اظنها اجلت الحكم في ذلك الى ما بعد انقضاء هذه الازمة او . . . لا ادري . . »

قال « قل صريحاً ياعماه .. انها رفضت وقد تكون عالقة القلب باحدٍ .. او .. فليكن ما تريد .. انا لا اعتب عليها ولكني اعتب على اخيها الخليفة .. فانه مطالب بسيرة اخته وسمعتها »

فتوجه الجليس بكليته اليه وقال « اؤكد لك ان امير المؤمنين لم يقصر من جهتك فانه حسن الظن بك . . . »

فقال ابو الحسن وهو يتشاغل بتمشيط لحيته « يكفي ... كنت احسبها عاقلة كما يقولون لكن يظهر انها لاتعرف مصلحة نفسها ولا لوم عليَّ بعد الآن .. لا اعني اني اكف عن فداء امير المؤمنين بدمي . . ولكني لا اوى وجهاً للرفض . . واسمح لي ان اقول ما في خاطري — وان خرجت به عن الاحتياط المطلوب — ان سيدة الملك لايطلبها من هو اجدر مني بها .. الا ان تكون مشتغلة ببعض الرجال فهذا شيء آخر »

قال « كلا لكنها قالت انها لا تريد الزواج »

فضحك ابو الحسن وهو ينهض من مجلسه وقال « لا تريد ان تتزوج ! هذا كلام غير معقول . . ولكنها سترى نفسها مضطرة للزواج بغيري وتندم لانها لم تقبل بي »

فنهض الجليس لنهوضه وصبر ليرى ما يريده فقال ابو الحسن « اظنني اخرتك عن مجالسة امير المؤمنين وقد يكون في حاجة اليك فارجو ان تؤكد له اني مقيم على ولائه افديه بروحي — ولا تذكر له شيئاً عن سيدة الملك .. انما اقول سامحها الله لانها لم تحسن المعاملة . . »

فودعه الجليس وهو معجب بطيب سريرته وعلو همته وسعة صدره وعاد الى منزله ينتظر امر الخليفة

Marfat.com

الفصل الثالث عشر

عيسى الهكاري

اما ابو الحسن فلما خلا بنفسه رفس الارض برجله من الغضب وقد اخذ الحنق منه مأخذاً عظيماً وتمشى في الغرفة ويداه متعانقتان وراء ظهره وهو يعمل فكرته ويتلاهى حيناً بالسنجقة او السعال او يحك ذقنه او يصلح عمامته . ثم وقف وقال يخاطب نفسه « رفض العاضد ان اكون ولي العهد بعده . لكنه سيراني خليفة — واما تلك الملعونة اختته فلا تزال ترفض الزواج بي — ان رفضها هذا اشد وطأة على نفسي من رفض الخليفة لكنها ستندم وتعود صاغرة . . متى رأت ما يبلغ من كيدي . . . سوف تأتيني صاغرة باكية . . واظنها تحسبني مغرماً بها واني اريد التزوج بها عن شغف بجمالها . لست ممن يتعلقون بهذه الاوهام — ليس في قلبي حب لاحد... لا احب احداً ان حب النساء من الاوهام الباطلة التي تصرف الرجال عن المطالب العالية .. اني اطلب ما يقصر عنه اخوها الخليفة نفسه . . سأقتل صلاح الدين ولكن ليس اكراماً لها ولا لاخيها . . سأقتله ليخلو لي الجو . . سأقتله واقتل العاضد واقتل كل من يقف في سبيلي وصولي الى الخلافة . . انها حق لي . . وقد اختلسوها مني . . » قال ذلك وكاد صوته يرتفع من عظم التأثر فانتبه لنفسه وسكت

ثم مشى الى غرفة داخلية اقفل بابها وراءه وقال وهو يشير بيده اشارة التهديد « اما تلك الخائنة فسأذيقها مر العذاب ... سأجعلها تندم ولاة ساعة مندم .. »

ثم اشتغل بتبديل ثيابه وهو يعمل فكرته في تدبير الحيلة لاغاظة سيدة الملك قبل كل شيء . فلما فرغ من اللبس امر بالبغلة فاتته وركب الى حيث يقيم صلاح الدين ووالده ورجال حاشيته . وفي جملتهم رجل يقال له ضياء الدين عيسى الهكاري من الامراء الصلاحية كبير القدر كان صلاح الدين يعول عليه في الآراء والمشورات . وكان في مبدأ امره يشتغل بالفقه بمدينة حلب فاتصل بالامير اسد الدين عم صلاح الدين وصار امامه يصلي به الفرائض الخمس . فلما توجه اسد الدين الى مصر مع بهاء الدين قراقوش صحبهما عيسى هذا وكان مخلصاً لصلاح الدين . فلما توفي اسد الدين اتحد عيسى وقراقوش على تنصيب صلاح الدين موضعه في الوزارة ودققا في الحيلة حتى بلغا المقصود [1]

(١) ابن خلكان ٢٩٧ ج ١

فلذلك كان لعيسى دالة على صلاح الدين يخاطبه بما لا يقدر عليه غيره . وكان من الجهة الاخرى علوي النسب فكان له مع ابي الحسن صداقة . وكان عيسى يحاسن ابا الحسن وفي نيته انه سيحتاج الى استخدامه في مصلحة صلاح الدين فكان يكرمه ويرحب به وصلاح الدين لا يعلم . لان ابا الحسن كان يجتنب الاجتماع بصلاح الدين . وكان عيسى الهكاري في ذلك الحين في منظرة اللؤلؤة يجالس صلاح الدين ويباحثه ويرشد اباه نجم الدين الى ما يسهل عليه المهمة التي جاء من اجلها الى مصر

ركب ابو الحسن الى منظرة اللؤلؤة لا يريد دخولها ولكنه كان يعلم ان ضياء الدين الهكاري يختلف الى هناك في تلك الايام فتوقع ان يراه في الطريق فيظهر انه التقى به صدفة ليهون عليه جره في الحديث عفواً الى الغرض المطلوب . وكان يعلم ايضاً انه يتردد الى دار العلم بجوار القصر الصغير . ودار العلم هذه انشأها الحاكم بامر الله وجمع فيها الكتب وجعلها مباءً لطلاب العلم للمطالعة اوالنسخ . وفيها الحبر والاقلام والمحابر ـ وقف على ذلك اماكن ينفق على دار العلم من ريعها . وكان يجتمع فيها العلماء للمناظرة والمجادلة فاصبحت في ايام الافضل بن امير الجيوش مجتمعاً للمجادلة الدينية الخطرة فامر الافضل بابطالها اي اقفالها على الجمهور منعاً لفساد المذهب . لكنها ظلت تحتوي على كثير من كتب الفقه والتاريخ فمن احب من الخاصة ان يطالع شيئاً منها اذن له . فكان الهكاري من جملة المترددين الى هناك

فلما دنا ابو الحسن من منظرة اللؤلؤة سأل بعض الخدم عن الهكاري فقيل له انه ذهب الى دار العلم . فحول شكيمة البغلة الى هناك واظهر انه ذاهب لغرض آخر غير ملاقاته — فلما وصل الباب منعه البواب من الدخول لانه لا يعرفه فلم يعرفه بنفسه بل قال « احب الاطلاع على بعض الكتب واعود »

فقال « ذلك لا يجوز يا سيدي . »

فقال « كيف لا يجوز وقد علمت ان رجلاً دخل هذه الدار منذ هنيهة »

فقال « هو الفقيه ضياء الدين . . »

فاظهر الاستغراب لوقوع هذه الصدفة وقال « الفقيه ضياء الدين هنا ؟ »

قال « نعم »

قال « هو صديقي . . استأذنه بالدخول اليه »

قال « من اقول له ؟ »

Marfat.com

قال « قل له ابو الحسن يطلب الدخول »

فذهب البواب ثم عاد ومعه ضياء الدين . فلما وقع نظره على ابي الحسن اسرع اليه ورحب به فتحول ابوالحسن عن البغلة ودخل مع الهكاري وهو يتظاهر انه فرح بهذه الصدفة . وكان ضياء الدين يلبس زي الاجناد ويعتم بعمائم الفقهاء فجمع بين اللباسين فلما التقيا قال ابو الحسن مداعباً « انك قد جمعت بين زي الجند وزي الفقهاء فهل انت فقيه الآن ام جندي ؟ »

قال « اني فقيه في بحثي الآن »

قال « اما انا فقد طلقت الفقه وانما جئت للمطالعة في بعض الكتب لغرض علمي »

قال ذلك ومشى فدخل ضياء الدين معه وهو يقول « تفضل ادخل . . ألعلك تبحث في مسألة لغوية ؟ »

قال « كلا اني لا ارى ذلك نافعاً الآن ولكنني اطلب مسألة تاريخية . . . احب الاطلاع على تاريخ السلاجقة فان هؤلاء القوم اشداء ولهم تاريخ مجيد »

فالتفت ضياء الدين اليه وقال « اظنك تحب البحث عن سبب مقتل نظام الملك .. مسكين . . »

قال « لا . فان قاتله من الاسماعيلية اصحاب شيخ الجبل .. اليس كذلك ؟ ليس لهذا جئت .. ولكنني اريد الاطلاع على اصل هذه الدولة »

قال « اتبعني الى خزانة كتب التاريخ »

الفصل الرابع عشر

طغرل بك

فمشى ابو الحسن في اثره حتى ادخله غرفة فيها رفوف عديدة رتبت فيها الكتب حسب المواضيع والعصور. وساعده ضياء الدين حتى جمع له بضعة كتب تبحث في الدولة السلجوقية ومبدأ امرها . فتناولها ابو الحسن واخذ يقلب فيها وهو يقول « فتش معي عن كتاب فيه ترجمة طغرل بك مؤسس هذه الدولة انه كان رجلاً شديداً »

وبعد البحث وقف ضياء الدين على كتاب فيه سيرة طغرل بك دفعه اليه فتناوله ابو الحسن وهو يقول « اظنني شغلتك عما جئت لاجله »

Marfat.com

قال « كلا بل انا في غاية السرور من هذه الصدفة لاني احب ان اعرف تاريخ هذا الرجل مؤسس هذه الدولة التي ملأت الدنيا فتحاً ... تفضل اقعد » واشار الى طراحة على مقعد بالقرب منه. فقعد ابو الحسن وقعد الهكاري بين يديه واخذ كتاباً آخر دفعه اليه ابو الحسن فجعل يقلب اوراقه وعيناه في الكتاب الذي يقرأ ابوالحسن فيه. فرآه وقف عند صفحة وجعل يقرأها ويعيد قراءتها ويهز راسه اعجاباً او استغراباً. ثم قلبها وقرأ غيرها حتى فرغ من الكتاب فوضعه بجانبه وتناول غيره. فاشتاق ضياء الدين الى مطالعة الصفحة التي رأى ابا الحسن يحدق فيها. فتناول الكتاب وهو يتوهم انه فعل ذلك خلسة وابو الحسن لا يعلم. ففتح تلك الصفحة فاذا هي تحت في خطبة طغرل بك لابنة الخليفة القائم بامر الله العباسي سنة ٤٥٤ هـ وكيف ان السلطان طغرل بك وهو تركي طلب ان يتزوج بابنة هذا الخليفة مما لم يجسر عليه احد قبله. وان بعض القضاة اخبر الخليفة يومئذ ان غرض السلطان من تلك الزيجة ان يأتيه من بنت الخليفة غلام فيه الدم العباسي فيوليه الخلافة بهذه الحجة وتتوالى الخلافة في اعقابه وتخرج من العباسيين. وان الخليفة انزعج لهذا الطلب واستعطف السلطان ان يعفيه من الاجابة الى طلبه. فابى الا ان يجاب بحيث اضطر الخليفة الى اجابته وزوجه ابنته (١) لكن طغرل بك مات في تلك السنة ولم يرزق من امراته هذه اولاداً

وكان ضياء الدين يقرأ ذلك وابو الحسن يظهر انه يقرأ في كتاب اخر وعيناه تختلسان النظر الى الهكاري. فلما علم انه فرغ من قراءة ذلك الفصل رفع نظره اليه وقال « ارايت شجاعة طغرل بك وكيف انه استطاع بحكمته وتعقله تأسيس هذه الدولة التي لولاها لم يكن صاحب الشام ولا صاحب العراق ولا غيرهم .. »

قال « نعم انه رجل ذو بطش غريب وانا استغرب الان ما قراته في هذه الصفحة عن مطامعه في الخلافة ما لم يطمع به احد سواه من غير القرشيين في ما اظن »

فتوجه ابو الحسن نحوه باهتمام وقال « طمع بها قبله عضد الدولة بن بويه فاراد ان يزوج الخليفة الطائع لله بابنته لتلد من الخليفة ولداً فيه من دمه فيجعل الخلافة فيه فلم يوفق الى ذلك (٢) واما هذا فانه خطا خطوة اكبر من تلك. اراد ان يتزوج هو ببنت الخليفة ليكون ابنها فيه دم العباسيين ... ولكن هل علمت كيف نجا الخليفة من هذا الخطر فحفظ الخلافة في العباسيين ؟ »

فقال « انه نجا بالصدفة .. »

---

(١) تاريخ الدولة السلجوقية ١٨ (٢) تاريخ التمدن الاسلامي ١٨٧ ج ٤

Marfat.com

قال « اتظن موت طغرل بك كان صدفة ؟.. ابالصدفة يموت على اثر ذلك العقد المغتصب ؟ لا اشك في انهم سقوه السم .. ولو احسن الاسلوب لاحتاط لنفسه ونجا من ذلك الخطر ولم يذهب سعيه عبثاً »

فقال « وكيف يحتاط ؟ »

قال « يحتاط بان لايعرض نفسه للقتل بخطبة ابنة الخليفة فيظهر غرضه . . اعني لو طلب ان يتزوج اخت الخليفة او احدى بنات اعمامه مثلاً لا اظنهم كانوا ينتبهون لغرضه . فاذا ولدت له ولداً ذكراً كان فيه من الدم العباسي ما يكفي لادعاء حق الخلافة ولكن ذلك التركي كان قصير النظر . . »

ونظراً لاهتمام ضياء الدين الهكاري بصلاح الدين وشغفه بتثبيت دولته كان كلما قرأ تاريخاً او سمع حادثة هامة طبق مغزاها على حال صلاح الدين لعله يستفيد منها مايؤيد دولته . فلما سمع كلام ابي الحسن انتبه ان صلاح الدين يقدر ان يفعل ذلك بالتزوج من اخت العاضد وكان يسمع بجمالها وتعقلها والعاضد اضعف من ان ينكر على صلاح الدين طلبه . وبذلك تصير الدولة اليه حتى نورالدين قد يدخل في سلطانه . فاشرق وجهه لهذا الفكر وصمم ان يفاتح صلاح الدين به في ذلك اليوم . ولكنه تظاهر انه لم ينتبه لشيء وجعل يتشاغل بقراءة فصول اخرى وابو الحسن يظهر من الجهة الاخرى انه يتكلم بكل سذاجة . ثم غير الحديث فسأل ضياء الدين عن نجم الدين وهل هو مسرور من الاقامة في منظرة اللؤلؤة . فاجابه بما يقتضيه المقام واصبح ضياء الدين شديد الرغبة في انصراف ابي الحسن ليمضي في مهمته الجديدة

وبعد قليل استأذن ابو الحسن بالانصراف وودع صديقه الهكاري وعاد على بغلته الى دار الضيافة وهو يهمهم في اثناء الطريق ويكاد يخاطب البغلة من فرحه بانطلاء حيلته اذ لم يشك ان الهكاري ذاهب حالاً الى صلاح الدين ليحرضه على خطبة سيدة الملك . وهو يعلم يقيناً ان ذلك سيقع وقوع الصاعقة على رأسها ورأس اخيها ولا يجدان سبيلاً لرد طلب ذلك الخاطب القاهر الا اذا ادعيا بان الفتاة مخطوبة لابن عمها (اي هو) فينال غرضه على ادون سبيل

Marfat.com

الفصل الخامس عشر

سيدة الملك

اما سيدة الملك فانها ذهبت الى غرفتها فالقيتها هناك حاضنتها الخصوصية واخذت في مساعدتها على نزع ثيابها استعداداً للرقاد ولم تفاتحها بشيء من الحديث الذي جرى لها مع اخيها رغم شدة رغبتها في ذلك — والخدم من اكثر الناس ميلاً الى استطلاع الاسرار لفراغ رؤوسهم من المشاغل الهامة مع اطلاعهم على مخبآت تجري في منازل اسيادهم ووقوفهم امامها وقوف المتفرج ينتقدون هـذا ويحسنون عمل ذاك على ما تسوقهم اغراضهم او مداركهم فيلذ لهم التحدث فيما بينهم كل واحد عما يعلمه من احوال مخدومه . ويندر فيهم من يحافظ على سرّ مولاه ويغار على سمعته ويسعى في درء الشبهات عنه . وكانت حاضنة سيدة الملك من هذا النادر واسمها ياقوتة

ربيت ياقوتة في دار الخلافة وسيدة الملك طفلة فكانت لها عناية خاصة بها . فثبت سيدة الملك على الاركان اليها والوثوق بها حتى جعلتها مستودع اسرارها فلم يكن يفوتها شيء مما يخالج ضميرها وذلك طبيعيٌّ في مثل حال هذه المرأة من الحجاب في ذلك العصر فانها لا تختلط بالناس ولا تجد من تحادثه الا الخدم . وكانت ياقوتة قد علمت منذ جاء الخليفة انه يشكو انحرافاً وتلصصت من وراء الستر لتسمع مايدور من الحديث على عادة امثالها من حب الاطلاع ورغبة في خدمة سيدتها . ولم تتوقع ان يدور بين الخليفة واخته ما دار . فلما جاءت سيدة الملك لنزع ثيابها كانت ترجو ان تسمع منها شيئاً جديداً ولحظت فيها تغيراً يدلُّ على قلقها واضطرابها

فلما فرغت سيدة الملك من تبديل الثياب قعدت على سريرها وقد حلت شعرها الذهبي وارسلته ضفيرة واحدة الى ظهرها وتنهدت الصعداء واطرقت ولحظت ياقوتة في عيني سيدتها مايشبه الدمع فترامت على قدميها واخذت تقبل ركبتيها وتقول « مابالك ياسيدتي ؟ لماذا تبكين ؟ ما الذي تبكيك ؟ » واظهرت انها لم تكن مطلعة على شيء

فرفعت سيدة الملك بصرها اليها وبان الدمع فيهما وتنهدت ثانية وقالت « تسألينني ياياقوتة عن سبب بكائي ؟ وتستغربين حزني ؟ ليس حزني غريباً .. وانما الغريب ان لا اقضي يومي باكية نادبة . . » قالت ذلك وغصت بريقها

Marfat.com

فتمالكتها ياقوتة بالبكاء لكنها اظهرت التجلد وقالت « ماذا جرى يا سيدتي ؟ هل حدث شيء جديد ؟ »

قالت « الا يكفي ما جرى مما تعلمينه .. آه .. ويلاه .. انت عاقلة لايخفى عليك شيء . الا تعلمين حالنا مع هؤلاء الاكراد واستبدادهم في الدولة . هذا اخي جاءني اليوم وقد اصابته الحمى من شدة الغيظ لما صارت اليه الخلافة ـ فكيف لا ابكي ؟ »

قالت « لا بأس من البكاء ولكن لافائدة منه وانما الفائدة بالصبر والحكمة .. حتى يقضي الله بما يشاء ـ لكل امر نهاية . ولا بدَّ لهذه الكارثة من نهاية باذن الله .. وانما .. »

فقطعت كلامها قائلة « لا . لا . ليس لهذه الكارثة نهاية الا بالموت .. من ينقذنا من هؤلاء الاكراد وقد وضعوا ايديهم في كل شيء حتى دارنا هذه فان عليها حارساً من رجالهم » وبلعت ريقها ومسحت دموعها وهي تستعد لاستئناف الحديث ثم قالت « وهذا كله هين يا ياقوتة .. ؟ كله هين سهل بالنظر الى امر آخر جاءنا به الجليس الشريف في هذا اليوم »

فتطاولت ياقوتة بعنقها وقالت « وما هو يا سيدتي ؟ »

قالت « جاءنا بهمة يزعم انها تخبينا من هذا الضنك .. ولكنها اذا صحت اوقعتنا في ماهو اشد وطأة واصعب مراساً .. »

قالت ياقوتة « وهل اشد وطأة من هذه الحال يا سيدتي ؟ »

قالت « نعم .. اشد وطأة منها ان يكون ذلك الكهل الوقح .. وليّا للعهد بعد اخي حفظه الله »

فاظهرت انها لم تفهم مرادها فاستفهمتها فاوضحت لها شروطه التي تقدم بيانها ثم قالت « ولنفرض قدرة ذلك الشريف الكاذب على قتل صلاح الدين فان صيرورة ولاية العهد اليه بدل ابن اخي اصعب عندي من البقاء في حوزة صلاح الدين .. »

فقالت ياقوتة وهي تظهر الاهتمام « لا ارى رأيك في ذلك يا سيدتي بل اعدّ سعي ابي الحسن هذا باباً للفرج لانه اذا لم يستطع قتل صلاح الدين لاينال شيئاً . وان استطاع فان ولاية العهد لا تصير اليه لان مولانا امير المؤمنين شاب في مقتبل العمر اطال الله بقاءه . ومن يعلم المستقبل »

فلم تعد سيدة الملك تصبر على سماع هذا العذر فنهضت فجأة ونهضتْ معها ياقوتة وهي تنتظر ما تقوله فاذا هي تقول « ولكنه يشترط ايضاً شرطاً آخر الموت اهون عليّ من قبوله »

Marfat.com

وكانت ياقوتة تعلم رغبة ابي الحسن فيها فاظهرت انها فهمت مرادها فقالت « انك تكرهين هذا الرجل كرهاً شديداً بلا سبب .. فلولي بالك يا سيدتي حتى اتم كلامي . اذا نظرنا في مطاليبه وشروطه لا نجد ما يبعث على هذا القلق . . ان الرجل من ابناء عمك ويعرض ان يقتل اعدى عدوٍّ لنا وينقذ هذه الدولة من الخطر الذي لم يقدر عليه احد سواه . فاذا فاز صار وليًّا للعهد وتزوج باخت الخليفة لا اظنك تستنكفين ان تكوني زوجة رجل انقذ الدولة من الموت وهو مع ذلك شريف النسب . . تبصري في ما اقول . . » قالت ذلك واكبت عليها وجعلت تقبلها وتضمها للتخفيف عنها

فانتترت سيدة الملك من بين يديها وحولت وجهها عنها نحو ستارة معلقة على الحائط عليها صور غريبة واظهرت انها تتأملها ولكنها لم تكن ترى شيئاً لفرط اضطرابها وغضبها . وظلت ساكتة فظنتها ياقوته تستسيغ رأيها فعادت الى الموضوع واحاطت عنق سيدتها بذراعها وهي تقول « لا تتعجلي يا سيدتي برأيك — فكري بالامر مليًّا — ان عليه يتوقف بقاء هذه الدولة وزد على ذلك انك لا تجدين من ابناء عمك من يستطيع هذا العمل . . فلا باعث على هذا النفور منه »

فقطعت سيدة الملك كلامها وتحولت نحوها وقد بان الغضب في عينيها وقالت « تقولين لا باعث على هذا النفور ؟ »

قالت « نعم اقول ذلك لاني لا ارى باعثاً . والا قولي ما يبعثك على رفضه ؟ »

« قالت « يبعثني على ذلك اني لا اطيق ان ارى هذا المنافق .. اذا رايته ارتددت فرائصي من رؤيته . . تباً له كأن عينيه من نوافذ جهنم . . اذا نظر اليَّ خيل لي ان الشيطان يطل من حدقتيه ويهم ان يأخذ بتلابيبي .. دعيني لا اقدر ان اتصوره ..»

فهزت ياقوتة راسها هز الانكار وقالت « يا للعجب انك تكرهين هـذا الرجل عفواً . اظنك تظلمينه . لم ارَ منه ما يبعث على شيء من ذلك . . »

قالت « الا ترين الشر في سحنته ؟ اني ارى ذلك واضحاً يكاد يلمس باليد . . دعيني منه »

قالت وهي ممسكة يدها تجلسها على السرير « اقعدي يا سيدتي لاخاطبك كما تخاطب الام ابنتها وان كنت لا استحق هذا الشرف . . »

الفصل السادس عشر

الشكوى

فقعدت وهي تنظر في عيني ياقوتة فقالت ياقوتة « انك يا سيدتي شابة في مقتبل العمر وقد منحك الله جمالاً وتعقلاً ولا بد من ان تتزوجي بمن هو كفء لك . وانا لا ارى اكفأ من ابي الحسن فانه عريق في النسب العلوي الشريف »

« فوثبت سيدة الملك من السرير وقد تغيرت سحنتها وغاب عليها الغضب وقالت « ليس الزواج ضرورياً لي . واذا كان لا بد منه فلا يهمني ان يكون ذلك الزوج من النسب العلوي .. » قالت ذلك وتنهدت تنهداً عميقاً وامتقع لونها ثم احمرت وجنتاها فجأة وبان الحياء في عينيها فحولت وجهها عن ياقوتة وغطت عينيها بكفيها فاستغربت ياقوتة حركاتها وادركت ان ذلك لا يبدو الا من فتاة عالقة القلب برجل يمنعها الحياء من ذكره . فغيرت لهجتها في الحديث وضمتها الى صدرها وقبلتها بين عينيها وقالت « فهمت الآن شيئاً لم اكن اعرفه من قبل .. انت عالقة القلب برجل آخر »

فنفرت سيدة الملك من هذا التعبير الصريح وتراجعت وهي لا تزال مطرقة وظلت ساكتة فتبعتها ياقوتة وهي تقول « لعلي بالغت في التصريح فوقعت عبارتي ثقيلة على سمعك اعذريني لكنني اتقدم اليك ان تصدقيني هل اصاب ظني ؟ ـ انا معك كل يوم وكل ساعة لا افارقك ولا يدخل علينا احد من الرجال غير اخيك وبعض الاطفال من ابنائه وابناء عمك فيبعد ان تكوني عالقة باحد لكنني ارى دلائل الحب في عينيك .. »

فازداد احمرار وجهها وزاد حياؤها وهمت بالكلام ثم توقفت

فقالت ياقوتة « قولي . لا تخافي .. هل تحبين احداً ؟ .. ثم تبحث في من هو ذلك الاحد .. »

قالت « دعيني يا خالة .. دعيني من هذا البحث الآن . لا فائدة منه غير زيادة الاشجان .. » قالت ذلك واظهرت انها تميل الى الرقاد فاعانتها ياقوتة حتى استلقت على السرير ووضعت الغطاء عليها وجعلت تصلح ما يحيط بها من الملاءة والمخدة وهي تراقب ما يبدو منها فاذا آنست ميلها الى الحديث استأنفته والا تركتها تنام

اما سيدة الملك فان ذلك الحديث هاج اشجانها ومالت الى مفاتحة حاضنتها بما يكنه ضميرها ولكن الحياء كان غالباً عليها . وكانت تظن الحاضنة تصرُّ من نفسها على

Marfat.com

استتمام الحديث فلما رأتها اطاعتها واعانتها على الرقاد ندمت واخذت تتذرع الى استئناف الكلام فاظهرت ضجرها من الغطاء وتنهدت والتفتت الى ياقوتة لفتة اثرت في اعماق قلبها فانحنت فوقها وهي جاثية بجانب السرير وقالت « ما بالك يا سيدتي يا حبيبتي ؟ • لماذا تكتمين همك عني •• »

فقالت ولسانها يتلعثم « اخاف ان تضحكي مني او تهزئي بي •• »

قالت « معاذ الله ان افعل ذلك وكيف افعله ولماذا ؟ • »

قالت « لاني احب رجلاً لا يخطر ببالك اني احبه ولو علم اخي به لاستغرب عملي وحسبني مجنونة •• واما انا فلا •• » وسكتت وهي تتشاغل باصلاح شعرها تحت راسها ورفع الغطاء واصلاحه • »

فوقعت ياقوتة في حيرة ولم تفهم حقيقة مرادها او لعلها ادركت قصدها وتجاهلت لتسمع زيادة التصريح فقالت « لم افهم يا سيدتي مرادك •• من هو الرجل الذي وقع من نفسك هذا الموقع لا بد ان يكون نادرة الزمان »

قالت « الا تعرفينه ؟ •• بلى تعرفينه جيداً • قد رايته في هذه الدار كم رايته •• وشهدت انتِ نفسك انك لا تعرفين اشرف منه خلقاً ولا اكبر همة ولا اعز نفساً •• • رايتهِ وبيده خصلة الشعر التي كان اخي قد بعث بها الى صاحب دمشق يستغيث به باسم نساء قصره — ان اخي ارتكب بذلك ذلاً لم يمحه الا هذا . . فرد عليّ شعري بعد ان انقذ حياتي من الموت ونجى شرفي من الدنس »

فصاحت ياقوتة « اظنك تعنين الشاب الكردي ! • »

فابتدرتها بلهفة وقالت « نعم اياه اعني •• اعني ذلك الشهم الباسل •• » قالت ذلك وقد عاد اليها نشاطها وتحمست وبان الاهتمام في عينيها

فتقدمت ياقوتة اليها وهي تبتسم وقد شاركتها بذلك الشعور وقالت « الان فهمت المراد •• قد عرفت الشاب جيداً ولا انسى ذلك اليوم •• »

فقالت سيدة الملك « هل علمت ما اسمه ؟ » فاطرقت الحاضنة واعملت فكرتها كانها تراجع ذاكرتها ثم قالت « نعم علمت اسمه ••• ولكن هل تعلمين انت من هو وما هي علاقته بصلاح الدين عدونا الالد الذي يشكو اخوك امير المؤمنين ظلمه ؟ »

قالت « لا • لا اعلم •• »

قالت « انا اعلم •• انه من رجال خاصته • لا يخطو خطوة الا وهو معه •• »

قالت وهي تبتسم « فهو اذاً قد نال ثمرة تلك المناقب السامية فتقدم عنـ

مولاه .. وما اسمه .. » قالت ذلك وعيناها تلمعان

قالت « اسمه عماد الدين .. وكثيراً ما رايته واقفاً بباب قاعة الذهب في انتظار صلاح الدين وهو عند مولانا امير المؤمنين .. الم تشاهديه من شباك قصرك ؟ ».

قالت « لم اشاهده هناك لكنني رايته غير مرة واقفاً بباب هذا القصر يخاطب الاستاذ بهاء الدين قراقوش وعيناه لا ترتفعان الى الشبابيك ولا يلتفت يميناً ولا شمالاً كانه لا يعرف اهل هذا القصر . وكثيراً ما وددت ان يرفع بصره لعله يلتقي ببصري وربما اقرأ في عينيه شيئاً يدلني على رايه فيّ فلم يفعل فلم يزدني ذلك الا شغفاً بمناقبه آه اعذريني يا خالة اعذريني .. طالما كتمت هذا الحب حياء وخجلاً وكنت ارى في كتمانه لذة . اما الان فقد بحت به وقضي الامر »

الفصل السابع عشر

الحب سلطان

فقالت « انت يا سيدتي تحبين عماد الدين خادم صلاح الدين ! . بالله ما هذا ؟ . كيف علقت به بمجرد النظر اليه مرة واحدة .. هذا امر عجيب .. ان بين اعمامك وفي قصور اخيك عشرات من الشبان اجمل من هذا ويقع نظرك عليهم منذ اعوام وكلهم يتمنون نظرة منك فلم تكترثي باحد منهم .. » قالت ذلك وهزت راسها هزة الاستغراب

فاجابتها سيدة الملك « صدقت ياخالة اني اكثر منك استغراباً لما اصابني من مجرد تلك النظرة .. وما هي في الحقيقة نظرة .. انها ساعة اطول من العمر كله . كنت فيها بين الحياة والموت فنظرت ذلك الشاب وانا اكاد التقي وجه ربي او اتناطح بالعار . فمد يده وانقذني من الشرين جميعاً . فخيل لي انه ملاك هبط عليّ من السماء .. واكرم به من ملاك » قالت ذلك وعادت الى الاطراق وقد تورد وجنتاها

فقالت ياقوتة « اذن انت تحبين عماد الدين »

فابرقت عيناها رغم ذبولها من البكاء والانكسار وابتسمت ابتسامة لطفت ما تكاثف في وجهها من الحزن واومأت برأسها ان « نعم » واسرعت الى الغطاء فرفعته الى رأسها استحياء

ووقع قولها عند ياقوتة موقع الاستغراب وقالت وهي تزيح الغطاء عن وجهها

Marfat.com

بلطف « نعم يا سيدتي ان عماد الدين شهم نادر المثال ولكنه لا يليق بسيدة الملك سليلة المعز لدين الله »

فنهضت وقعدت وقد انحلّ شعرها حتى غطى كتفيها وخديها ونظرت الى ياقوتة نظر العتاب وقالت « ان المعز رحمه الله لم يبلغ الى هذا السؤدد ولا توارث ابناءه هذا الملك الواسع الا بمناقبه وعلو همته وكرم اخلاقه . ومناقب عماد الدين لا تقلّ عنها شيئاً . انك تعلمين ما اتاه هذا الشاب من المروأة يوم واقعة العبيد وكيف تهالك في سبيل نجاتي وحمل اليّ خصلة الشعر وهو لا يعرفني .. ان كنت قد نسيت ذلك فاني لا انساه . . لا انسى يوم اتاني ذانك الشقيان وارادوا حملي من هذه الدار فانقذني هذا الغريب منهما بغير ثواب يرجوه ولا عقاب يخافه وانما فعل ذلك مندفعاً باخلاقه السامية . . فانا من اجل هذه الاخلاق احببته ولم انظر الى اصله وفصله . »

وتوقفت لحظة وهي ترفع شعرها عن عينيها ثم قالت «اتذكرين ذينك الرجلين اللذين هما بي فيّ ذلك اليوم ؟ اذا علمت الان انهما من ابناء الملوك او الخلفاء وطلبني احدهما هل ترضين ان اكون زوجة له ؟ »

قالت « معاذ الله انهما ساقطا الهمة .. »

قالت « اعلمي ان احدهما يغلب على ظني انه ابو الحسن الشريف الذي ترغبونني فيه .. والاخر خادم له استعان به لاختطافي في وسط الغوغاء بعد ان علم اني لا اريده .. » قالت ذلك وكانها ندمت على ما فرط منها فسكتت واطرقت

فقالت ياقوته وقد تولتها الدهشة « هل انت على يقين مما تقولين ياسيدتي ؟ »

قالت « لا اقول اني على يقين .. ولكنني ارجح هذا الظن كثيراً . ومع ذلك فانا لا اقول هذا ولا ذاك ــ وانما اقول اني منذ رايت عماد الدين وما اتاه من المروءة شعرت بشيء اجتذب قلبي نحوه وكنت اتوقع ان اراه مرة اخرى يأتي بها الى اخي يطلب مكافأة على صنيعه فلم يأت فازددت اعجاباً به وارتفعت منزلتــه في قلبي وتحول الاعجاب الى حب شديد » ثم تنهدت وقالت « ويلاه هل هو يشعر مثل شعوري ؟ »

قالت ذلك وخنقتها العبرات ولم تعد تتمالك عن البكاء والحاضنة تستغرب هذا التعلق بنظرة واحدة فاخذت تخفف عنها وتقبلها وتقول لها « خففي عنك يا سيدتي .. ارجعي الى رشدك ان مثلك لا يسترسل في عواطفه الى هذا الحد مع شخص لم يره الا بضع مرات ولا يعرف شعوره من جهته ــ تجلدي وارجعي الى رشدك لو فرضنا وانت في هذه الهيام علمت ان عماد الدين يحب سواك كيف تكون حالك ؟ . . تبصري قليلاً . . »

فاستجمعت سيدة الملك قواها واسترجعت رشدها واطرقت وهي تتأمل بعبارة حاضنتها فرأت الحق معها . ولكن الحب سلطان مستبد لا يذعن للحق ولا يعرف الصواب . وانما يلذ له الاستبداد بلا سبب والفتك بلا حساب . ولا يحلو الحب الا ان يكون مستبدًا ومتى اذعن للاحكام العقلية والاقيسة المنطقية أو الاعتبارات الاقتصادية صار معلماً أو تاجراً أو فقيهاً . وانما هو سلطان مطلق لا يقيده دستور ولا يردعه خوف من عقاب . فهو لا يسأل عما يعمل ورعيته راضية باستبداده تعدُّ ظلمه عدلاً وتحسب عسفه رفقاً ـ ذلك كان شعور سيدة الملك في تلك اللحظة . كان عقلها يدلها على مكان الخطأ وهي لا تريد ان تراه . فاسترسلت في عواطفها ونظرت الى ياقوتة والاعتراف على شفتيها والانكار في عينيها وقالت « صدقت يا خالة . . ولكني لا اظنه يفعل ذلك . . لا . . لا ولكن مهما يكن . . فاني لا ارى سبيلاً الى غير ما ذكرت فدبريني برأيك . . »

فتحيرت ياقوتة في الجواب ورأت الحديث قد طال وتوالت الغرائب التي كشفت لها في تلك الليلة فعزمت على استخدام الوقت للتفكير على انفراد لعلها تهتدي الى حل يرضي سيدتها ويوافق ضميرها . فترامت على يدي سيدتها تقبلهما وهي تقول « خفف عنك يا مولاتي . اني امتك افديك بروحي . . كوني مطمئنة وقد تعبت اليوم من هذا الحديث وآن الرقاد فتوسدي فراشك . وامهليني لانظر في الامر ولا بأس عليك في كل حال . فان اخاك حفظه الله لا يجبرك على من لا تحبينه . وانا اعلم منزلتك عنده . لكن لا بد من تدبير طريقة لمشاهدة عماد الدين . . توسدي فراشك وها اني ذاهبة وسافكر فيك كثيراً الليلة على الخصوص . . واما انت فلا اظنك تفكرين بي . » وضحكت لمداعبتها ثم قالت « فكري بمن تحبين » . فاستلطفت سيدة الملك تعبيرها لانها كان من اقصى امانيها ان توافقها ياقوتة على اعتقادها وتشعر معها بما في قلبها فيهون عليها كل شيء . فسرّي عنها واطاعت حاضنتها في الرقاد وذهبت ياقوتة أيضاً الى رقادها

الفصل السابع عشر

خزانة الجوهر

قضت سيدة الملك بقية الليل بين اليقظة والمنام لفرط قلقها وافاقت في الصباح التالي على صوت المؤذن لصلاة الصبح ولم يكن يطلب منها القيام للصلاة لكنها لم تعد

Marfat.com

تستطيع رقاداً . فجعات تنقلب على الفراش وافكارها تائهة . وتذكرت اخاها ولمحت ان تعلم حالته بعد ذهابه من عندها هل شفي مما كان فيه . فنهضت من الفراش والتفت بمطرف من الخز التماساً للدفء وخرجت من غرفتها الى دهليز يؤدي الى شرفة تطل على مصلى الخليفة فرأت اخاها قد خرج للصلاة فاطمأنت باله عليه . وهي عائدة الى غرفتها استقبلتها الحاضنة وسألتها عن حالها واخذت تحادثها وتوانسها ومشت معها الى غرفتها واعانتها فيرلبس ثيابها وامرت باعداد المائدة وجلست اليها وهي تقول « اطمئنك عن صحة سيدي امير المؤمنين فانه في خير »

قالت « عرفت ذلك من خروجه للصلاة واحمد الله على ذلك . ولكنني احب ان اراه .. »

قالت « ستريحه الليلة بعد رجوعه من قصر الذهب والفراغ من مهام الدولة . . هيا بنا الى الطعام الآن »

فمشت الى غرفة المائدة فتناولت الطعام وهي تتوقع ان تفاتحها ياقوتة بالحديث عن عماد الدين فلم تفعل فاستحيت هي ان تذكره . قضت نصف ذلك النهار وهي تتشاغل بشؤون مختلفة . واحست بعد الغداء بميل الى الرقاد من فرط تعب الامس فتوسلت فراشها فنامت ملء جفونها . وافاقت وقد هدأت اعصابها وهان عليها ما هي فيه بالنسبة الى ما كانت عليه من التعب — لان تعب الاعصاب يزيد صاحبه قلقاً ولا يريه الامور الا من وجهها الاسود

فنهضت عن الفراش وقد اشرق وجهها وعاد اليه ابتسامه وصفقت تطلب الحاضنة فابطأت عليها . ثم جاءتها وفي وجهها خبر فخفق قلب سيدة الملك عند رؤيتها ولم تصبر عن الاستفهام عما وراءها فقالت ياقوتة « ما ورائي الا الخير يا سيدتي .. هلمَّ بنا »

فاجفلت وقالت « الى اين ؟ »

قالت « الى خزانة الجوهر »

فاعرضت عنها اعراض المنكر لما يسمعه وقالت « اين الجوهر ؟ انهم لم يتركوا فيها شيئاً »

قالت « انهم اخذوا كثيراً وتركوا كثيراً . لكنني لا ادعوك للجوهر يا سيدتي وانما اريد ذهابك الى تلك الخزانة لملاقاة سيدي امير المؤمنين فانه انفذ في طلبك اليه على ان توافيه الى تلك الخزانة لسبب لا اعلمه »

قالت بلهفة « اخي يطلب ذهابي لملاقاته هناك ؟ »

Marfat.com

قالتْ « نعم يا سيدتي . ولا حاجة الىْ تبديل ثيابك لانك تذهبين الى ذلك المكان في دهليز يؤدي اليه لا تجدين فيه احداً . هلم بنا » قالت ذلك واشارت اليها ان تمشي فنفضت رأسها بملاءة لازوردية اللون . ومشت وهي تفكر في ماذا عساه ان يكون الغرض من هذه الدعوة في ذلك النهار

خرجتا من قصر النساء الى دهليز اخلاه الخدم والجواري . فمرت سيدة الملك ولم تجد احداً في طريقها حتى اتت خزانة الجوهر . وهي غرفة عديدة نصبت فيها الخزائن والرفوف واقيمت في ارضها الارائك فوق الطنافس . ولم تكن دخلت تلك الدار من عهد طويل . ولكنها كانت تسمع بما تحوي من الذخائر النفيسة والمجوهرات الثمينة وتعلم انها أُخذت في ايام المستنصر بالله ابي تميم لما غلب على امره منذ نحو مئة عام . ولم تكن تتوقع ان تجد فيها شيئاً من الجوهر يستحق الذكر

وصلت الباب فاستقبلها الحاجب وادخلها واشار الى ياقوتة بالانصراف فانصرفت .

اما سيدة الملك فدخلت وعيناها شائعتان تبحثان عن اخيها . فرأته جالساً في صدر القاعة الوسطى وحده على مقعد وقد تخنف بعمامة صغيرة وبيده سبحة يعد حباتها وهو مطرق يفكر . فلما انبأه الحاجب بمجيء اخته رفع بصره اليها وهشّ لها واخذ يرحب بها فترامت عليه وسألته عن صحته فقال « اني والحمد لله في خير وعافية وكيف انتِ ؟ »

قالت « طالما كان امير المؤمنين سالماً فانا سالمة ابقاه الله لنا وكنا وسنداً » قالت ذلك وهي تقرأ في وجهه خبراً جديداً . لكنها تجاهلت وخاطبته وهي تقعد على وسادة بالقرب منه قائلة « اني لم ادخل هذه الدار منذ سنين عديدة وآخر مرة دخلتها كنت طفلة ولا اذكر اني علمت ما فيها و ... »

فقطع كلامها قائلاً « وماذا عساك ان تعلمي ؟ يكفي ان تسمعي بما كان فيها . قال عهد جدنا الامام المستنصر رحمه الله .. انظري الى هذا الصندوق »

فنظرت اليه وهو متقن الصنعة وعليه نقوش فظنته يستلفت نظرها الى نقشه فقالت « انه جميل »

قال « لا أعني جمال ظاهره ولكنني أعني ما كان فيه من الحجارة الكريمة . أخبرني والدي رحمه الله انهم اخرجوا منه في زمن المستنصر سبعة امداد زمرد قيمتها ٣٠٠٠٠٠ دينار تخاطفها الناس »

فدهشت من ذلك وقالت « ان ذلك غريب نادر »

Marfat.com

قال « ولو اردت ان اذكر لك اسماء ما كان من التحف في هذه الدار لاستغرق سردها فقط عدة ساعات وانما اذكر عقداً من الجوهر قيمته ثمانون الف دينار بيع يومئذ بالفي دينار . واخذوا من خواتم الذهب والفضة فقط نحو ١٢٠٠ خاتم فصوصها من الجواهر المختلفة فيها ثلاث خواتم ذهب مربعة على كل منها ثلاثة فصوص أحدها زمرد والاثنان ياقوت سماقي ورماني بيعت باثني عشر الف دينار . غير ما اخرجوه من الجواهر ونحوها فانها كانت تحصى بالويبة وتكال بالكيل . منها ويبة جواهر مشتراة في الاصل بسبعماية الف دينار باعوها بعشرين الف دينار . وطاوس ذهب مرصع بالجوهر عيناه من ياقوت احمر وريشه من زجاج المينا المجرى بالذهب على الوان ريش الطاوس . غير التحف المتوارثة عن الخلفاء او المنقولة الينا من العباسيين وغيرهم (١) ورقع الشطرنج أحجارها من الجوهر والذهب والفضة والعاج . كل هذه ومئات مثلها اخذت في نكبة المستنصر ولا فائدة من الكلام الآن . . »

فانقبضت نفس سيدة الملك مما سمعته وقالت « ان مصيبتنا قديمة يا أخي . . ولا فائدة من التذكار الآن » قالت ذلك وهي تتعجل ما في خاطر اخيها عن سبب استقدامها اليه

فقال « صدقت . . ولكنني اطمئنك ان أولئك اللصوص لم يأخذوا كل ما كان لنا فان بعض خواصنا واهل بطانتنا المخلصين يومئذ احتفظوا لنا ببعض ما كان من الذخائر ولا يزال مخبأً الى الآن » قال ذلك ونهض الى خزانة داخلة في الحائط لا تستلفت الناظر اليها ففتحها بمفتاح استخرجه من جيبه ومدّ يده فاخرج منها حقاً فيه عقد من الجوهر يبهر النظر دفعه اليها فتناولته وجعلت تقلبه فقال لها « خذيه جربيه على عنقك »

فتراجعت واعادته الى الحق . فمد يده واخرجه والبسها اياه في عنقها وقال « هذا لك »

فارادت أن ترجعه فمنعها وقال « خذيه انه لا يليق باحد سواك .. » واستخرج من حق آخر خاتماً حجارته من الزمرد والياقوت نحو الذي ذكره والبسها اياه في اصبعها . فلم يعجبها منه هذا الكرم ولحظ استغرابها فقال « لاتستغربي ما تريينه فان في هذه الخزائن تحفاً أخرى لا يعلم بها سواي وسأدفعها كلها اليك لئلا تذهب كما ذهبت تلك »

---

(١) المقريزي ٤١٤ ج ١

Marfat.com

فتوسمت من كلامه شيئاً يعنيه لسبب طرأ عليه فقالت « ماذا تعني يا أخي ؟ معاذ الله ان يكون ما تشير اليه . . لا يتمتع بهذه الذخائر سواك وسوى اولادك . . » قالت ذلك واختنق صوتها رغم ارادتها لكنها تجلدت وهمت ان تتم كلامها فلحظت في عيني اخيها شيئاً كالدمع وهو ينظر اليها نظر المستعطف . ثم قال « انت لا تريدين ان تبقي هذه التحف لنا »

الفصل الثامن عشر

بين خطيبين

فادركت ما يشير اليه من تمنعها عن قبول ابي الحسن زوجاً لها بعد ان تكفل بقتل صلاح الدين . فاحست بوخز الضمير واثر فيها الاسلوب الذي أختاره اخوها لمعاتبتها . لكنها لا تستطيع ان توافقه ولا تعتقد ان ابا الحسن يستطيع القيام بوعده ولم تجد الوقت مناسباً للدفاع في تلك الساعة فقالت « انت تعنفني يا اخي على امر ليس في طاقتي .. فانا قد عاهدت نفسي ان لا اتزوج .. واذا كان ذلك الرجل يقدر على شيء فليفعله ثم نرى ما يكون »

فراى في جوابها شبه الرضى فقال « انما المطلوب قبل كل شيء ان تظهري الرضى به ليقدم على العمل .. أليس كذلك ؟ كيف يتصدى لهذا الخطر وهو يرى هذا الرفض ؟ » . قال ذلك وهو يبتسم ويهش ليسترضيها فكادت ان تغلب على امرها واوشك ان يحملها حبها لاخيها على ان توافقه في ما يريد . لكنها ما لبثت ان تصورت ابا الحسن فنفرت منه وتذكرت عماد الدين فاختلج قلبها في صدرها وتوردت وجنتاها

فظنها اخوها تريد اجابته لكنها تستحي فقال « ما الذي يضرك ان تجيبي طلبي وهذا الرجل اكفأ انسان لك .. فضلاً عما وعدنا به من الخير ... قولي انك ترضينه خطيباً لك . . واذا كنت تحسبين قبولك به مصيبة فانها مصيبة صغرى .. » وابرقت عيناه كانهما تنطقان بسرّ يكتمه . وتشاغل بعدّ حبات مسبحته

فاطرقت سيدة الملك واعملت فكرتها في كلام اخيها فخافت ان يصحّ ظنها فقالت « ماذا تعني يا اخي بالمصيبة الصغرى وهل هناك مصيبة اكبر منها ؟ »

Marfat.com

قال « اكبر منها يا اختي ان يطلبك رجل اعجميٌّ من غير اهلك لا قبل لنا بردّ طلبه . . فهمتِ ؟ »

قالت « ماذا تعني ؟ من يتجاسر على هذا الطلب ؟ »

قال « يتجاسر عليه الذي تجاسر على سلب حقوقنا من ايادينا واستبد بالامور دوننا ونحن احياء .. الرجل الذي نخاف صوته ونحسب لحركاته الف حساب . . ألا يستطيع هذا الرجل ان يطلب ؟ واذا طاب من يردّه ؟ »

فبغتت واستبعدت ما يفهم من كلام اخيها فقالت « صرّح بما تقول . . هل تعني صلاح الدين ؟ »

قال « نعم اياه اعني .. فما قولك ؟ »

فتراجعت وقد اصطكت ركبتاها وارتعدت فرائصها ولم تتمالك عن القعود على المقعد وقد امتقع لونها واوشك الدم ان يجمد في عروقها وسكتت

فقعد اخوها بجانبها واحاط ذراعه حول كتفيها ليلطف من بغتتها وقال « اني ازعجتك بهذا الخبر ولكنك احرجتني .. ولا تظني الامر قد نفذ . . انه لم يطلبك صريحاً بعد . . ولكن رجلاً من خاصته جاءني في هذا الصباح وفاجأني بهذه المسئلة بعد أن مهد الكلام بمقدمات طويلة عريضة الى ان قال « ان السلطان صلاح الدين يريد ان يتشرف بهذا القران فاحب ان يسألك على يدي قبل الاقدام على الطلب لعلمه هناك مانعاً »

فقالت « وماذا اجبته ؟ »

قال « هممت ان اجيبه بانك مخطوبة لابي الحسن لعلمي ان هذه الحجة تكفي للنجاة من هذه الورطة لكنني استمهلته في الجواب الى الغد لاسألك وقد اخترت هذا المكان للمقابلة حتى لا يكون معنا ثالث .. ها اني قد اطلعتك على جلية الامر فما رأيك .. ألا ترين القبول بان عمنا اولى ؟ . » ولم يكن العاضد ينتظر منها غير القبول فلما ابطأت في الجواب وهي مطرقة كرر السؤال

أما هي فكانت تفكر في طريقة للنجاة من هذه الورطة لانها تفضل الزواج بصلاح الدين ولا بابي الحسن لكنها تفضل عماد الدين على كليهما . وحدثتها نفسها ان تصرح له بما يكنه ضميرها فخافت العاقبة . فلما كرر أخوها السؤال قالت « صدقت ان الاحتجاج بكوني مخطوبة قد يرجع صلاح الدين عن عزمه .. قل اني مخطوبة اذا شئت ولا تذكر لمن »

Marfat.com

قال « لكنه لا يصدق الا اذا ذكرنا الخطيب لئلا يحسبنا نكذب لنتخلص منه .. سأقول له انك مخطوبة لابي الحسن »

فابتدرته قائلة « كلا. لا تقل هذا .. لان ذلك لا يكون ابداً » ولم تتمالك عن هذا التصريح وقد ارتفع صوتها رغم ارادتها

فبان الغضب في وجهه وقال « كنت اجاملك وألاطفك قبل هذا المشكل . اما الآن فلا ارى لرفضك معنى بعد ان بينت لك السبب .. ليست هذه شعائر الاخت المحبة لاخيها . وانت تعلمين ما وعدنا ابو الحسن به . ولاسيما الآن بعد ان يعلم ان صلاح الدين مناظره فيك فانه يزداد اهتماماً في تنفيذ غرضه .. قولي انك قبلت به والا ضعف اعتقادي بتعقلك وصدق محبتك . واعلمي مع ذلك ان امير المؤمنين يخاطبك ويطلب ذلك منك وهو وليّ أمرك » قال ذلك بشيء من السلطة

فعظم ذلك التهديد عليها وهبت الحمية في صدرها ورجعت اليها عزة نفسها فنظرت الى اخيها نظر العاتب وقالت « تهددني بما لك من السلطة عليّ .. وبانك ولي امري ؟ ان هذا لا يغير شيئاً من عزمي . واذا شئت ان تنفذ هذه السلطة من نفسك فافعل . واما انا فيستحيل عليّ القبول بذلك المنافق المرائي .. وربما فضلت صلاح الدين عليه عند الضرورة. ولكنني لا أريد هذا ولا ذاك .. »

فدهش العاضد لهذا التصريح وقال « أالى هذا الحد بلغ من جسارتك وتخاطبيني بهذه القحة ؟.. اظنني اخطأت لاني شاورتك في الامر . وكان لي ان لا استشيرك لاني ولي امرك من جملة وجوه . . وانا فاعل ما اراه خيراً لك . اذ يظهر لي انك متمسكة بالخطأ لغير سبب اعلمه . . لم يبق الآ ان تخرجي للسوق وتختاري لك زوجاً من المارة وابناء السبيل ! . ليس ذلك من شأن بنات الخلفاء . . ان العناية جعلتك من طبقة الملوك وميزتك بالنسب الشريف فلا يجوز لك الاقتران بغير الاكفاء . وهذا ابو الحسن ابن عمنا وهو اكفأ انسان لك . يكفي الآن .. » قال ذلك وتحفز للمسير كانه قال ما لا يقبل نقضاً ولا ابراماً

اما هي فظلت واقفة واوشكت ان تسقط على الارض من التأثر لانها لا تقدر ان تبوح بما في خاطرها بعد ان رأت اخاها يكبر تفضيلها صلاح الدين فكيف لو علم انها تحب خادمه . فرأت السكوت في تلك الحال اولى وصممت ان تفعل ما يحلو لها ولو خالفت الشرع والعرف . فلما رأته يتحرك للمسير مشت بهدوء وسكينة ولم تفه بكلمة فظنها شعرت بسلطته عليها فقبلت . فكتم فرحه وظل على اظهار الغضب والعتب

Marfat.com

وحالما خرجت من الباب رأت حاضنتها تنتظرها في الدهليز فرافقتها الى غرفتها وقد لحظت الحاضنة تغيراً بيناً في وجهها فاصبح همها استطلاع الخبر

اما سيدة الملك فانها صممت على عمل لا يخطر لحاضنتها ولا غيرها وفضلت البقاء على كتمانه لئلا تحول ياقوتة دون انفاذه . خطر لها ان تستقدم عمـاد الدين وتفرّ معه من قصر اخيها وتنجو من ذلك الاسر . ولـكنها لا تستغني عن ياقوتة في البحث عنه واستقدامه فعزمت على كتمان ذلك عنها

اما ياقوتة فانها تهيبت من غضب سيدتها . ورغم ما لها من الداله عليها لم تجسر على مخاطبتها . فاخذت تتذرع الى استطلاع حالها بالتجاهل فحالمـا دخلت الغرفة قالت لها « ما لي ارى سيدتي غاضبة .. ما الذي اغضبها ؟ اني ارى في جيدها عقداً من الجوهر وفي اصبعها خاتماً من الزمرد والياقوت لو كانا لي لزالت عني هموم الدنيا »

فانتبهت سيدة الملك الى العقد والخاتم وكانت قد نسيتهما لفرط قلقها فنزعت العقد من عنقها والخاتم من اصبعها ورمت بهما الى الارض وجاست على السرير وهي تتنهد

فالتقطت ياقوتة العقد والخاتم وهي تقول « ما بالك يا سيدتي .. ما الذي اغضبك ؟ اذا كان هذا العقد قد غيرك اعطيني اياه »

قالت « خذيه .. بل هاتيه .. » واسترجعته من يدها ووضعته في جيبها مع الخاتم

فابتسمت ياقوتة على سبيل المداعبة وقالت « اذا كنت قد غضبت من امير المؤمنين فما هو ذنبي يا سيدتي وانا اتفاني في خدمتك ؟ »

فاظهرت الارتياح الى قولها وكظمت غيظها وقالت « بارك الله فيك دعيني الان»

قالت « لا . لا اتركك حتى تقولي ماذا جرى بينك وبين مولانا امير المؤمنين »

قالت « انه مولاك وليس مولاي »

قالت « انه مولانا بحكم الله اطال الله بقاءه »

قالت « اطال الله بقاءه لكنه . . » وسكتت وقد شرقت بدموعها

فقالت ياقوتة «ما بالك قد غيرت عادتك معي لماذا لا تشكين اليّ همك لعلي استطيع خدمتك بشيء . الم نكن على موعد للنظر في امر عماد الدين ؟ »

فلما سمعت اسم عماد الدين سرّي عنها وهان عليها الصبر والتفتت الى ياقوتة وابتسمت وعيناها تلمعان من الدمع فاثر منظرها في ياقوتة واكبت على يديها تقبلهما وتقول « بالله لا تغضبي يا سيدتي.. لا تعامليني بالجفاء .. افصحي لي عما يكنه ضميرك وانا امتك افديك بروحي . . قولي لا تخافي »

Marfat.com

فتنهدت وهي تتجلد وقالت « كنا على موعد من امر عماد الدين نعم .. ماذا رأيتِ ؟ وماذا دبرت ؟ »

قالت « لم ارَ شيئاً ان الامر لك .. وانا طوعُ ارادتك ماذا تريدين ان افعل ؟ قولي وانا فاعلة حالاً »

فنظرت اليها نظرة اخترقت احشاءها وقالت « اريد ان يأتي عماد الدين الى هنا في هذه الليلة .. »

قالت « في هذه الليلة ! ولماذا ؟ »

قالت « لاتسأليني عن السبب .. انت تقولين انك طوع ارادتي وهذه هي ارادتي. اريد ان ارى عماد الدين الليلة »

قالت « لك علي ذلك .. خفني عنك الآن وارجعي الى رشدك واحكي لي عما جرى لك اليوم مع سيدي امير المؤمنين »

فلما اطمأن بالها من جهة استقدام عماد الدين خف قلقها فجلست وامرت حاضنتها ان تجلس وقصت عليها ما دار بينها وبين اخيها من اوله الى آخره. فأثر ذلك في رأيها ورأت سيدتها اخطأت بمقاومة الخليفة ولكنها لم تجسر على تخطئتها فاظهرت انها ترى رأيها على نية ان تعود الى البحث معها في الامر بعد قليل فطمأنتها انها تفعل ما تريده وغيرت الحديث وشغلتها بمهام اخرى

الفصل العشرون

عماد الدين

قد علمت من حديث العاضد واخته ان صلاح الدين بعث يخطب سيدة الملك شفاهاً وسبب ذلك ان عيسى الهكاري لما خرج من دار العلم سار توًا الى صلاح الدين واسرع في مقابلته على انفراد في خلوة وتطرق في الحديث الى خطبة اخت الخليفة واقنعه بما تقدم من الادلة السياسية فاستحسن صلاح الدين رأيه فاستمهله ليشاور اباه فنهاه عن مشورته اذ ربما اقتضى رأيه ملاطفة الخليفة وهم لا يرون ذلك . واذكر الهكاري بسعيه في مصلحته منذ عرفه . فقال صلاح الدين « اننا قابضون على ازمة

Marfat.com

الدولة نفعل بها ما نشاء من عزل وتولية واموال وغيرها فكيف نطمع بالخلافة . وهذا لم يقدم عليه احد قبلنا من غير العرب واخاف ان نطلب الزيادة فنقع في النقصان .. »

فقال « لا اعهدك ضعيف العزم يا مولاي اذا كنت لاتعرف احداً طلب الخلافة من غير العرب الا يجوز ان تطلبها انت . . أو تمهدها لاولادك بسبب الاقتران باخت الخليفة ؛ وزد على ذلك ان سيدة الملك من اجمل النساء خلقة فضلاً عن ذكائها ودهائها. واما الخلافة فاذا طلبتها واحوجنا النسب القرشي فانه ميسور لان كثيرين من الصحابة القرشيين تفرقوا بالفتح ونزل بعضهم في بلاد الاكراد فقد يكون جدك متسلسلاً من احدهم » قال ذلك وهو يظهر الجد . وادرك صلاح الدين انه يهون عليه ادعاء الخلافة بزواجه باخت الخليفة واذا لزم النسب القرشي انتحل له نسباً فيهم . ولكنه لا يزال يتهيب من الاقدام على الخطبة فلما رأى الحاج عيسى قال له « اذا لم يكن بدٌّ من العمل برأيك فاجعل ذلك منك على سبيل الاختبار بلا كتابة مني . . »

قال « اني فاعل ذلك من عند نفسي فاخاطب الخليفة في رغبتك وأرى ما يكون .. »

قال « حسناً » وذهب الهكاري في تلك الساعة الى العاضد واطلعه على ذلك باسلوب لطيف فاستمهله في الجواب كما رأيت

واما صلاح الدين فانه بعد ذهاب الهكاري من عنده خلا بنفسه وراجع ما دار بينهما فرأى انه تسرع في الامر وكان ينبغي ان يكاشف اباه به قبل الاقدام عليه . لكنه أجل ذلك حتى يعود الهكاري بالجواب وهو لا يزال في حل من الامر . وبعد قليل تاه غلام يدعوه الى الطعام مع ابيه في الجانب الآخر من قصر اللؤلؤة فمضى . وهم على الغداء قال نجم الدين يخاطب ابنه صلاح الدين « يا يوسف لم ار عندهم اهتماماً بميادين السباق . لا ينبغي ان تترك رجالك يرتاحون طويلاً لشيء لهم الميادين للمسابقة على الخيول فانهم بذلك تتقوى ابدانهم ويشتغلون عن الدسائس »

قال « صدقت يا ابي ونحن لا يمضي اسبوع لا نجري فيه سباقاً فمن فاز بالسبق قدمناه وخلعنا عليه . واحب ان اجرب ذلك بين يديك في هذه الساعة وسأختار من رجالي أمهرهم في الركوب » ونادى عماد الدين فاتى مسرعاً وخفة الروح ظاهرة في وجهه والشجاعة تتجلى في عينيه والنشاط ظاهر في انتصاب قامته وامتلاء عضله . فلما وقع نظر نجم الدين عليه استلطفه فاطال النظر فيه وصلاح الدين يأمره ان يستعد للسباق مع آخرين سماهم . فاشار عماد الدين مطيعاً وانصرف فتحول صلاح الدين الى ابيه وهو يبتسم ابتسام الاعجاب وقال « كيف رأيت هذا الشاب يا ابي ؟ »

Marfat.com

قال «كنت عازماً على ان اسألك عنه لانه وقع من نفسي موقعاً جميلا وأتوسم فيه الشجاعة والبسالة ولا اظنه الا بالغاً مقاماً رفيعاً بين رجالك »

قال « وكيف اذا رأيت مهارته بركوب الخيل وخبرت اخلاقه الحميدة . يكفي استهلاكه في سبيل خدمتي انه يحبني حباً مفرطاً فلو قلت له القِ نفسك في النار لفعل . . »

قال « احرص عليه وقدمه . . »

قال « اني لا اترك فرصة تمر الا اكرمته بها وهو الآن من جرسي ويستحق أن يكون من كبار القواد لكنه لا يزال صغير السن وسيكون له شأن . . وقد سرني انك توسمت فيه ما توسمته انا وتحققته بالاختبار . . »

فقال نجم الدين « هل زوجته ؟ »

فقال « اردت تزويجه بجارية جميلة فلم اجد فيه ميلاً للزواج »

فهز نجم الدين رأسه وقال « تلك هي مناقب اصحاب المطمع طلاب السيادة ينصرفون بكليهم الى تلك المطامع . . فاحتفظ بالشاب »

وهما في ذلك سمعا قرع الطبول استعداداً للسباق فجلس صلاح الدين مع ابيه على اريكة نصبوها لهما بين يدي القصر تشرف على حلبة السباق وفوقها مظلة من الحرير الملون . واطلق الفرسان الاعنة وكان عماد الدين على فرس ازرق يمتاز عن سائر الافراس يعرفه الناظرون عن بعد ولحظ نجم الدين انه يفوق سائر الفرسان بالخفة واللباقة . ولعبوا العاباً عديدة وتسابقوا وتراموا وكفة عماد الدين راجحة في كل لعب

قضوا في ذلك بضع ساعات وصلاح الدين جالس مع ابيه تحت تلك المظلة . ثم اخذ الفرسان يتوافدون للمرور امام المظلة لالقاء التحية وصلاح الدين يثني على مهارتهم ويكلمهم بما يقتضيه المقام حتى جاء عماد الدين فامره صلاح الدين أن يترجل ويأتي الى ابيه فترجل ووقف بين يدي نجم الدين وقوف الاحترام . فقال له « يا عماد الدين ستكون رجلاً مقداماً ويسرني انك حائز على اعجاب سلطانك »

فاكب عماد الدين على يدي نجم الدين يقبلهما وقال « اني عبد لمولاي السلطان أفديه بروحي . . واذا قدر لي ان اكون شيئاً مذكوراً فيكون ذلك من فضله . . لا لاستحقاقي . . »

فربّت له على ظهره وتناول خنجراً كان في منطقته ودفعه اليه وقال « احتفظ بهذا الخنجر تذكاراً مني »

فاكبر عماد الدين هذا الاكرام من والد صلاح الدين وهو يعلم ان صلاح الدين

نفسه يهابه فترامى على يديه يقبلهما . وكان صلاح الدين يخاطب بعض الفرسان فلما فرغ من خطابه تحوّل الى ابيه فوجده يخاطب عمادَ الدين فانبسطت نفسه لاعجابه بذلك الشاب وقال « يسرني انك راضٍ عنه »

فقال نجم الدين « وهو جديرٌ بذلك وارى ان تقدمه وتجعله من خاصتك »

قال « هو من حرسي كما قلت لك »

قال « احب ان يلازمك ولا يفارقك ليلاً ولا نهاراً وان تكون له دالة الصديق فيدخل عليك بلا اذن »

فالتفت صلاح الدين الى عماد الدين وقال له « امر والدي بذلك فانت من الآن لا تفارقني في حل ولا ترحال » ونهض ومشى مع ابيه نحو القصر وعماد الدين يتبعهما . وامر صلاح قيم القصر ان يختص عماد الدين بغرفة قرب غرفته ففعل واصبح عماد الدين لفرط امتنانه لايعرف كلاماً يؤدي به ما في خاطره ولكنه اضمر ان يتفانى في خدمة مولاه ويغلب في صادقي المودة والمخلصين في اعمالهم ان يكون لسانهم قصيراً فيعبرون عن شعورهم بالعمل دون الكلام

الفصل الحادي والعشرون

امر غريب

ولم يكن لهم في ذلك اليوم شاغل هام فبعد العشاء ذهب كل الى غرفته . وقضى نجم الدين ليلته في غرفة ابنه صلاح الدين يتحادثان في شؤون كثيرة ترجع الى علاقة مصر بنور الدين . ثم انصرف الى فراشه

بات صلاح الدين تلك الليلة كعادته وهو يفكر في امر مصر ومطامعه فيها حتى غلب عليه النعاس فنام وقد اطفئت مصابيح القصر واطمئن الحراس . الا عماد الدين فانه شعر بعد ان اختصه صلاح الدين بقربه انه يجب ان يكون اكثر يقظة وسهراً على حياته . فبات وهو يفكر في ذلك فحلم . لفرط قلقه ان صلاح الدين يناديه فنهض مذعوراً واصاخ بسمعه فلم يسمع شيئاً فحدثته نفسه ان ينهض ويتسمع فخاف ان يقظ مولاه وهو على يقين انه سمع ذلك في الحلم . فعاد الى فراشه وقد طار نومه وكثر

Marfat.com

تقلبه بين اليقظة والمنام . واذا هو يسمع وقع خطوات فهبَّ من رقاده وتسمع فلم يسمع شيئاً فغلب على خاطره انه يسمع هاجساً . ونظر الى السماء فعلم ان الفجر قريب ورأى انه لم يعد قادراً على الرقاد فلبس ثيابه . وحالما لاح الفجر خرج ليطل على غرفة صلاح الدين فرآها مقفلة وكل شيء هادئ والحراس بالباب كالعادة فعاد الى غرفته ولم تمض هنيهة حتى سمع صلاح الدين يناديه فلباه ودخل غرفته فرآه جالساً على سريره بلباس النوم وقد اخذته الدهشة . فاسرع اليه وحياه فصاح فيه صلاح الدين « ما هذا ؟ » واشار الى الوسادة عند رأسه . فتقدم عماد الدين فرأى خنجراً مسلولاً عليه آثار دم قديم قد أُلقي عند موضع رأس صلاح الدين من الوسادة فاجفل وصاح « من فعل هذا يا سيدي ؟ »

قال « لا ادري .. لكني صحوت في هذه الساعة فرأيت الحال كما تراها » فاطرق عماد الدين يفكر فوقع بصره على شيء عند قدمي السرير فاذا هو غمد ذلك الخنجر فتناوله وتأمله فلم يذكر انه يعرف صاحبه . وهو يتفرس فيه رأى في جوفه بطاقة فاستخرجها ودفعها الى مولاه ففضها وقرأها فبانت البغتة في عينيه ثم دفعها الى عماد الدين وصفق . فدخل عليه احد الغلمان فامره ان ينادي الامير نجم الدين والده حالاً

اما عماد الدين فانه قرأ البطاقة واعاد قراءتها وتناول الخنجر وتأمله واعاد النظر فيه فقال صلاح الدين « كيف يدخل الناس عليَّ وانا نائم داخل هذا القصر والابواب موصدة ولا يشعر احد من الحراس ؟ »

فاحس عماد الدين ان التوبيخ موجه نحوه لانه اقرب الحراس اليه فارتج عليه من شدة التأثر . وهمَّ ان يجيب واذا بنجم الدين قد دخل فلما رآهما في تلك الحال تناول البطاقة وقرأها واذا فيها :

« من احد مريدي سيد الاسماعيلية الى يوسف صلاح الدين

« اعلم يا يوسف انك وان اقفلت عليك الابواب واقمت الحراس لا تقدر ان تنجو من القصاص .. اراك قد بالغت في القحة وتطاولت واستبديت وظلمت ونسيت شيخ الجبل زعيم الاسماعيليين . لو اردت قتلك الليلة لما ابقيت عليك ولكنني عفوت عنك وانا منذرك ان تصلح من سيرك . ولا تطمع ان تعرف من انا فان ذلك بعيد المنال اذ قد اكون اخاك أو خادمك أو حارسك وقد اكون خيطاً في عمامتك أو شعرة في رأسك وانت لا تدري والما اطلب منك ان تلزم حدكَّ والسلام »

فاستولى السكوت على الجميع لحظة . ثم اشار نجم الدين الى عماد الدين ان يقفل

Marfat.com

الباب وان يجلسوا في خلوة لا يدخل عليهم احد . ففعل وقلبه يتقد غيظاً وقد ساءه على الخصوص حدوث هذا الامر في الليلة الاولى التي تولى بها الحراسة الخاصة واصابه الجمود لا يدري ما يقول . وادرك نجم الدين قلقه فناداه وابتسم له وقال « لا تضطرب يا بني ولا يداخلك خوف انكم لا تعرفون هؤلاء القوم ولا اظن يوسف يعرفهم »

فقال صلاح الدين « اذكر اني عرفت عنهم شيئاً . . . ولكن اي الاسماعيلية هؤلاء . وما هذه الجسارة . كيف يستطيعون الدخول عليَّ في غرفة نومي والحرس حولي .. صدقوا لم يكن يمنعهم شيء من قتلي .. »

فصاح عماد الدين « خسئوا .. ان ذلك بعيد عنهم .. انهم لاينالون من مولاي السلطان شعرة قبل ان يقتل زعيمهم اللعين »

فقعد نجم الدين وامر عماد الدين ان يقعد وقال « هل تعرف من هو هذا الزعيم ؟ »

قال « كلاَّ يا سيدي .. ومهما يكن من شأنه .. »

الفصل الثاني والعشرون

الاسماعيلية

فقطع نجم الدين كلامه وقال « تمهل يا شاب واسمع ما سأقصه على يوسف من خبر هذا الطاغية الذي يسمي نفسه رئيس الاسماعيلية وهم بالحقيقة الحشيشية » ووجه خطابه الى صلاح الدين وقال « اعلم يا بنيَّ ان الاسماعيلية او الباطنية أو الحشيشية طائفة من الشيعة لها بالدولة العبيدية علاقة قل من يعرفها ولذلك احببت ان افصلها لك . ان مذهب الاسماعيلية كان مذهب هذه الدولة عند الفتح وقد نصروه ولا سيما الحاكم بامر الله فانه احياه ونشره بمساعدة رجل فارسي اسمه حمزة الدرزي

وفي ايامه ظهر رجل فارسي اسمه حسن بن الصباح له حديث طويل مع نظام الملك وعمر الخيام لامحل له هنا [1] فانشأ حسن هذا جمعية من الفدائيين واقام في جبل ألاموت قرب قزوين منذ اكثر من مئة سنة . وكان يغري رجاله على الفتك بمن شاء من كبار الرجال ومن جملة الذين قتلوهم نظام الملك وزير السلاجقة وكثيرون من

(١) راجع الهلال ٩ سنة ١٩

Marfat.com

القواد والملوك — كانوا يقتلون ولا يعرف قاتلوهم . او اذا عرف لا يبالي ان يقتل في سبيل تنفيذ امر مولاه . . . »

وكان صلاح الدين مصغياً لما يسمعه بكل جوارحه فقال « كاني سمعت بشيء من هذا القبيل ولكنني لم اكن اصدقه اذ لا يعقل ان يعرض الرجل نفسه للقتل على هذه الصورة تنفيذاً لامر مولاه فقط »

فاعترض عماد الدين وعيناه تتقدان وقد هاجت الحمية في رأسه وقال « بلى ياسيدي . هذا امر معقول . ان الرجل ليفدي مولاه بروحه اذا كان يحبه ويحترمه »

فادرك نجم الدين غرضه وقال « بارك الله فيك يا بني لكن مثلك قليل واكثر الناس يفعلون ذلك طمعاً في شيء . اما الفدائيون هؤلاء فانما يفعلون ما يفعلونه لمجرد طاعة رئيسهم . وقد اختلفوا في سبب هذا التفاني فيقول بعض العارفين ان حسناً هذا كان يستهويهم بالسحر او يسقيهم الحشيشة التي تأخذ بالعقل . ولذلك عرفوا بالحشيشية او الحشاشين ومهما يكن السبب فان وجود هذه الطائفة خطر على كبار الرجال

« وكان مقرها في زمن ابن الصباح هذا في قزوين بعيدة عن هذه الديار ؛ اما الآن فان مركزها في جبل السماق من اعمال حلب لهم فيه معاقل وحصون ولهم دعاة في الاطراف ولهذه الطائفة تاريخ طويل قبل انتقالها الى الشام خلاصته ان الرئاسة انتقلت بعد ابن الصباح الى غيره وغيره وكان رابعهم في ألاموت منذ نحو خمسين سنة يسمى حسناً ايضاً ويضيفون الى اسمه قولهم « على ذكره السلام » وكانت دعاته قد انتشرت في الشام والافرنج قد فتحوها فقربوا الاسماعيلية واستعانوا بهم على المسلمين في مواقع كثيرة سرًّا وجهراً . فاذن لهم ملك الافرنج صاحب حلب ان يقيموا في جبل السماق (جبل النصيرية) ونزلوا بايناس وزعيمهم يومئذ اسمه بهرام . وفي ايامه تمكنوا من الفتك بطائفة من الملوك والقواد بمصر والشام منهم الملك الافضل امير الجيوش بمصر يقال انهم فعلوا ذلك به لانه استبد بالامر باحكام الله . وبلغني ان الآمر تغلب على بهرام وقتله لسبب لا اعلمه لعله ساءه قتل امير الجيوش وان كان قتله دفاعاً عنه — وطافوا برأس بهرام في شوارع القاهرة هذه — وقتلوا ايضاً كثيرين من الافرنج بحجج مختلفة منهم ريمون صاحب طرابلس ولهم بجبل السماق عدة قلاع حتى الآن منها مصياف ومرقب وعليقة والرصافة وغيرها يعتصمون بها . اما زعيمهم الآن فاظنه ادهى الرؤساء جميعاً اسمه راشد الدين سنان بن سليمان اصله من البصرة . خلف رئيس الاسماعيلية في ألاموت . وتفقه بالعلم والفلسفة ثم انتقل الى الشام واقام في حلب وهو اعرج . وتظاهر بالتقوى والتدين فاجتذب

العامة بذلك ـ ولا تجد شيئاً يستهوي العامة مثل الدين . وبلغني من بعض رجالنا هناك ان سنان هذا كان يجلس على صخر يعظ وهو جامد كالصخر . فكثر دعاته وكانت دعوته لهم ان يتعاونوا فتغلب على عقولهم بالدهاء أو السحر لا اعلم حتى جعلوا اموالهم مشتركة بينهم ـ حتى النساء والبنات . ثم منعهم من ذلك

« وبلغ خبره الى رئيس الاسماعيلية يومئذ في جبل السماق واسمه ابو محمد فاستقدمه اليه . وبعد قليل خلفه واستلم زعامه هذه الطائفة منذ بضع سنوات فقط . وقد سمعت خبره قبل سفري بقليل وهو الآن صاحب السطوة والكلمة النافذة وقد التف حوله الوف من الدعاة الفدائيين وهم يفدونه بارواحهم . اذا امر احدهم بقتل امير او ملك تنكر ودخل في خدمة ذلك الامير او الملك بصفة سائس او خادم اوحارس . ولا يزال يترقب الفرص حتى تسنح له ويغمد خنجره في صدره .. فالحمد لله انهم لم يفعلوا ذلك هذه المرة ولكن تهديدهم هذا اثقل وقعاً من القتل »

الفصل الثالث والعشرون

التبرع

وكان صلاح الدين في اثناء سماع الحديث مطرقاً يفكر وعماد الدين يراعي حركات نجم الدين بعينيه ويتلقف الفاظه باذنيه وقدهاجت اريحيته وجاشت الحماسة في صدره فلما فرغ نجم الدين من الكلام نظر الى عماد الدين فرأى عينيه يكاد الشرر يتطاير منهما فتجاهل

اما صلاح الدين فقال « لابدَّ من وسيلة نتخذها لتجنب شر هذه الطائفة .. انه غير متفرغين لمراقبتها »

فتصدى عماد الدين قائلاً « ان مراقبتها لا تفيد شيئاً ولا بدَّ من قطع دابرها . قال ذلك وعيناه تدلان على ما يعنيه من العزم الاكيد

فاجابه نجم الدين « ماذا تعني ؟ »

قال « اذا أذن لي بابداء الرأي فعندي ان احسن دواء لهذا الداء ان يقتل رئيس هذه العصابة فتتفرق عصابته . . »

Marfat.com

فقال نجم الدين « هذا امر شاقّ لا سبيل اليه لان القوم معتصمون في الجبال الوعرة وعيونهم مبثوثة في كل مكان . وقد علمنا الآن ان منهم اناساً في هذا القصر فكيف يتأتى الوصول الى رئيسهم وقتله ؟ . »

قال عماد الدين « ان من يحب مولاه يتفانى في خدمته كما قلت يا سيدي . فكما يستطيع هذا الاسماعيلي الملعون ان يدخل غرفة السلطان صلاح الدين ويعمل ماعمله فيمكن لسواه ان يدخل على زعيم الاسماعيلية ويغرس هذا الخنجر في صدره . واذا قتل بعد ذلك فقد أدى واجباً لينقذ انفساً شريفة من الفتك . لان هذا اللعين لا يتعمد الا قتل العظماء فالاستهلاك في سبيل قتله فخر يتطلبه كل ابي النفس »

فاحس نجم الدين ان الشاب يعني ان يذهب هو نفسه في هذه المهمة فاراد ان يثني عزمه حرصاً على حياته لاعتقاده بالخطر الذي يهدده فقال « ان هذا الامر لا يقدم عليه الا المجنون ولكننا لا نحرم وسيلة اخرى لاسترضائهم بالمال فانهم كثيراً ما يرتكبون القتل طمعاً بالمال اذ يغريهم بعض رجال السلطة على قتل اعدائهم . . »

فقال عماد الدين « صدقت يا سيدي قد يسترضون بالمال ولكن هذا لانهاية . واما اذا قتل زعيمهم فانهم ينفضون من حوله »

فقال « ليس هذا بالرأي الصواب لانه صعب . . ولا تجد من يقدم عليه اذا عرف خطره »

فقال عماد الدين وهو يشير بيده الى صدره وعيناه تلمعان حماسةً « هذا عبدك عماد الدين يقدم نفسه للقيام بهذه المهمة من هذه الساعة وارجو ان لا ترد طلبي »

فقال نجم الدين « بارك الله فيك انها حمية يندر مثالها ... ولكننا في حاجة اليك هنا .. »

فقال « وما الفائدة من وجودي هنا وهذه اول ليلة من حراستي اوشك مولاي السلطان ان يقتل . اما ذهابي فارجو ان يكون قاطعاً فاصلاً .. استحلفك برأس مولاي السلطان صلاح الدين ان تأذن بانصرافي في هذا السبيل وهذا حظ كبير لي »

وكان صلاح الدين في اثناء هذا الجدال غارقاً في التفكير عن سبب وقوع هذا الامر في هذه الليلة فلما سمع اسمه انتبه لما يقوله عماد الدين فاجابه « ان هذه المهمة خطرة جدًا ونحن في حاجة اليك هنا »

قال « اقسمت برأسك ان اذهب فأذن لي »

Marfat.com

فالتفت صلاح الدين الى ابيه كانه يستشيره فقال نجم الدين « اطعني ودع عنك هذا الخطر »

قال « اني عبدٌ مطيع ولكنني اقسمت برأس مولاي اني ذاهب في صباح الغد ويجب ان يكون ذهابي سرًّا عن كل انسان لا يعلم به سواكما لاننا اصبحنا لا نعرف صديقنا من عدونا .. فلا ينبغي ان يعلم احد بسبب ذهابي . . »

فقال صلاح الدين « اذا لم يكن بدٌّ من ذلك فامض وفقك الله لما تريده ولكنني كنت وانتما تتباحثان افكر في السبب الذي اوجب وقوع هذا الامر الليلة فلم اهتد .. ولكنني .. » وتذكر خطبة سيدة الملك على يد الهكاري فترجح له ان هذا الامر هو الذي بعث على تحمس احد الاسماعيلية المستترين . ولكنه لم يجد هذا التعليل معقولاً فسكت

فلحظ ابوه تردده فقال له « ما بالك يا يوسف ؟ قل ما يخطر لك العلك تتوقع التصريح امام عماد الدين الذي يفديك بروحه ؟ »

فقال « كلاَّ يا ابتي ولكنني فكرت في سبب ما حصل الليلة فلم يستقم حكمي ففضلت السكوت »

قال « قل ماذا خطر لك »

قال « اعترف لك يا ابي اني ارتكبت خطأً في صباح الامس ساقني اليه تسرعي باغراء صديق لي حميم . وذلك اني امضيت امراً كان يذبني قبل امضائه ان استشيرك فيه وها اني الآن الاقي عاقبة تسرعي »

قال « ما ذلك ؟ قل .. »

قال « اتاني صديقنا عيسى الهكاري وانت تعلم صدق مودته لي ونصحه اياي فاقترح عليَّ اقتراحاً يرى فيه خيراً كبيراً لي فاطعته ولكنني لم اكتب فيه كتاباً بل تركت الامر مبهماً ريثما استشيرك »

فلم يعد نجم الدين يستطيع صبراً على فهم مراده فقال « وما هو هذا الاقتراح »

قال « عرض عليَّ ان يخاطب الخليفة العاضد في امر اخته سيدة الملك ان تكون زوجة لي .. »

فبانت البغتة في وجه نجم الدين وصاح فيه « وهل وافقته على ذلك ؟ »

قال « ترددت كثيراً وأخيراً رضيت ان يكتفي بالسؤال الشفهي من عند نفسه

قال « لا تزال تقدم على امور لا تليق بالسلاطين .. مالنا ولهذا الرجل ولا

Marfat.com

بيته .. لماذا نعرض نفسنا للفشل ؟ . هل تعرف الفتاة . . »

قال « قيل لي انها بارعة في الجمال جدًّا . . »

وكان عماد الدين يسمع الحديث ساكتاً فعلم انهما يتكلمان عن سيدة الملك وكان قد رآها يوم واقعة العبيد وارجع اليها خصلة الشعر كما تقدم وقد استاطفها لكنه لم يحلم بالحصول عليها . ولذلك لما سمع طلب مولاه شعر بلذة ممزوجة بالغيرة .. لذّ لهُ ان تكون تلك الفتاة الجميلة لسيده افضل من ان تكون لسواه لكنه لما تصور ذلك احس بالغيرة منه . ولحظ نجم الدين في وجهه فكراً في الموضوع فقال له « هل تعرف الفتاة يا عماد الدين ؟ »

قال « أتيحت لي فرصة رأيتها فيها وهي في معظم الاضطراب أعني يوم واقعة العبيد يوم امر مولاي النفاطين برمي النفط على القصر ثم أمرهم ان يكفوا عن رميه وكنت في جملة من دخل القصر فرأيت الفتاة في ضيق انقذتها منه ولا ازال أذكر وجهها الجميل وشعرها الذهبي . انها تليق بسيدي صلاح الدين .. وهل هي تتوقع من هو خير منه »

فقال نجم الدين وهو يظهر انه وائق مما يقول « ما لنا ولها . . لا أشك في أن يوسف لم يطعْ الهكاري الا حياءً » ووجه كلامه الى صلاح الدين قائلاً « هل اتاك الهكاري بجواب من الخليفة ؟ »

قال « اتاني انه خاطب الخليفة فاستمهله في الجواب ولا ندرى ما يكون »

فهزَّ نجم الدين رأسه هز الانكار وقال « لا يسهل عليه الايجاب في هذا الامر لان هؤلاء المساكين شديدو التمسك بهذه البقية الباقية من سيادتهم . أعني تمسكهم بمجد الاسلاف وانهم من سلالة بيت الرسول واننا لسنا اكفاء لبناتهم لاننا من الاعاجم » قال ذلك وضحك ملءَ فيه والتفت الى صلاح الدين فرآه مطرقاً يفكر وقد تذكر قول الهكاري انه اذا احتيج الى نسب عربي وضعه له . غير ما يتوقعه من صيرورة الخلافة اليه او الى اولاده بسبب ذلك الزواج فلما التفت ابوه اليه استأنف الكلام قائلاً « ألا يحق لهم الافتخار بذلك النسب الشريف ؟ »

قال « كيف لا ! ولذلك قلت انهم ضنينون به لا يفرطون فيه فكيف ترجو قبول طلبك وانت كردي ؟ » وضحك

فرأى صلاح الدين انْ يقطع الحديث ليرى ما يأتي به الغد فقال وهو يتحفز للنهوض من الفراش « متى اتانا جواب الخليفة ننظر فيه » ولما نهض كان الخنجر

Marfat.com

لا يزال ملقى على الفراش فاسرع عماد الدين اليه وتناولة وهو يقول « هل يأذن لي مولاي بهذا الخنجر ؟ »

فقال « أليس عندك خنجر ؟ »

قال « عندي لكنني أود أن اغمده في صدر ذلك الطاغية الذي هددنا به »

قال صلاح الدين وهو يلبس ثيابه « ألا تزال مصمماً على قتله ؟ »

قال « اقسمت برأس مولاي ان اقتلهُ اذ لا سبيل الى الراحة منه الا بذلك . فارجو ان لا تراجعني والتمس من مولاي الامير نجم الدين ان يزودني برضاه ودعائه وقد اقسمت ان لا تطلع شمس الغد الا وانا خارج القاهرة »

فابتسم نجم الدين وهو ينظر الى عماد الدين نظر العطف والاعجاب وقال « يسرني ما اراه فيك من الحمية والغيرة على يوسف بل هي غيرة على المسلمين كافة لان هذا الاسماعيلي الشيطان قد اقلق العالم بدسائسه وفتكه فاذا تمكنت من قتله فانت امير كبير وقائدٌ عظيم لا يتقدمك احد من رجال هذه الدولة غير ابني يوسف هذا »

فاكبر عماد الدين هذا الوعد الصريح بالمكافأة الكبرى فازداد تمكناً من عزمه ولكنه اطرق خجلاً . فعاد نجم الدين الى اتمام حديثه فقال « ولكن هل تعرف الطرق وما يعترض عملك هذا من المخاطر ؟ »

قال « هب اني لا اعرف شيئاً الآن فلا يعجزني علمه »

قال « فتبقى هنا بضعة ايام لاجل الاستعداد . . »

قال « قد اقسمت على الخروج الليلة من هذا البلد . وانما التمس ان لا يعلم احد بجهة مسيري ولا الغرض منه »

وكان صلاح الدين قد اتم لبس ثيابه فقال « بورك فيك » ونظر الى ابيه فرآه ينظر الى عماد الدين وهو يقول له « وفقك الله في امرك كن شجاعاً واثقاً بنفسك واعلم انك اذا وفقت الى ما تريد اتيت عملاً لم يستطعه سواك فتنال ما لم ينله احد »

فهمَّ عماد الدين بتقبيل يد نجم الدين ثم يد صلاح الدين وقال « استأذنكما في تدبير شؤوني اليوم وربما لا تريَاني بعد الآن لاني احب ان اخرج من هذا البلد خلسة »

قال نجم الدين « افعل ما بدا لك »

Marfat.com

الفصل الرابع والعشرون

الرسالة

فخرج عماد الدين لتدبير سفره واعداد ما يلزمه وقد اخذت مهمته تتجلى له بما يحدق بها من الخطر العظيم ولكنه صمم عليها ولا سيما بعد ما سمعه من الوعد بالمكافأة

قضى معظم النهار في منظرة اللؤلؤة وهو يتهيأ للسفر حتى أعدَّ كل ما يحتاج اليه وقد مالت الشمس الى الاصيل . فانفرد في غرفته يفكر في مهمته واذا بطارق يطرق بابه فاجفل لانه لا يطرق بابه أحد لا سيما وهو على اهبة السفر. فنهض وفتح الباب فرأى غلاماً صقلبياً يظهر من ثوبه وشكله انه من غلمان قصر الخليفة . فاستغرب ذلك ندخل الغلام وقال « ألعلي في حضرة الفارس عماد الدين ؟ »

قال « نعم ما وراءك ؟ »

فمد الغلام يده الى جيبه وهو يشير الى عماد الدين أن يغلق الباب خوفاً من أن يراه أحد واستخرج لفافة دفعها اليه . فتناولها ولم يتم فضها حتى اقشعر بدنه لانه رأى فيها خصلة الشعر الذهبي التي كان قد ارجعها الى سيدة الملك فبانت البغتة في وجهه لكنه تجلد وأخذ يتفرس في الكتاب فاذا هو رسالة مختصرة بلا توقيع . فاغلق الباب وتحول نحو الداخل وهو يقرأ وهذا نص الكتاب :

« الى البطل الباسل عماد الدين . اعلم يا سيدي انك نجيت نفساً شريفة من القتل والعار . وهذه النفس تحتاج الى رؤيتك لتكافئك على صنيعك . وقد كلفتني ان ارسل اليك العلامة التي ينطوي عليها هذا الكتاب لتتأكد صدق قولي . فاسرع الينا على عجل فاننا نستصرخك وقد لبيتنا من قبل بلا استصراخ . وحامل هذا الكتاب يرشدك الى الطريق »

فرغ من تلاوة الكتاب وهو يحسب نفسه في حلم فظل هنيهة كالغائب يفكر في ما يعمله أيجيب دعوة الداعي وهو على أهبة السفر ؟ أم يعتذر وهي تستصرخه . وأحسَّ عند رؤية الشعر بجاذب يدعوه الى الاجابة . وتذكر ما بعثه على حمل تلك الخصلة من دمشق الى القاهرة حتى دفعها الى صاحبتها حرصاً على كرامتها بدون أن يعرفها فكيف تدعوه بلفظ الاستصراخ ولا يذهب اليها ؟

وكان الغلام في اثناء ذلك واقفاً ينتظر الجواب فلما استبطأه خطا خطوة نحو

Marfat.com

عماد الدين فانتبه هذا لنفسه فالتفت الى الغلام وقال « ما وراءك غير هذا الكتاب ؟ »

قال « هذا كل ما لديَّ ولكنني أمرت اذا استفهمتني عن الطريق أن أرشدك اليه »

قال « وكيف ذلك ؟ هل يجهل احد الطريق الى قصر الخليفة ؟ »

فابتسم الغلام وخفض صوته وقال « ليس القصر مجهولاً ولكن صاحب هذه الرسالة في قصر النساء ولا سبيل لرجل الى هناك ولاسيما بعد جعلتم الاستاذ بهاء الدين قراقوش قيماً عليه فاصبح أمنع من عقاب الجو »

قال « اذاً كيف يمكن الوصول الى المكان المقصود ؟ »

قال « اذا كنت قد صممت على الذهاب فاني ادلك على طريق توصلك الى داخل قصر النساء ولا يشعر بك أحد »

فاستغرب قوله وقال « اظنك تعني ان اتنكر بثوب جارية »

قال . . « كلا . . فان هذا لا يغني شيئاً . . اذ لا يستطيع أحد المرور من الباب ان لم يعرفه الحاجب باسمه ولقبه »

قال « كيف اذاً . . قل . . »

قال « اعرف طريقاً سرياً في سراديب تحت الارض بين هذه المنظرة وقصر الخليفة لا يعرفها الا القليلون »

قال « سراديب تحت الارض ؟ »

قال « نعم يامولاي . . لما بنى الخلفاء الفاطميون قصورهم ارادوا ان يكون لنسائهم طريق يخرجن منه الى الحدائق والبساتين او الى المناظر القائمة على ضفاف هذا الخليج . فاصطنعوا لهن سراديب تحت الارض ينزلن اليها من وسط القصر ويمشين فيها بلا حجاب حتى يخرجن الى البساتين . وفي جملتها السراديب المؤدية الى هذه المنظرة فانها كانت مطروقة اكثر من سواها لكثرة تردد الخلفاء واقامتهم هنا . حتى ان ثلاثة منهم ماتوا في هذه المنظرة وحملوا في هذه السراديب الى القصر وهم : الآمر باحكام الله والحافظ لدين الله والفائز [1] . ثم اهمل امرها بعد نزول غير الخلفاء في هذه المنظرة . وتنوسيت منذ عدة سنوات ولكنني اعرفها فاذا احببت ان اسير في خدمتك فعلت »

(١) المقريزي ٤٦٩ ج ١

Marfat.com

الفصل الخامس والعشرون

السراديب

فتحير عماد الدين في امره واستغرب وجود هذه السراديب واعمل فكرثه فى هل يجيب الدعوة ام يعتذر لانه على وشك السفر. والتفت الى نافذة الغرفة يتطلع الى الشمس فرآها قد دنت من المغيب وهو لا بد له من مغادرة القاهرة في تلك الليلة كما اقسم ووعد فنادى الغلام اليه وقال « كم يقتضي لنا من الوقت لنصل الى القصر ؟ »

قال « لايستغرق سيرنا الاَّ دقائق معدودة »

فقال في نفسه « اجيب الدعوة واعود سريعاً فاسافر » والتفت الى الغلام وقال « هلم بنا »

قال « تمهل ريثما تغيب الشمس فنذهب في الظلام لئلاَّ يشعر بنا احد من اهل هذا القصر »

فتصور عماد الدين الخطر المحدق به في هذه المهمة لكنه اكبر ان يتخوَّف او يحسب للمخاطر حساباً وهو الذاهب لقتل زعيم الاسماعيليين ... فقال « انتظرني اذاً خارج هذه المنظرة فالاقيك هناك بعد الغروب »

قال « حسناً . . سامكث في انتظارك تحت هذه الجميزة بجانب الخليج فاذا رأيتك قادماً تقدمت نحوك ومعي الرداء الذي ينبغي ان تلتف به في اثناء الطريق وعند الوصول الى القصر لئلا ينكر احد من اهل القصر هذا اللباس » قال ذلك وخرج وخلف عماد الدين على مثل الجمر من القلق . فلما خلا بنفسه استأنف النظر الى ذلك الكتاب واعاد قراءته وتذكر المرة الاولى التي شاهد بها صاحبة ذلك الشعر وما سمعه عنها بالامس من امر صلاح الدين فرأى انه قد يستطيع خدمة مولاه باجابة سؤلها فيحرضها على القبول به . ولما تصور ذلك هبت الغيرة في قلبه . ولكنه تعمد الاغضاء عن هذا الشعور حباً بمصلحة مولاه

ولما سدل الليل نقابه خرج باخف ملابسه وسلاحه حتى دنا من الجميزة فرأى شبحاً كانه امرأة قادماً نحوه فتقدم اليه وتفرس فيه فاذا هو الغلام قد التف بملاءة كالازار أو المطرف ودفع اليه ملاءة التف بها عماد الدين ومشى الغلام بين يديه في بستان لا يرون شيئاً غير اشباح الاشجار تتراءى بينهما وبين الافق . مشيا مدة

Marfat.com

لا يتكلمان ثم التفت الغلام الى عماد الدين وأمسك بيده كانه يقوده الى نزلة فنزل معه الى حفرة . ومد الغلام يده الى اعشاب يابسة ازاحها فوصل الى باب من حديد فيه حلقة قبض عليها واعانه عماد الدين ففتحا الباب فشعر عماد الدين بريح فيها رطوبة وعفونة فعلم انها اتت من ذلك السرداب . فقال له الغلام « اتبعني ياسيدي اقتص خطواتي »

فتبعه وشعر انه يمشي على ارض مرصفة بالحجارة . ولكن الظلام كان شديداً جداً واخذت رائحة العفونة تشتد كلما امعنوا في السرداب . فخاف عماد الدين ان يكون قد فرط بنفسه فقال « هل انت على ثقة من امر هذا الطريق ؟ »

قال « نعم وقد جئت فيه اليك اليوم »

فاطمأن خاطره وسكت وهو يخطو ويتلمس الجدران . ثم سمع وقع اقدام فوق السرداب فقال له الغلام » نحن الان تحت القصر الصغير وبعد قليل نمر تحت الميدان وليس بعده الا قصر الخليفة فقصر النساء . . »

ولما أحس الغلام انهما تحت قصر النساء أشار الى عماد الدين أن يقف فوقف . فتقدم هو الهوينا حتى رفع باب السرداب فبصر عماد الدين بالنور وبعد قليل اتاه الغلام وأمسك بيده وأشار اليه أن يخرج . فصعد بضع درجات فاذا هو في غرفة فيها مصباح فنظر الى نفسه والى رفيقه على النور بعد هذه السفرة في الظلام فرأى عليهما التراب ونسيج العناكب فنفض الرداء ونظر الى الغلام وأشار بيده يستفهم عما يعمل فاومأ اليه أن ينزع الملاءة ويتبعه ففعل فدخلا حجرة مفروشة باحسن الرياش فتحقق انه في قصر الخليفة فاشار اليه الغلام أن يقعد وينتظر وخرج هو . فقعد وقلبه يخفق تطلعاً لما سيراه في تلك الليلة وتذكر مجيئه الى هذا القصر من عهد غير بعيد — وكيف رأى سيدة الملك . وطال انتظاره حتى تولاه القلق . واذا بالغلام قد عاد ومعه ياقوتة الحاضنة فحالما وقع نظره عليها تذكر انه رآها قبل ذلك الوقت

اما هي فاسرعت اليها وحيته واشارت الى الغلام ان ينصرف فانصرف وظلت ياقوتة وحدها مع عماد الدين فقالت « لقد اتعبناك يا سيدي واتينا بك في هذا الليل . .

فقال « لا بأس يا سيدتي وانما ارجو أن لا يكون لاستقدامي سبب يوجب القلق »

فتنحنحت وقالت « لا والحمد لله .. الا تذكر انك رأيتني يا عماد الدين ؟ . »

قال « بلى اذكر ذلك جيداً »

Marfat.com

قالت « اما انا فلا انسى قدومك في ذلك اليوم العصيب .. وما اتيته من الأريحية والنخوة في انقاذ مولاتي سيدة الملك من خطر الموت . انها لا تنفك تذكر ذلك الفضل لك . وكثيراً ما تمنت ان تراك لتكافئك على صنيعك ولكنك لم تعد . . »

فقال مسرعاً « لاني لم افعل ما فعلته لاجل المكافأة .. وأنا غني عن ذلك بفضل مولاي صلاح الدين . . »

قالت « طبعاً .. ولكن المكافأة لا تعطى دائماً للحاجة اليها بل هي تدل على امتنان المعطي نحو المعطى له .. وعلى كل حال فليس ذلك من شأني بل هو يرجع اليك واليها فاذا التقيتما صرت انا غريبة . أليس كذلك ؟ » قالت ذلك وضحكت وفي عينيها وغنة صوتها معنى لا يعبر عنه بالكلام فتوسم عماد الدين في كلامها معنى اختلج له قلبه . ولم يصدق نفسه لما يعلمه من البون البعيد بينه وبين سيدة الملك وهي اخت الخليفة اعظم نساء المسلمين بمصر . فقال وهو يتجاهل مرادها « كيف مولاتنا سيدة الملك ارجو ان تكون في خير وعافية ؟ »

قالت « ألم تصلك رسالتها ؟ »

قال « كيف لا ؟ وما الذي اتى بي في هذا الوقت »

قالت « وخصلة الشعر ؟ »

فمد يده واستخرجها من جيبه وقال « هذه هي »

قالت « ألا تريد أي تردها اليها كما رددتها في المرة الماضية ؟ »

قال « بلى . وانا جئت اجابة لدعوتك لانك قلت ان سيدة الملك تستصرخني فهل هناك باعث هام ؟ »

قالت « انما بعثها على ذلك رغبتها في مكافأتك . وقد كلفتني ان ادفع اليك هذا العقد » واستخرجت عقداً من اللؤلؤ لم يقع بصر عماد الدين عليه حتى دهش . وقدمت العقد اليه فتناوله ولم ينظر اليه بل اعاده اليها وهو يقول « شكراً لمولاتي .. اني في غنى عن تحميلها هذه الثقلة لاني لم افعل ما فعلته طمعاً بالمكافأة »

فاستعظمت هذه الانفة منه وقالت « اني مأمورة بايصال هذه الهدية اليك فاذا كنت لم تقبلها فاني أدعو صاحبتها لتقدمها بنفسها . . ولكن احذر أن تكون قاسياً يا عماد الدين » .

فزاده هذا التعبير بياناً لما توسمه في عبارتها الاولى فسكت وقد ارتبك في أمره

Marfat.com

الفصل السادس والعشرون

اللقاء

أما هي فنهضت وخرجت وتركت العقد في مكانها على البساط وظل عماد الدين وحده وهو مرتبك لا يدري ما يقول أو يعمل . ثم عادت ياقوتة وسيدة الملك وراءها وقد التفت بالنقاب حتى لا يظهر الا عيناها وبعض جبينها فلاحظ في عينيها ذبولاً وقد تغيرت عن ذي قبل . فلما رآها دخلت وقف لها وتأدب واطرق فتقدمت اليه وهي تتماسك وقالت « اجلس يا عماد الدين . . انك ذو فضل على حياتي وشرفي ولا حاجة الى الوقوف لي . اجلس . قد اتعبناك بهذه الدعوة الليلة وازعجناك فضاعفت فضلك علينا . . » قالت ذلك وهي تقعد وتشير اليه ان يقعد فقعد وظلت ياقوتة واقفة وهي تتناول العقد عن البساط ثم دفعته الى سيدة الملك وقالت « هذا العقد دفعته اليه حسب أمرك فلم يقبله » فتناولته واتجهت نحو عماد الدين وقالت « اترفض هدية صغيرة قدمتها اليك وانت قد اهديتني حياتي ؟ » ومدت يدها نحوه والعقد في كفها وهي تتوقع ان يمد يده فيتناوله منها . فلما ابطأ صدت ياقوتة للكلام قائلة « ماذا أوصيتك يا عماد الدين . . ألم اقل لك لا تكن قاسياً ؟ »

فخجل ومدَّ يده وتناول العقد وهو يقول « اني اقبله هدية لا مكافأة » ولما مد يده ليتناوله لمست انامله كفها فاحس ببردها وارتعاشها واحست هي برعشة كهربائية سرت في عروقها . وبان البشر في محياها فقعدت ياقوتة وهي تضحك وتقول « ها انه قبله منها ولم يقبله مني . . »

فقطع كلامها قائلاً « لانك اردتِ أن آخذه مكافأة على خدمة فلم اقبله طبعاً لاني اذا كنت قد فعلت خيراً فلم افعله طمعاً بالمال . . و . . »

فقطعت ياقوتة كلامه قائلة « طمعاً بماذا اذاً ؟ يظهر انكما تعارفتما قبل ذلك اليوم و . . و . . » وضحكت

فاستغرب تعريض هذه الخاضنة بحب متبادل بينهما وهو لا يعلم بشيء من ذلك وانما يعلم انه استلطفها ومال اليها ولم يحلم انها استلطفته او مالت اليه . ولذلك لم يفكر فيها لاعتقاده استحالة حصوله عليها . فلما سمع ذلك التعريض تحرك قلبه واوشك أن

Marfat.com

يشعر بالامل فاعترض افكاره صلاح الدين وما سمعه في ذلك اليوم من خطبته اياها فانكر على نفسه أن يتصدى لامر يخص مولاه وهو يفديه بروحه . واصبح يعدّ حديثه معها خيانة لكنه لم يجسر على التصريح بذلك فتجاهل وقال « انما فعلت ما فعلته يومئذ مدفوعاً بما تفرضه عليَّ المروءة . . من يستطيع ان يرى سيدة الملك بين يدي الاشرار يريدون ان يلحقوا الاذى بها ولا يفديها بروحه ؟ »

فالتفتت سيدة الملك نحوه وقد ضايقها النقاب وخافت ان يمنعها عن الكلام فازاحته عن فيها وقالت « لا بأس من كشف هذا الوجه بين يديك فانك صاحب الفضل في بقائه . . انك تستغرب وجود رجل يستطيع ان يراني في ذلك الخطر ولا يفديني بروحه . . لاتستغرب ذلك يا عماد الدين فقد كان في قصري عشرات من اهلي وعشيرتي لم يقدم احد منهم على ما اقدمت انت عليه . وكانك كنت على موعد من تلك الساعة فدفعت اليَّ خصلة الشعر صيانة لها ولي . . فهل الام اذا نظرت اليك نظري الى ملاك هبط من السماء لانقاذي . أما انت فلا اعلم كيف كان شعورك في تلك الساعة . . »

فرأى في اطرائها اشارة الى حبها لكنه كذب نفسه وعاد الى الانكار فقال « أما شعوري فهواني وانا في خدمة مولاي السلطان صلاح الدين وقد امرنا ان نكف عن رمي النفط وقع بصري على زجاجة نفط سقطت في هذه الدار وانا على يقين انها ليست من عندنا فاستغربت وقوعها . ثم رأيت نذلاً ملثماً اغتنم اشتغال اهل القصر بانفسهم ودخل كالذئب الكاسر ومعه اناس ارادوا القبض عليك فلم املك عن الوثوب عليهم ولم اكن اعلم انهم يريدونك ولا انك سيدة الملك أخت الخليفة . فاما وقع نظري عليك ورأيت هذا الشعر الذهبي علمت انك هي . وكانت تلك الخصلة في جيبي فدفعتها اليك . . »

فلما سمعت اسم صلاح الدين اجفلت لكنها مالت الى معرفة قصة خصلة الشعر فقالت « من اين وصلت هذه الخصلة اليك ؟ »

فتوقف عن الجواب حتى خاف ان ترتاب منه ثم قال « اتيت بها من دار السلطان نور الدين صاحب دمشق . . ما لنا ولهذا . وقد سألتني عن شعوري في تلك الساعة فهو اني شعرت بحمية لم أستطع دفعها ووثبت لمقاومة أولئك الاشرار وانا لا أعرفهم ولا أعرف على من هم واثبون . فلا فضل لي على سيدة الملك لاني لم اكن اعرف انها المقصودة بالاذى وانما فعلت ما فعلته مدفوعاً بالمروءة »

* * *

Marfat.com

الفصل السابع والعشرون

التاميح

وكان يتكلم وهي تنظر اليه وتكاد تتاقفه بعينيها فاما وصل الى ذكر والمروءة صاحت فيه « ومن اجل هذه المروءة شعرت بهذا الشعور ورغبت في استقدامك لاعترف بجميلك »

فخجل من هذا الاطراء وقال « العفو يا سيدتي ان مثلي لا يستحق هذا الاطراء من اخت امير المؤمنين لاننا عبيد ويجب علينا التفاني في الدفاع عن صاحب هذا المقام السامي . . »

فابتدرته قائلة « اسمع يا عماد الدين .. لست عبداً لا ... لو انك اندفعت الى هذه المنقبة لاجل اخت الخليفة لقلنا انك فعلت ذلك تقرباً من امير المؤمنين . ولكنك انما دفعك اليها نفس ابية وهمة عالية واريحية ومروءة لا نعهد مثلها في من نعرفهم بين اظهرنا من الامراء وابناء الخلفاء . فهذه الخصال رفعت قدرك وجعلتك في مصاف الملوك . . لا تقل انك عبد معاذ الله .. بل انت امير من اعظم الامراء وستكون كذلك قريباً اذا شئت ..» وظهر في عينيها معنى لم يترك لعماد الدين سبيلاً للتجاهل . واعجبه قولها انه سيكون اميراً وهو في ذلك اليوم اوشك ان يصير من الامراء بما آنسه من اعجاب نجم الدين به وتقديمه . وتذكر المهمة التي هوذاهب فيها وما وعده به نجم الدين اذا فاز بها . فتفاءل من مطابقة قولها قول نجم الدين انه امير أو سيصير اميراً عن قريب . ثم انتبه فجأة انه قد مضى هزيع من الليل فخاف ان يطول الكلام في تلك الجلسة ولم تعجبه مقدمات الحديث لعلمه بما طلبه صلاح الدين من اخيها . وخيل له انها استقدمته لامر يتعلق بذلك الطلب اذ لا يزال يستبعد ان يكون هو المقصود به . فاراد ان يتحقق ظنه فقال « اذا صرتُ شيئاً مذكوراً فانما يكون الفضل فيه لمولاتي سيدة الملك لانها احسنت الظن بعبدها فقدمه مولاه السلطان صلاح الدين في مساء الامس حتى جعله اقرب اعوانه اليه »

فلما سمعت ذكر صلاح الدين للمرة الثانية اجفلت وانقبضت نفسها وتذكرت ما جرى لها بسببه ولم يعجبها اقتران اسمها باسمه في هذا الموضوع . لكنها سرت لقوله

Marfat.com

ان صلاح الدين قدمه فقالت « لا غرابة في تقديمك فانت اهل لاكثر من ذلك . . انك امير وسيد وستنال مقاماً لم يناله صلاح الدين ولن يناله هو ولا غيره من السلاطين أو الامراء .. هذا اذا شئت .. » وتلعثم لسانها وغابت على امرها وابرقت عيناها وبان الحياء في محياها فاطرقت . وكانها ندمت على ما فرط منها فجعلت تتشاغل بتثنية طرف جديلتها المرسلة على صدرها من تحت النقاب

أما هو فلم يبق عنده شك بما تعنيه واستعظمه منها وهاجت عواطفه واحسَّ بانعطاف جديد نحوها بعد ان سمع تصريحها انها تحبه وانها تفضله على صلاح الدين . لكنه تذكر ان مولاه صلاح الدين يريدها مع انه لا يرجو ان ترضى به فاستنكف ان يقوم مقامه أو يقف في سبيله او يعتدي عليه وهو صنيعته وقد صمم ان يفتديه بروحه . فلم يتمالك عن النهوض وقال « ان سيدتي بالغت في اطراء عبدها كثيراً فانا صنيعة مولاي السلطان ولا اخفى عنها اني ذاهب هذه الليلة في مهمة تخصه واخاف ان اتاخر عنها اذا اطلت المقام هنا . . »

فامسكت بيده واقعدته وقد بانت انفة الملوك في وجهها وقالت بصيغة الامر « لا لست عبداً لاحد ولا صنيعة احد .. وقد قلت لك انك امير وسيد ... لا .. لا ينبغي ان تذهب في خدمة احد اني في حاجة اليك وقد استصرختك . . اين حميتك ومروءتك .. ؟ »

فلما قبضت على يده سرت الرعشة في كل اعضائه وقعد بالرغم منه . لكنه لما سمع كلامها خاف ان يغلب على امره فقال وهو يتحفز للنهوض « ان هذه المروءة نفسها تحماني على الذهاب الآن لاني تعهدت بامر لا بدَّ من الذهاب فيه الآن وهو يخص مولاي صلاح الدين . . . واذا كانت مولاتي ترى فيَّ هذه المناقب وانا صنيعة صلاح الدين وخادمه فكيف لو عرفته هو ؟ »

فنفرت من هذا الجواب وكانت لا تزال قابضة على يده فتركتها واعرضت بوجهها وهي تظهر الغضب فتصدت الحاضنة ياقوتة وقالت « مالك يا عماد الدين ؟ تخاطبك مولاتي من الشرق فتجيبها من الغرب ألم تفهم مرادها ؟ »

قال « نعم فهمت ويسرني رضاها عني وقد غمرتني بفضلها وانعامها . ولكنني صنيعة السلطان صلاح الدين وانا ذاهب في خدمته » وتحول نحو سيدة الملك وقال « لماذا غضبت مني يا سيدتي انما التمس رضاك »

فسرَّها عتابه فالتفتت نحوه وعيناها تعانقانه وقالت « لاني اخاطبك واطلب

Marfat.com

الجواب عن نفسك فتجيبني عن صلاح الدين ما لنا وله . دعه في سلطانه انه لا دخل له في هذا الحديث .. الم تفهم ؟ . »

فتحير عماد الدين في امره وارتج عليه وعلم انها لا تريد صلاح الدين واوشك ان يغلب على عقله .. من يقف هذا الموقف ولا يغلبه الهيام ويتسلط على قلبه ؟ لكن عماد الدين كان قوي الارادة شديد الاحترام لصلاح الدين وكان تلك الليلة في شاغل عن كل شيء بامر زعيم الاسماعيلية وسفره فتجلد ونهض بلطف وهو يقول « فهمت ياسيدتي على قدر امكاني واذا لم افهم فلاني ارى نفسي لا استحق هذه النعمة . ولا ازال ارى مولاي صلاح الدين احق بها ... لا تغضبي يا سيدتي ان صلاح الدين لم تعرفيه ولو عرفته لضربت بعماد الدين عرض الحائط . . ومع ذلك فاني طوع امرك ولكن ... »

فقطعت كلامه وتوجهت نحوه وهي تبتسم والدمع يتلألأ في عينيها وقالت « لا تقل ولكن ... بل قل انك تطيعني في ما اطلبه »

قال « اطيعك في كل شيء ولكن بعد رجوعي من هذا السفر . . ان سفري لا بدَّ منه وقد أقسمت ان اكون في صباح الغد خارج هذا البلد . ومضى بعض الليل وانا لم اتحرك من مكاني .. فبالله اسمحي لي بالانصراف الآن .. »

فقالت والدهشة ظاهرة في وجهها « تنصرف الآن ؟ الى اين ؟ »

قال « الى منظرة اللؤلؤة ومن هناك اركب حالاً واسافر . . »

قالت « تسافر ؟ ويلاه ! الى اين ؟ »

قال « في غرض يختص بمولاي السلطان . . »

فاطرقت وهي لا تدري ما تقول تخاف ان يجر الحديث الى ما لا يقوى على دفعه وقد احس ان الحب كاد يستولي على ارادته وهو حريص على القيام بوعده ولا سيما بعد ان اقسم وصمم فقال « اسمحي لي يا سيدتي بالانصراف واعلمي اني رهين امرك ولولا ما سبق من تعهدي بامر السفر لما خالفتك في شيء ولكنني ساعود سالماً ان شاء الله وعند ذلك لا ترين مني الا ما يرضيك .. استودعك الله الآن »

Marfat.com

الفصل الثامن والعشرون

المباغتة

قال ذلك ومدّ يده لصافحها فلم تمدّ له يدها رغبة في استبقائه لتتم حديثها او لعلها تثنيه عن السفر . واذا هي تسمع وقع اقدام مسرعة خارج باب الغرفة فنظرت الى ياقوتة فرأتها قد امتقع لونها وتحفزت للنهوض . ولم تكد تقف حتى رأت غلامها الذي جاء بعماد الدين داخلاً والبغتة على وجهه مع الخوف فصاحت فيه « ماوراءك ؟ ويلك ! »

فقال وصوته يرتجف « ان الاستاذ بهاء الدين قراقوش يطلب ان يراك ؟ »

فاجفلت عند ذكر اسمه وقالت « ولماذا ؟ وكيف . . ماله ولنا ؟ »

قال « كنت ساهراً لمراقبة كل حركة كما امرتني الحالة اطل على القصر من شرفة لايوان فرأيت شبحاً قادماً من الخارج نحو باب هـذا القصر لم اعرفه لانه ملتف بعباءة كبيرة كانه جاء متنكراً فجعلت اراقبـه حتى وصل الى باب القصر وطلب مقابلة الاستاذ بهاء الدين . فجاء لمقابلته ودار بينهما حديث لم افهمه ولكنني لحظت ان القادم الحَّ عليه ان يفتش داخل القصر وتأكد لي ذلك لمـا رايت الاستاذ بهاء الدين دخل القصر بسرعة ورجع ذلك الرجل كما جاء . وسمعت بهاء الدين يأمر احد الخصيان بالذهاب الى سيدتي فاسرعت لاخبرك بذلك »

فاستولت الدهشـة على الجميع وظلوا سكوتاً الاَّ سيدة الملك فقالت « تباً لذلك الخائن..لا اعلم كيف اطاع على مجيء عماد الدين الى هنا .. حتى وشى بنا الى الاستاذ »

فقالت ياقوتة « اتظنين مجيء بهاء الدين يتعلق بعماد الدين »

قالت « لا بدَّ من ذلك ولكنه سيعود خائباً »

فقال عماد الدين « لا تخافي ياسيدتي ان روحي فداكِ ماذا جرى ؟ »

قالت « لم يجرِ شيء . . ولكنني سآذن بذهابك رغم ارادتي . وهذا يسرّك ولكنه يسوءني » والتفتت الى الغلام وقالت « يا غلام عد بعماد الدين من هـذا السرداب كما جئت به منه » والتفتت الى عماد الدين وقالت « ارجو ان تبقى على وعدك وان تذكرني في اثناء سفرك . . واعلم ان صاحبكم بهاء الدين هذا قد قطع كلامي وحال دون اتمامه وانا لا ازال في اوله لكنني اترك فهم الباقي الى فطنتك وما يدلك عليه قلبك . واحسبني عبرت عن مرادي بملامحي اكثر مما بنطقي . . كنت قبل

استقدامك في يأس شديد وكنت ارجو ان يزول كل يأس بحضورك . فاذا انت على سفر وجاء هذا الاستاذ فلم اتمكن من اتمام شكواي فاقول لك بالاختصار اني افكر فيك دائماً وانا سجينة في هـذا القصر . . ويا حبذا لو اني اخرج به معك الساعة . . »

قالت ذلك وشرقت بدموعها

فكان لذلك وقع شديد على قلب عماد الدين وهو شاب في مقتبل العمر وبين يديه اشرف نساء مصر.واجملهن تشكو له حبها وتدعوه الى قربها . فهاجت عواطفه وكاد يغلب على امره وينسى مهمته وانما عصمه ادب نفسه وعلو همته واحترامه لمولاه فتجلد وسكت . لكنه اشار برأسه وعينيه انه رهين أمرها بعد عودته وارادت ان تستزيده ايضاحاً فتصدت الحاضنة بلهفة قائلة « يكفي يا سيدتي . يكفي . ان بهاء الدين يطلب مقابلتك بالحاح ولا استطيع استمهاله » وتقدمت الى عماد الدين فامسكت بيده وجرته حتى خرج من تلك الغرفة الى باب السرداب . وكان الغلام في انتظاره هناك وقد فتح الباب فالتف كل منهما بردائه وذهبا واغلق الباب وعاد كل شيء الى اصله . وتمشت سيدة الملك الى غرفة الاستقبال فرأت قراقوش في انتظارها هناك . فاظهرت الاستغراب من طلبه مقابلتها في تلك الساعة

(فقال « بلغني ان رجلاً غريباً دخل هذا القصر الليلة اين هو ؟ »

قالت « تسألني سؤالاً انت أولى بالجواب عليه لان مفاتيح القصر بيدك وقد سددت علينا الطرق والنوافذ فاذا دخل غريب علينا فانت المسئول »

قال « لم يدخل احد من باب القصر . . »

قالت « هل هبط من السماء ؟ » قالت ذلك بغضب

فقال « لا تغضبي يا سيدتي اني انما اتصدى للسؤال حرصاً على كرامة سيدة الملك وعملاً بامر امير المؤمنين »

فضحكت ضحكة استهزاء وغضب وقالت « ما احرصكم على اوامر امير المؤمنين وكرامة اخته .. من انبأك بدخول الرجال علينا خلسة ؟ »

فخجل بهاء الدين من هذا التوبيخ وندم على تسرعه وقال « لم اقل انكم تفعلون ذلك عنوة يا سيدتي .. ولكنني اقول ما بلغني ولم اسمع من رجل حقير او جاهل

فقطعت كلامه وقالت « مهما يكن من امر الذي بلغك فانه نذل كاذب هذا قصري ابحث فيه عمن شئت » قالت ذلك وتحولت من القاعة نحو غرفتها والحاجة تهرع في اثرها وقلبها يرقص فرحاً للنجاة من تلك التهمة الشنيعة

الفصل التاسع والعشرون

الحب سلطان

"فلما خلت ياقوتة بسيدة الملك في غرفتها اكبت عليها وجعلت تقبلها وتداعبها وهي ساكتة وقد عادت اليها هواجسها ثم انتترت من بين يديها وقالت « دعيني يا ياقوتة دعيني وشاني اني تعسة شقية .. ويلاه ما هذا البلاء .. لم اكد اتوسم باباً للفرج حتى اقفلت عليَّ الابواب وسدت دوني السبل .. » واخذت في البكاء

فعملت ياقوتة على التخفيف عنها وقالت « لا تنكري نعمة الله .. الم تطمئني انه يحبك وهذا ما كنت تطلبين معرفته و .. »

فقطعت كلامها بغضب وقالت « يحبني ؟ هل فهمت من قوله انه يحبني .. الم تريه كيف كان مرتبكاً في امره وكلما ذكرت له ما في نفسي حول الموضوع الى مولاه صلاح الدين .. انه يحب مولاه فقط .. » قالت ذلك ومسحت عينيها بمنديلها وهمت ان تعود للكلام

فسبقتها ياقوتة قائلة « ولكن حبه هذا مبني على همة عالية واريحية و.. »

قالت « وما يفيدني اذا كانت هـذه المناقب فيه ولا يحبني . وزد على ذلك انه مسافر في مهمة في خدمة مولاه ولم يشأ ان يتأخر ساعة لاجلي . وانا تركت حسبي ونسبي وعرضت نفسي لغضب اخي وسائر اهلي من اجله فهل يدل هذا على حبه ؟ »

قالت « لا شك انه يحبك وقد توسمت ذلك في عينيه لكنه شهم اذا وعد وفى . وقد اقسم ان يسافر الليلة فلا يريد ان يحنث بيمينه . واوكد لك انه لو طال جلوسنا برهة لرايت منه كل ما يسرك لانه لم يكن في اول الحديث يصدق انك تحبينه ولم يكن يحلم بهذه النعمة . فلما دنا من الموضوع جاء هذا الطواشي وكدر علينا امرنا .. ولكن كوني مطمئنة انه سيعود اليك .. »

فغلب عليها الامل — والمحب كثير الريب لكنه سريع التصديق قريب الامل — فلما سمعت قولها انه يحبها وانه سيعود اليها اشرق وجهها وبان الابتسام حول شفتيها واقبلت بوجهها نحوها وقالت « صحيح ؟ هل انت على ثقة مما تقولين ؟ هل هو يحبني ؟ » ثم اطرقت كانها عادت الى رشدها . وضمت خديها بين كفيها وصاحت « ويلاه ؟ ماذا جرى لي ؟ من انا ؟ الست سيدة الملك العاقلة الحازمة ابنة امير المؤمنين واخت امير

المؤمنين سلالة فاطمة الزهراء بنت الرسول ؟ ما الذي اصابني حتى صرت كالمجنونة واصبح قلبي اسيراً بين يدي شاب غريب لاحسب له ولا نسب أتسقط ما يجود به علي من كلمة عطف او تودد ... وهؤلاء ابناء اعمامي الشرفاء يتمنون مني لفتة رضى : لله ما اشد وطأة الحب وما اقوى سلطانه .. »

فلما سمعتها ياقوتة تقول ذلك توسمت منها الرجوع الى الصواب لعلها تنجو من لواعج الحب فبادرتها قائلة « الم اقل لك يا سيدتي ..؟ قد كنت في نعيم وراحة قبل ان .... »

فاسرعت سيدة الملك فوضعت كفها على فم ياقوتة تعجيلاً في اسكاتها وقالت « ومع ذلك فان الحب يعزيني عن كل شي ... يكفي ما رأيته من اقتناعي بكلمة من عماد الدين لو قالها لنسيت كل شيء . ومع ذلك فان املي بان اسمعها منه انساني القصور والخلافة والنسب الشريف . انساني كل شيء . . ذلك هو الحب يا ياقوتة . ليس في الدنيا الذ منه اذا كان متبادلاً .. وهو بيننا متبادل ان شاء الله .. اليس كذلك ؟ »

فعادت الى مسايرتها وقالت « هذا ما قلته لك يا سيدتي . . فاتكلي على الله واصبري فان الفرج قريب »

فاحبت سيدة الملك ان تختم الحديث بهذا الوعد فاخذت تهتم بالذهاب الى الفراش وياقوتة تساعدها

اما عماد الدين فانه دخل السرداب مرغماً ولم يكن يريد الرجوع هارباً من وجه قراقوش او غيره . ولكنه فعل ذلك صيانة لكرامة سيدة الملك وفراراً من التأخير عن المهمة التي هو سائر فيها — مرَّ في السرداب متجسساً والغلام يسير بين يديه حتى وصل الى الطرف الاخر عند منظرة اللؤلؤة . فخرج وعاد الغلام الى القصر مشى عماد الدين بين الاشجار يطلب غرفته واذا هو يسمع المؤذن يدعو الناس لصلاة الفجر فاجفل . ولم يكن يظن نفسه تأخر بهذا المقدار فاسرع الى غرفته وامر باعداد جواده واستعد للسفر وهم بالخروج قبل طلوع النهار حسب وعده . واذا بصلاح الدين يناديه من غرفته فاسرع ملبياً فرآه قاعداً في فراشه فاكب على يده يقبلها فقال « انت مسافر يا عماد الدين ؟ »

قال « نعم يا سيدي .. وقد ابطأت قليلاً ولكن لا تطاع علي الشمس الا خارج القاهرة كما قلت »

قال « كنت احب ان اراك قبل الان وقد سألت عنك مراراً فلم يجدوك

Marfat.com

حجرتك . احببت ان اراك لعلي اثنيك عن عزمك وانت سائر في مهمة يمكن الاستغناء عنها وربما كنا احوج اليك هنا مما في الخارج »

قال « اني طوع امر مولاي .. لكنني قد تأهبت للذهاب فادع لي بالنجاح واذا فزت فببركة سلطاني ومولاي . واذا مت فان روحي فداهُ » قال ذلك ووقف ينتظر الامر فاجابه صلاح الدين « سر بحراسة المولى ولا اوصيك بالشجاعة فانك شجاع ولكنني لا احب ان تلقي بنفسك في التهلكة فانك عزيز علينا ... سر بحراسة الله »

فعاد وقبل يد صلاح الدين وخرج فركب جواده وسار ولم تمض دقائق قليلة حتى صار خارج القاهرة وهو عليم بالطرق ومسالكها . وحالما خلا بنفسه عادت اليه هواجسه بما لاقاه من الغرائب المدهشة في الليل الماضي . ولما اشرقت الشمس توهم ان ما مرّ به من ذلك حلم رآه في منامه اذ استبعد وقوع ما لقيه من الحفاوة والتقرب من سيدة نساء مصر . لكنه ما لبث ان جسّ جيبه فوجد العقد فيه حتى تحقق ان ذلك حدث في اليقظة . فلنتركه في هواجسه ولنعد الى اهل القاهرة

الفصل الثلاثون

الهكاري وقراقوش

تركنا قراقوش بعد مفارقة سيدة الملك وقد استغرب ما سمعه . لكنه ما زال يتوقع ان يجد احداً في القصر لان ابا الحسن اكد له وجود رجل غريب . فعاد الى التفتيش في كل مكان فلم ير احداً . فعاد الى غرفته قرب باب القصر فرأى ابا الحسن في انتظاره على مثل الجمر . وكان ينتظر ان يراه قادماً اليه ومعه عماد الدين يرسف في القيود فلما رآه وحده صاح به « اين الرجل ؟ »

وكان قراقوش يحترم ابا الحسن لما يعلم من نفوذه عند الخليفة فاجابه بلطف قائلاً « لم اجد احداً يا سيدي »

قال « يا للعجب ! كيف لم تجده .. انا على يقين من دخوله هذا القصر .. وانت تعرفه »

قال « من هو ؟ »

قال « عماد الدين خادم السلطان صلاح الدين »

Marfat.com

قال « عماد الدين ! لا يعقل دخوله هنا . ان هذا الشاب من رجالنا لا يجسر على المجيء . . وكيف يمكنه ان يدخل هذا القصر ويخرج منه ولا آراه وانا ساهر لا تفوتني حركة من حركات اهله والمفتاح بيدي ؟ واي غرض له من المجيء ؟ . لا بد من خطأ في البلاغ الذي اتصل بك »

قال « انا على يقين يا استاذ ان عماد الدين دخل هذا القصر . واما غرضه فيهُ فلا ادري ما هو لكنني سمعت من بعض غلمان القصر ان لهذا الشاب معرفة باهل هذا القصر قبل ان صار الاستاذ بهاء الدين زمامه والآمر الناهي فيه . بلغني انه دخل اليه في يوم واقعة العبيد و .. »

فاستغرب قراقوش هذا الحديث فقال « قل لي من انبأك الآن بدخوله هنا ؟ »

قال « خادمي وهو من العارفين بدخائل القصر واذا شئت دعوته اليك »

قال « ادعه اين هو ؟ »

فوقف ابو الحسن بالباب ونادى « يا غلام »

فلما دخل الغلام تذكر قراقوش انه من قدماء الغلمان في قصور الخلفاء فقال له « كيف تقول بدخول الرجال هذا القصر ؟ ومن انبأك بذلك ؟ »

فالتفت الغلام الى ابي الحسن وقال « هل اقول ما اعرفه ؟ »

قال « قل »

فالتفت الى قراقوش وقال « علمت بدخوله لاني رأيتهُ داخلاً القاعة الكبرى »

فصاح فيه « رايتهُ بعينيك ؟ »

قال « نعم ياسيدي وقد مكث هنالك مع سيدة الملك وحاضنتها مدة »

قال « ولماذا لم تخبرني ؟ »

قال « لم اتجاسر خوفاً من سيدتي فبلغت الامر الى مولاي ابي الحسن ليبلغك اياه وهو من اقرباء امير المؤمنين وله دالة ونفوذ .. وقد فعل »

قال « هذا لا يمكن .. لا يمكن ان يدخل أحد هذا القصر ولا اعلم به وليس للقصر باب آخر غير هذا — الا ان يدخل من الدهليز الذي يمرُّ به الخليفة من قصر الذهب وهذا عليه الحراس يمنعون ايا كان من المرور فكيف يتيسر لهذا الرجل الدخول ؟

قال « ان سيدي الاستاذ زمام القصور حديث العهد في هذا القصر لا يعرف دخائله وسراديبه ودهاليزه وفي جملتها سرداب بينه وبين منظرة اللؤلؤة ربما جاء عماد الدين فيه . .

فلما سمع ذكر منظرة اللؤلؤة أجل البحث الى وقت آخر وختم الحديث بقوله

Marfat.com

« وعلى كل حال فان هذا القصر ليس فيه احد من الرجال الغرباء الآن واذا كان فيه احد فانه لا يفلت منه . وسينال جزاءه . لان مولاي السلطان أوصاني خيراً بالقصر وشدد عليَّ بالمحافظة عليه لصيانة اهله ... واني شاكر للشريف ابي الحسن على غيرته »

فقطع ابو الحسن كلامه قائلا « اني افعل ذلك غيرة على النسب الشريف الذي يجمعني باهل هذا القصر .. ولكن لا بأس سيظهر الحق » ثم خرج وهو يقول « لقد ازعجناك الليلة بلا طائل » وانصرف

فلما خلا قراقوش بنفسه عاد الى التفكير واستعاد ما سمعه من ذلك الغلام عن وجود الدهاليز والسراديب . وبعد اعمال الفكرة ترجح له صدق التهمة فرأى أن يرفع الأمر الى صلاح الدين . فلما كان الضحى ركب الى منظرة اللؤلؤة . ولكنه رأى أن يلتقي صديقه ضياء الدين الهكاري ليستشيره في الامر قبل الدخول على صلاح الدين لانه اصبح في تلك الاثناء اكثر مخالطة لهُ منه . فلما وصل المنظرة سأل عن الفقيه عيسى الهكاري فقيل له انه منفرد في غرفته . وهمَّ الحراس أن يرحبوا بقراقوش ويبلغوا خبره الى صلاح الدين فاشار اليهم أن لايفعلوا وتحول عن فرسه وطلب غرفة الهكاري في بعض اطراف البستان . فلما علم الفقيه بقدومه وقف له ورحب به . وكانا صديقين اصطحبا في خدمة صلاح الدين وتعبا في اسناد الوزارة اليه بعد عمه كما تقدم . وهما يتفانيان في مصلحته

رحب الهكاري بهاء الدين قواقوش ترحيباً كثيراً وقال له « ماذا جرى ؟ اني لم اشاهدك من عهد بعيد شغلوك بحراسة النساء وما اجدرك بقيادة الرجال ..» واشار اليه ان يجلس على وسادة فوق الطنفسة

فجلس بهاء الدين وهو يقول « ان حراسة النساء اصعب مراساً من قيادة الجند لانها تشتمل على حراسة النساء من الرجال . وانت ماذا تعمل ؟ هل دبرت شيئاً جديداً في خدمة هذا السلطان العظيم .. اني لا اذكر اسمه الا ويتهلل قلبي فرحاً .. »

فقطع الهكاري كلامه قائلاً بصوت خافت « وخصوصاً لما نتذكر اننا استطعنا أن نضعه في هذا المنصب كما تعلم »

فابتدره بهاء الدين قائلاً بلهفة « احذر يا صاح أن تقول هذا ويسمعك أحد اذ ليس على الملوك اثقل وقعاً من التمنين . والآن ماذا تفعل ؟ »

فضحك الهكاري وقال « انا ساع الآن في أمر لا استغني فيه عن يدك . واذا نجحنا فيه يحق لنا ان نفاخر بما اديناه من الخدم الجليلة للسلطان صلاح الدين »

Marfat.com

فتطاول بهاء الدين بعنقه نحوه وقال « وماذا عسى أن نفعل فوق ما فعلناه . انه سلطان مطلق وليس بعد هذا المنصب مطمع »؟

قال « بلى . . ان السلطان يقدر ان يطمع بالخلافة »

فتحول وجهه عنه بازدراء وقال « لا فائدة من مطمع لا سبيل اليه »

فقال « لم اعهدك متسرعاً . . متى علمت الطريق الذي اخترته غيرت ظنك في الامر . . »

قال « وماذا عسى أن يكون الطريق . . »

قال « طريق الزواج وقد خطبت له سيدة الملك اخت الخليفة فاذا تزوجها فانه منها يكتسب حقاً في الخلافة اذا اتحدت معه القوة كفى لنيل هذا المنصب كما اراد طغرل بك السلجوقي أن يفعل و . . »

فقطع بهاء الدين كلامه قائلاً « فهمت ما تريده وهو نعم الرأي ولكن هل رضي الخليفة ان يزوج اخته لهذا المولى الكردي (وضحك) ؟ لا اظنه يرضى »

قال « اذا لم يرض طوعاً رضي كرهاً . وقد وعدنا بالجواب بعد قليل »

فقال قراقوش « لقد اذكرتني امراً جئت من اجله وشغلتني عنه بحديثك . ان عماد الدين خادم السلطان ارتكب شططاً لا ادري اذا علم به السلطان ما يكون قصاصه وخصوصاً بعد ما علمته من خطبته و . . . »

فقطع الهكاري كلامه قائلاً « لا تقل خادم السلطان بل قل صاحبه وحارسه الخاص

قال « ومتى بلغ هذا المنصب ؟

قال « بلغه اول البارحة على يد الامير نجم الدين — لله هو من رجل كبير العقل عالي الهمة . . »

قال « صدقت أن نجم الدين جدير أن يكون والد هذا السلطان . . واين هو عماد الدين ؟ احب أن اراه لاهنئه واسأله سؤالاً »

قال « خرج من هذه المنظرة في هذا الصباح في مهمة لا يعلم احد حقيقتها وماذا تريد أن تسأله ؟ »

فقص قراقوش خبر الامس كما جرى . فاظهر الهكاري ارتيابه في صحة الرواية واكد له أن عماد الدين قضى طول ليله في الاستعداد للسفر وبرح المنظرة في الفجر فوقع قراقوش في حيرة وعاد الى الارتياب في الامر وخصوصاً بعد ان سمع خطبة لكنه اراد أن يطلع صلاح الدين على ما سمعه فاستشار الهكاري في ذ

فقال « دعه الآن لا تخبره لئلا يغير ذلك من عزمه على الخطبة وانا أحب أن يتم اقترانه لاني ضامن المستقبل باذن الله »

الفصل الحادي والثلاثون

جلسة تاريخية

وهم في ذلك وقد همَّ قراقوش ان يتكلم دخل غلام الهكاري وقال « في الباب رسول من مولانا السلطان »

فقال الفقيه « يدخل »

فدخل الغلام ولما رأى قراقوش هناك بانت البغتة في وجهه وقال « سيدي الاستاذ بهاء الدين هنا ؟ كنت ذاهباً اليه ايضاً »

فقال الهكاري « ما وراءك ؟ »

قال « ان السلطان يطلب حضوركما في القاعة الآن وقد امرني ان ادعو سائر الخاصة وكنت عازماً على الذهاب الى القصر الكبير لادعي سيدي الاستاذ فاذا هم هنا »

فقال قراقوش « اننا ذاهبان وما ذا عسي ان يكون الباعث على هذه الدعوة ؟ »

قال « لا ادري ياسيدي ولكنني رايت نجاباً وصل في هذا الصباح قادماً من دمشق ومعه رسالة رفعها الى مولانا السلطان فما زال منذ تلقاها وهو يقلب فيها وقد تغير وجهه وبان الغضب فيهِ . ثم شاور مولانا الامير نجم الدين والظاهر انهما اقرَّا على عقد جلسة للبحث في امر هام »

فاشار قراقوش الى الهكاري بيده مستفهماً عما يعلمه من هذا الامر . فاشار الى الغلام ان ينصرف ومشى مع قراقوش وخاطبه في اثناء الطريق سرًّا وقال « ان أمر هذا الكتاب علمت به في هذا الصباح وقد استقدمني السلطان واطلعني عليه وعملت عملاً ترضاه مني »

قال « وما ذلك »

قال « ان الكتاب من السلطان نور الدين صاحب دمشق شديد اللهجة جدًّا »

قال « وما سبب ذلك ؟ »

قال « الا تذكر خروج مولانا السلطان في صفر من هذا العام الى بلاد الشام

Marfat.com

لمحاربة الافرنج وقد صحبته في هذا السفر . فنازل حصن الشوبك ثم طاب الكرك وحصرهُ وضيق عليهِ وعلى من بهِ من الافرنج حتى طلبوا التسليم والامان . لكنهم استمهلوه عشرة ايام فاجابهم الى ذلك . وكان السلطان نور الدين في دمشق فلما بلغهُ ما فعله صلاح الدين ارتاب في امره وانت تعلم ما بينهما من المحاذرة وما في نفس صلاح الدين من الطمع في سلطنة مصر لنفسه . . » قال ذلك وضحك فبادره قراقوش قائلاً « لا اظن احداً اطمعه فيها سواك وقد احسنت . . . كمل »

فقال الهكاري « الا تراه اهلاً لها ؟ . مالنا ولذاك . . ان نور الدين لما سمع بما فعله صلاح الدين في الكرك خرج من دمشق قاصداً حرب الافرنج ليغتنم تضييق صلاح الدين عليهم من جهة ويضيق عليهم هو من جهة اخرى فيذهب ملكهم . وقد رأيت في ذلك خطراً على سلطاننا لان نور الدين متى اذلَّ الافرنج واخضعهم تفرغ للسلطان صلاح الدين وهو وزيره والناس اطوع له مما الى وزيره فتذهب مطامع صلاح الدين بمصر ادراج الرياح والافضل ان يبقى نور الدين مشغولاً عن صلاح الدين بمحاربة الافرنج حتى يقضي الله امراً كان معفولاً . . » فقطع قراقوش حديثه قائلاً « لله درك من داهية واحسبك عرضت هذا الرأي على السلطان . . »

« قال « عرضه عليه بعض الناس واشار عليه ان يرجع لمصر بحجة ينتحلها ومما قالوه له « ان دخل نور الدين بلاد الافرنج وهم على هذه الحال انت من جانب ونور الدين من جانب ملكها . ومتى زال الافرنج من الطريق واخذ ملكهم لم يبق بديار مصر مقام مع نور الدين . وان جاء نور الدين اليك وانت ههنا فلا بدَّ لك من الاجتماع به وحينئذ يكون هو المتحكم فيك بما يشاء . ان شاء تركك اولا فقد لا تقدر على الامتناع عليه . والمصلحة الرجوع الى مصر » (١)

فرجع مولانا السلطان الى مصر كما تعلم وكتب الى نور الدين يعتذر باختلال الديار المصرية لامور بلغته عن بعض شيعة العلويين وانهم عازمون على الوثوب بها فيخاف عليها من البعد عنها ان يقوم اهلها على من تخلف بها فيخرجوهم وتعود ممتنعة واطال في الاعتذار . فيظن ان نور الدين لم يصدق هذه الاعذار . فبعث اليهِ كتاباً يهدده فيه ان لم يأت الى دمشق . فلقيته في هذا الصباح وقد اخذ منه الغضب مأخذاً عظيماً فاسرَّ اليَّ غضبه وانه لم يعد يستطيع صبراً على كتمان غرضه فخففت غضبه واستمهلته ولا اراه مصغياً ولا اخال هذه الدعوة الا لامر يتعلق بالكتاب »

(١) ابن الاثير ١٦٦ ج١١

Marfat.com

وكانا قد وصلا الى قاعة الاجتماع والحرس ببابها فزاحوا لهما الستر. فدخل الهكاري اولاً وتبعه قراقوش وكانت جلسة حافلة اجتمع فيها نخبة الخاصة من رجال صلاح الدين وأهله وفي جملتهم ابوه نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمي وابن اخيه تقي الدين

فالقى الهكاري وقراقوش التحية فرد صلاح الدين عليهما وقال « مرحباً بالفقيه الحكيم ضياء الدين وبالبطل الاستاذ زمام القصر بهاء الدين » واشار اليهما بيده فجلسا وعينا الهكاري تراعي صلاح الدين فرآه رغم ما يحاول اظهاره من التؤدة وسعة الصدر وسكون البال قد تجلى الغضب في عينه

فلما استقر المقام بالجلوس قال صلاح الدين « يا نخبة الامراء الابطال وخيرة الاهل والخلان ان السلطان نور الدين صاحب دمشق اقلق راحتنا بمراسلاته وهو يطلب الينا الذهاب اليه . ونحن في ما تعلمون من حرج المقام وما يحدق بنا من الدسائس والمكائد في بلد كل اهله اعداؤنا يترقبون منا غفلة او ضعفاً ليثبوا بنا . فلما اعتذرت له بذلك كتب الي يهددني انه حامل علينا بخيله ورجله . وانتم رجالي واهلي وما يقال لي كانه يقال لكم . فلم اشأ ان اقطع في الجواب قبل ان اشاوركم فماذا ترون ؟ »

وكان صلاح الدين يتكلم والحضور سكوت كان على رؤوسهم الطير ولعلك لو استطلعت خفايا سرائرهم لرأيت كلاً منهم ينتظر ما يقوله الآخرون ولا يريد أن يكون هو البادئ في الرأي . وعيونهم متجهة بالاكثر الى الامير نجم الدين والد صلاح الدين لما يعلمونه من حزمه وعلو همته ودهائه فلم يقل شيئاً . ولكنه كان مطرقاً يفكر وقد قعد الاربعاء على وسادة عالية وفي يده هناة كالقلم يلاعبها بين اصابعه ولا يخفى اخطارها على المتفرس فيه

وكان الهكاري جالساً بجانب قراقوش وحدثته نفسه ان يتكلم ويقوي عزم صلاح الدين على مقاومة نور الدين فالتفت الى قراقوش كانه يستشيره في الامر وقد راقوش ان يوافقه على ذلك فاذا بتقي الدين ابن أخي صلاح الدين قد غلبت عليه حمية الشباب فوقف وقال « اذا كان عمي السلطان قد جمعنا ليشاورنا في هل نتصدى لنور الدين فهو يعلم اننا لم نلحق به الا اثنانى في نصرته . فاذا جاء نور الدين مصر نتلقاه بحد السيف »

فبان البشر في وجه صلاح الدين استحساناً لتلك الجرأة وابتسم . فكان لابتسامه تأثير شديد على ضمائر الحضور فجعلوا يتسابقون الى الموافقة على رأي ذلك الشاب بمثل قوله . وعلا الضجيج ونجم الدين لا يزال مطرقاً والعيون محدقة به لترى ما يبدو منه

واذا به اشار بالقلم الذي في يده اشارة استهال فاصغى الكل وعيونهم على شفتيه. فنظر الى تقي الدين نظرة ازدجار وتوبيخ وامره ان يقعد وانتهر من وافقه من الحضور. والتفت الى صلاح الدين وقال « يايوسف اراك تبغي امراً عظيماً انت اقصر باعاً من ان تناله . انا ابوك وهذا خالك شهاب الدين ونحن اكثر محبة لك من جميع من ترى . والله لو انني وخالك هذا وقع نظرنا على السلطان نور الدين لم نمكث الا ان نقتل بين يديه . ولو امرنا ان نضرب عنقك بالسيف لفعلنا . فاذا كنا نحن هكذا فما ظنك بغيرنا . وكل من تراه عندك من الامراء لو راوا نور الدين وحده لم يتجاسروا على الشبات على سروجهم وهذه البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها . فان امر سمعنا واطعنا . والرأي ان تكتب كتاباً مع نجاب تقول فيه : بلغني انك تريد الحركة الى هذه البلاد فاي حاجة الى هذا ؟ يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني اليك وما هنا من يمتنع : هذا هو الراي يا بني »

فلما قال نجم الدين ذلك اطرق الحضور وتاملوا وندموا على ما كان منهم . وامهل نجم الدين فحالما فرغ من كلامه نهض وخرج فنهض الامراء جميعاً وتفرقوا وفي جملتهم عيسى الهكاري . فانهُ قبض على يد قراقوش وخرج به الى خلوة فقال قراقوش « واهذا ؟ لا اعهد نجم الدين جباناً ضعيف العزم الى هذا الحد . . والله اوشكت ان اقف لمعارضته »

فضحك الهكاري وقال « لقد اخطأت يا استاذ . ليس بين هؤلاء من هو اقوى قلباً واجرأ على الامور منهُ . ولكنه حكيم عاقل والله اني كنت اقرأ فكره وهو مطرق يسترق النظر الى الحضور وهم يتكلمون — وقد تبين ما في كلامهم من الحدة فخاف ان يجاريهم بالكلام فيفسد التدبير . واذا شئت ان تحقق ذلك اتبعني . اني اراه داخلاً الى غرفة صلاح الدين وحده »

فمشى قراقوش في اثره حتى اقتربا من الغرفة فلمحهما نجم الدين فاشار اليهما ان يدخلا فدخلا واغلقا البابَ وراءهما وصلاح الدين يهمُّ ان يعاتب اباه على ما سمعه منهُ . فالتفت نجم الدين الى الهكاري وقال « انت حكيم وصاحب تدبير . وقد اخبرني يوسف بما كان من تدبيرك مع الاستاذ قراقوش في سبيل مصلحته . لذلك فاني لا اخشى ان اقول رأيي امامكما » والتفت الى صلاح الدين وقال « باي عقلٍ فعلت هذا يايوسف اما تعلم ان نور الدين اذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته جعلنا اهم الوجوه اليه ؟ وحينئذٍ لا نقوى عليه . واما اذا بلغه قولي واننا في طاعته تركنا واشتغل بغيرنا ربما تعمد

Marfat.com

لاقدار عملها . . » ثم وجه كلامه الى الهكاري وقراقوش وقال « والله لو اراد نور الدين قصبة من قصب السكر بمصر لقاتلته عليها حتى امنعهُ او أُقتل » قال ذلك وعيناه تتلالآن

فهمَّ صلاح الدين بيد ابيه يقبلها وقال « صدقت يا ابي . قد نطقت بالصواب وانا فاعل ذلك باذن الله ..ما احوجني الى رايك وتدبيرك »

والتفت الهكاري الى قراقوش ولسان حاله يقول « الم اقل لك هذا ؟ »

فاكب قراقوش على يد نجم الدين فقبلها وقال « لاحرمنا الله من رأيك سيدي . . » وقبل ان يفترقوا سمعوا الآذان فذهبوا للصلاة ثم الى الغداء

الفصل الثاني والثلاثون

الثعلب

اما ابو الحسن فلما عاد بصفقة المغبون ولم يظفر بعماد الدين ولا أستطاع اغاظة سيدة الملك رأى ان يبلغ ذلك الى الخليفة باسلوب يمكنه من مرامه . فصبر حتى طلع النهار وهو صباح الاثنين احد اليومين اللذين يجلس الخليفة فيهما للناس من كل اسبوع واليوم الآخر يوم الخميس . فاجل ابو الحسن المقابلة الى اليوم التالي . وقضى ذلك اليوم وهو يدبر الحبائل وينصب المكائد . وبكر في الصباح التالي الى بيت الجليس الشريف فرحب به فسأله عن الخليفة فقال « انه مريض وقد اشتد المرض عليه بالامس حتى شغل بالنا »

فابتدره ابو الحسن قائلاً « يظهر انه انتكس لما بلغه خبر قصر النساء »

فلم يفهم الجليس مراده فقال « وماذا جرى ؟ » واشار اليه ان يتفضل بدخوله

فاظهر انه اخطأ بذلك التصريح وانه يريد الكتمان محافظة على كرامة الخليفة فقال « لم يجر شيء » وجعل يبلع ريقه وهو يناول لجام البغلة الى السائس ويمشي مع الجليس الى قاعة الاستقبال

فانطلت الحيلة على الجليس فقال « كيف لم يجر شيء وقد قلت انه جرى ؟ قل لا تخف عني.. فاني لا اخاطب الخليفة بشأنه اذا احببت كتمانه عنه »

قال وهو يقعد ويظهر عدم الاكتراث « ليس هذا وقت الكلام بما يكدر الخليفة وانما يهمني ان يشفى من مرضه . . ما الذي جدَّ عليه حماه الله من كل سوء »

Marfat.com

قال « ما زال منذ اصيب بالحمى يوم ذلك الاجتماع وهو متوعك المزاج . فلما كان صباح الامس وهو يوم الجلوس للناس لم يحضر فسألت عنه فقيل لي انه قضى يومه في دار النساء وعلمت بعد الظهر ان الحمى عاودته بشدة . . »

فاظهر ابو الحسن الاهتمام الشديد بالامر وقال وهو ينظر في البساط « قضى نهار الامس في دار النساء ! واصيب بعد الظهر بالحمى .. فلابدَّ ان يكون ظني الاول في محله »

قال « وما هو ؟ قل يا ابا الحسن . . ما عهدتك تخفي عني شيئاً . . قل ماذا جرى في دار النساء ؟ »

قال « لا احب ان يشيع هذا الخبر حفظاً لكرامة اهل القصر . . علمت ان غريباً دخل ذلك القصر مساء اول البارحة وقضى معظم الليل فيه . ولما علمت بخبره اسرعت الى زمام القصر (قراقوش) وطلبت اليه القبض عليه فاذا به قد فرَّ في السراديب . . أرأيت ؟ أرأيت هذه الطياشة ؟ »

فاطرق الجليس دهشة واستبعد ذلك الخبر لعلمه انه ما من احد يتجاسر على عرض الخليفة ولا يُعقَل انه يستطيع الدخول الى القصر مع ماحوله من الحراس . ثم ان اخت الخليفة بعيدة عن مثل هذه الظنون . ولحظ ابو الحسن تردده في تصديق الخبر فبادره قائلاً « اراك مطرقاً تفكر كانك لم تصدق قولي .. وحقك ان ترتاب . ولكن هذه المرأة التي تزعم انها لا تريد الزواج فراراً من ابي الحسن انما هي عالقة القلب شاب غريب من الاكراد اعدائنا »

فصاح « من الاكراد ! ماذا تقول ؟ »

فاجاب بهدوء وتألم « ومن خدم الاكراد »

فلطم الشيخ كفه بكفه وقال « ياللفضيحة ماذا يكون حال امير المؤمنين اذا بلغه ذلك الخبر ولكن . . »

فقال ابو الحسن « ومن يتجاسر على تبليغه هذا الخبر ؟ لاينبغي ان يعلم به او لعله علم وكظم فاصابته الحمى .. اتأسف كثيراً لاني اطلعت على هذه الفعلة ولكن ما العمل لا بد من تدبير حيلة ننقذ بها عرضنا من العار ! »

فتألم الجليس مما سمعه واعتقد صحته وهو سليم القلب كما علمت . فاوشك ان تدمع عيناه من الغضب فوق ما هو فيه من الكدر على مرض الخليفة . وكان لايزال واقفاً فقعد وهو خائر القوى . فاخذ ابو الحسن يتظاهر بالتخفيف عنه . وهو يعد ذهنه لمكيد يفوز بها بمرامه فقال « يحق لنا البكاء في هذا اليوم فلنبك يا عزيزي فلنبك ..

Marfat.com

واخذ في البكاء حتى نسي الجليس حزنه واشتغل بالتخفيف عن ابي الحسن فقال له « لا بد من الصبر يا مولاي ان البكاء لا ينفعنا شيئاً .. لا بد من تدبير طريقة .. »

فاسرع ابو الحسن الى مسح عينيه وتظاهر بالجد والاهتمام والتفت الى الجليس وقال « نعم لا بد من تدبير طريقة ولكن الامر اعظم مما يظهر لك يا عماه »

قال « وهل أعظم من ذلك ؟ »

قال « ان الامر بنفسه عظيم كما علمت ولكنني افكر في المستقبل واراقب ما قد تأتي به الاقدار مما لم يكن بالحسبان »

فظل الجليس ساكتاً يفكر ولم يجب . فقطع ابو الحسن سلسلة افكاره بالسؤال قائلاً « من هو طبيب مولانا امير المؤمنين ؟ »

قال « طبيبه الشيخ السديد رئيس الاطباء لا يثق الا بهِ لسعة علمهِ وطول اختباره »

فقال ابو الحسن « الشيخ السديد ؟ هل هو ماهر في صناعة الطب ؟ »

قال « كيف لا وقد نال الحظوى عند الائمة الفاطميين من ايام الآمر رحمه الله وكان صغير السن وابوه طبيبه قبله . ثم ورث هذا المنصب بعده (١) وما زال يطب الائمة رحمهم الله الى الان وقد اصبح شيخاً طاعناً في السن »

فقال « وماذا يقول عن مرض مولانا ؟ هل سألته »

قال « سألته ولكنه لم يجبني جواباً صريحاً »

قال « اني اخاف جواب الاطباء ان لم يكن صريحاً .. لانهم اذا خافوا على مريضهم الموت جعلوا كلامهم عنه مبهماً .. »

فاجفل الجليس عند سماع لفظ الموت لانه كان يحب العاضد وقال « لا سمح الله يا سيدي .. لاسمح الله ان يكون على الامام العاضد بأس »

فقال ابو الحسن « اعوذ بالله ان يخرج من فمي أو يمر بذهني سوء يصيب امامنا واطلب الى الله اذا كان قد كتب شيء على امير المؤمنين ان يفديه بروحي .. ولكن العاقل من فكر بالامر قبل وقوعه ولا سيما في الامامة . لان الامام قطب تدور عليه امور الدولة وبه تتعلق القلوب . والاصابة به غير الاصابة بآحاد الناس .. وهذا معنى قولي لك إن المسألة اعظم مما تتصور . هل فهمت مرادي ؟ »

فادرك الجليس انه يعني لو مات العاضد كيف يكون حال الامة بعده فقال « فهمت يا بني ان الامر جليل ولكن .. »

---

(١) طبقات الاطباء ١٠٩ ج ٢

Marfat.com

فاسرع ابو الحسن وهو يروغ كالثعلب وقال « كلنا عبيد الموت يا عماه وعسى ان تكون حياة الامام العاضد اطول من حياة كل منا . واضرع اليه تعالى ان لا يميتني الا في حياته — » ودمعت عيناه فتأثر الجليس وشاركه بذلك الشعور على مظهره وقال « ذلك ما نتمناه جميعاً وخصوصاً لان مولانا حفظه الله ليس لنا ملجأ سواه وقد كابد في امامته من اولئك الاكراد ما لم يكابده سواه ولولا حزمه وتعقله لا ادري كيف كانت حالنا . . »

فاعتدل ابو الحسن في مجلسه كانه فطن لامرهام وقال « هذا ما يدور في خلدي ويجول في خاطري ويحوم حول لساني ولا يطاوعني قلبي عليه . . اذا كان هذا حالنا الآن فكيف يكون شأننا لو حدث ما نتمنى موتنا قبلهُ .. لو ان في بيت العاضد رجلاً حازماً يخلفه لكان خيراً ولكنهم اطفال كما تعلم وهذا المنصب لا يستطيعه الا المحنكون نظيرك .. كم كنت اود ان يكون لك يدٌ في هذا الامر ..»

فاستعظم الجليس هذا الاطراء واخذ يتنصل من هذا الحق فقال « اني عبد خادم لا يقال لي مثل هذا القول وانما يطمع بهذا الامر من كان مثلك يا ابا الحسن..»

فاخذ ابو الحسن يهزُّ رأسه هز الانكار وقال « انا ! نعم كنت راغباً في هذا المنصب كما علمت وقد قلت لي ان الامام رضي ان اكون ولي عهده . وهذ شرف لي لكنني الآن اتردد كثيراً في القبول .. »

فقال الجليس « لا ينبغي ان تتردد فان في قبولك انقاذ هذه الدولة »

فوجد الفرصة قد سنحت ليستشهد الجليس بان العاضد بايعه بولاية العهد فقال « وهب اني اردت ان اتفانى وارضى فهل يصدق القوم ان العاضد بايعني ؟ »

قال « انا اشهد بذلك .. الم يكن رضي على الشرط المعلوم ؟ وانما اجل الامر موقتاً وقد اعترضته شؤون مختلفة ... »

فرقص قلب ابي الحسن طرباً عند سماع ذلك الوعد فعاد الى المغالطة وقال « انا اعلم ان مثلك اذا شهد فشهادتهُ اوثق من عقد مبرم .. ولكن ما لنا ولهذا الان ارجو ان لا يحدث لما يدعو الى استشهادك وان ينهض مولانا الامام صحيحاً معافىً ونتمتع برؤيته ونقبل يديه ونصلي وراءه .. »

قال « عسى ان شاء الله »

وهما في ذلك سمعا وقع اقدام مسرعة ودخل غلام عرفا انه من غلمان القصر فاجفلا فقال الجليس « ما وراءك »

Marfat.com

قال وصوته يرتجف « ان مولانا الامام يحب ان يراك الآن عاجلاً »

فقال « وكيف هو ؟ »

قال « لا ادري لكنني رأيت الشيخ السديد عنده ومعه اطباء كثيرون .. »

فنهض الجليس وهو يقول « يظهر ان المرض اشتد عليه »

« فقال ابو الحسن « لا بد من ذهابك اليه حالاً . ولو كنت اعلم اني انفعه لسرت معك ولكنني ساسعى بعد قليل للاطمئنان . وانا ذاهب الآن الى المسجد لادعو له بالشفاء » قال ذلك وخرج وترك الجليس يتأهب للركوب الى الخليفة

الفصل الثالث والثلاثون

الدسائس

اما ابو الحسن فانه رجع على بغلته الى منزله . وخلا في غرفته واخذ يفكر في حيلة يدبرها لنيل بغيته . وقد تأكد له دنو اجل الخليفة فكيف يمهد الامر لنفسه وهو يعلم ان شهادة الجليس لا تكفي وان القول الفصل لصلاح الدين . اذا اظهر رضاه عن مرشح للخلافة نالها . فانزوى في الغرفة على كرسي واقفل الباب وجعل يفكر في الطريقة المؤدية الى غرضه وبعد التفكير ساعة — لا يحرك رأسه ولا يده وانما كان يحرك شفتيه وعينيه — وثب من مكانه وصفق فجاء الغلام فقال له « اسرج البغلة »

فقال « لا تزال مسرجة يا سيدي »

فركبها وسار قاصداً عيسى الهكاري صديقه . وكان الهكاري في غرفته المعهودة يطالع في بعض كتب الفقه فلما انبأه الغلام بمجيء الشريف ابي الحسن خف له واستقباله احسن استقبال لانه كان يتوقع ان يحتاج اليه في تدبير بعض الشؤون لمصلحة صلاح الدين

فبدأ ابو الحسن الحديث عن الفقه والتاريخ كانه يتمم ما دار بينهما عند اجتماعهما في دار العلم فقال « اراك لا تزال تفتش في الكتب ... هل ترى منها نفعاً ؟ »

قال « كيف لا ؟ ومثلك لا يسأل هذا السؤال ياسيدي »

قال « صدقت لكني لا اعني الفائدة الشرعية وصيانة الحقوق وانما اعني الفائدة التي يطلبها الناس من اعمالهم . . ام انت مثلي تهتم بالعلم لاجل العلم نفسه ؟ »

قال « اطلب العلم لاجل العلم ولكن العاقل قد يستفيد منه فوائد اخرى . . »

فادرك ابو الحسن انه يشير الى ما يتوهم الهكاري انه استنبطه من مطالعة تاريخ طغرل بك من تلقاء نفسه حتى حرض صلاح الدين على اخت الخليفة كما علمت . فعمد الى اطرائه وتغريره ليتوصل الى مرامه فقال « انك حكيم عاقل وقد علمت الآن صدق خدمتك للسلطان صلاح الدين . . الم تكن انت اشرت عليه بخطبة اخت الخليفة ؟ . لاتنكر ذلك »

فاراد ان يتواضع ويتنصل من ذلك الفضل فقال « ليس لي هذه الدالة يا ابا الحسن »

فقال « مهما يكن من تنصلك فانا اعتقد نفوذ كلمتك والآن اتعلم لماذا جئتك ؟ »

قال « لا »

قال جئتك لامر اذا علمت كيف تفهمه وتفعل به خدمت مولاك خدمة حسنة . . وان كان فيه خدمة لصديقك ابي الحسن ولك ايضاً »

فتطاول بعنقه وقال « رحم الله من نفع واستنفع .. قل ما وراءك »

قال « اتعلم ان الامام العاضد في حال الاحتضار الآن ؟ »

قال « اعلم انه مريض فهل اشتد عليه المرض ؟ »

قال « انه في اشد حالات المرض . . واذا مات صارت الخلافة الى ولي عهده وانت تعلم انه غلام غنيد لايعرف فضل الرجال . . »

قال « اي فضل تعني ؟ »

قال « اسمع . . اني مطلعك على سرٍّ يهمك الاطلاع عليه . . ان العاضد مائت الليلة او غداً . وانا اكثر اهله معرفة بفضل السلطان صلاح الدين — لا اقول اني احب ان يتولى هذا الامر هو ويخرجه من ايدينا . ولو قلت لك ذلك لا تصدقني ولكنني اعلم ان مقاومة القوة الغالبة لاتفيد شيئاً . واذا صارت الخلافة الى ولي العهد الذي تعرفه كان ذلك باعثاً على القلاقل . اني اعرف افكاره واعلم انه ينوي ان يثير الشيعة ويحرضهم على مناواة السلطان ورجاله . . وهذا لايفيد احداً من الجانبين . ولا اخفي عنك ان العاضد كان عازماً ان يجعل ولاية العهد اليّ فاوصى لي بذلك على يد الجليس الشريف واوشك ان يكتب العهد لكن المرض منعه . فاخاف اذا توفي في مرضه هذا ان ينكر رجاله واهله عليّ ذلك . فاذا اخذتم بيدي وصيرتم هذا الامر اليّ عرفت لكم فضلكم واغنيتكم عن التعب . . ارجو ان تكون قد فهمت مرادي واظن ما بيننا من الصداقة القديمة يكفي للوثوق بي والتعويل على قولي »

Marfat.com

وكان الهكاري يسمع كلام ابي الحسن ويفكر فيه . فلما وقف عند هذه العبارة قال « وبعد ذلك ؟ »

قال « اعني اذا خاطبتَ السلطان صلاح الدين في الامر اعرض عليه هذا الرأي كانه منك فيعرف لك هذا الفضل وانت رابح من كل وجه ... ان ما اعرضه عليك عظيم الاهمية وفيه نفع للسلطان ولك ولي فما قولك ؟ »

فرأى الهكاري كلام ابي الحسن معقولاً . وادرك ان عمله هذا خيانة لاهل الخليفة لكنه نظر فيه من حيث مصلحة السلطان لانهم اذا اعانوا هذا الخائن على تولي الخلافة كان عوناً لهم في ما يريدون ويهون عليهم ان يخادعوه في ما بعد اذا شاؤا فضلاً عن انه يسهل على صلاح الدين التزوج بسيدة المالك على يده فيتم تدبيره . فنظر الى ابي الحسن نظر متفرس وقال « انت مقدم على عمل عظيم فيه نفع كبير لك »

قال « لا انكر ذلك ولكنني اخدم مصلحة السلطان صلاح الدين ايضاً من كل وجه واذا لم تصغ لرأيي تعبتم جميعاً لان المصريين قلوبهم مع خلفائهم كما لا يخفى عليك . أرني مهارتك في اتمام هذا الامر واعلم انك ستكون اقرب المقربين »

قال « لك علي ذلك . سأبذل ما في وسعي في هذا السبيل ونرى ما يكون »

فتحفز ابو الحسن للنهوض وهو يقول « انا ذاهب وسنلتقي غداً ولا حاجة بي الى تنبيهك بان يبقى ما قلناه هنا مكتوماً عن كل انسان »

قال « لا حاجة الى التوصية »

الفصل الرابع والثلاثون

اقطع الشجرة من جذرها

نهض ابو الحسن وركب بغلته وعاد . . وظل الهكاري واقفاً برهة يعيد في ذهنه ما سمعه فرأى فيه خيراً كثيراً . فبادر الى تنفيذه وسار الى صلاح الدين فرآه مع ابيه في شرفة تطل على الخليج وقد جلسا هناك للاستراحة فاستأذن عليهما فاذن له فدخل فامره نجم الدين بالجلوس فجلس وتكاد عيناه تنطقان بما في خاطره فقال له صلاح الدين « ما وراءك يا ضياء الدين »

قال « جئت مولاي بامر هام »

Marfat.com

قال «كل ما تأتي به هام نافع . اني لا انسى بلاءك في مصلحتنا. قل ما بدا لك »

فاخذ يقص عليه ما دار بينه وبين ابي الحسن من اوله الى اخره والاهتمام ظاهر في عينيه . فلما فرغ من كلامه ابرقت عينا صلاح الدين ونظر الى ابيه كانه يستشيره في الامر . وكان نجم الدين يسمع كلام الهكاري ويمحصه ويزنه ويتدبره . فلما رأى صلاح الدين ينظر اليه قال « انه رأي جميل لكنه لا يزال فطيراً لاسيما والعاضد لا يزال حياً فاذا مات نظرنا في الامر — بارك الله في همتك يا ابا محمد » وسكت

فعلم الهكاري انه ينبغي له ان ينصرف ليخلو الاميران ويتباحثا فاستأذن وخرج

فلما خلا نجم الدين بابنه جعل يتفرس في عينيه كانه يطلب اليه ان يقول ما في خاطره فقال صلاح الدين « ما رأي والدي بما سمعه ؟ »

قال « انما اسألك عن رأيك . . »

قال « اني ارى فرصة لا ينبغي ضياعها . لا انكر انها خيانة من ابي الحسن هذا لكنها تفيدنا . واذا وليناه الخلافة بامرنا زاد نفوذنا وكان آلة في يدنا . . »

فابتسم نجم الدين ابتسام استخفاف وقال « انك يا يوسف رجل حرب ورأي . ولكنك لا تزال في حاجة الى الدربة والحيلة ... استفدنا من وشاية هذا الرجل ان القوم اذا مات خليفتهم تضعضعوا واختلفوا فيما بينهم وهي فرصة لقطع تلك الخلافة من جذرها . لا نبايع هذا ولا غيره . وانما نقبض على القصور ونحبس اهلها الذكور اصحاب الحق في الخلافة حتى يبيدوا . وقد خطبنا للخليفة العباسي منذ مدة ولا بد من الشدة والحزم فينتهي الامر . اليس ذلك خيراً من ان نبايع خليفة آخر ونعود الى التعب من اوله ؟ »

فاعجب صلاح الدين برأي ابيه ورأى الصواب فيه وخجل لما فاته ادراكه من الامر ولم يسعه الا الاصغاء والاذعان وقال « بورك فيك يا ابتاه من حكيم حازم »

فقال « ولا يكفي ذلك وانما يجب ان نتأهب من الآن ونجعل الجند على استعداد للهجوم على القصور حالما يلفظ ذلك الخليفة السيئ الحظ نفسه الاخير .. واتقدم اليك ان تكتم ما اقوله لك الآن عن كل احد حتى يأتي وقته فننفذه . واحذر ان تفعل كما فعلت بالامس فتكشف سرك في جلسة علنية . فقد قيل استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان »

ثنى صلاح الدين راسه اعجاباً وطاعة وهمّ بتقبيل يد والده اعترافاً باقتداره فاجتذب نجم الدين يده وقال « ارجو ان تستفيد من قولي يا بني انك ستكون سلطانا

Marfat.com

عظيماً فاعمد الى التؤدة والحزم واذكر وصية ابيك »

اما ابو الحسن فخرج من عند الهكاري وقد امتلأ صدره املاً وتحقق لديه الفوز بالمكيدة وسار توًّا الى دار الخليفة وهو يتنسم خبر العاضد في اثناء الطريق . فعلم انه في اشد حالات المرض فايقن انه مائت في ذلك الليل فاعمل فكرته في الوصول الى غرضه. وقد توهم فوزه بالخلافة وبقي القبض على سيدة الملك فاظهر اهتمامه بمرض الخليفة وسأل عن الجليس الشريف فقيل له انه في غرفة الخليفة لا يأذن بخروجه والاطباء وقوف بين يديه يبدلون الدواء بالدواء بلا فائدة . فاحتال ابو الحسن في الوصول الى الشيخ السديد طبيب الخليفة فاستفهمه عن حقيقة حال العاضد فاجابه « انه يكاد يكون في حال الاحتضار » فبكى وبالغ في البكاء حتى اشفق الطبيب عليه واخذ يخفف عنه فخرج توًّا الى قصر النساء وقد مالت الشمس الى الاصيل وطلب ان يرى بهاء الدين قراقوش . فقيل له انه خرج لمقابلة السلطان صلاح الدين فجلس ابو الحسن في غرفة الاستقبال بباب القصر ينتظر رجوعه

وبعد قليل عاد قراقوش وعلى وجهه علامات الاهتمام . وكان ابو الحسن يتوقع أن يسمع منه ترحاباً بعد رجوعه من عند صلاح الدين لاعتقاده بان السلطان لا بد من ان يكون قد خاطبه بامره بعد ما كان من تدبيره مع الهكاري . فلما رأى بهاء الدين مقبلاً على فرسه تصدى له بالباب وهو يبتسم فلم يكترث له قراقوش واظهر انه لم يره فخاطبه ابو الحسن قائلاً « مرحباً بالاستاذ كيف فارقت السلطان ؟ »

فالتفت اليه بهاء الدين كانه رآه لاول مرة وقال « انت هنا يا ابا الحسن ؟ . »

قال « انا هنا في انتظارك منذ ساعة .. كيف حال مولانا الامام يا ترى الآن ؟ »

قال بهاء الدين وهو يقعد على مقعد في تلك الغرفة « انه في حال المرض الشديد شفاه الله » ولم يدع ابا الحسن للقعود كالعادة

فقعد ابو الحسن من تلقاء نفسه واخذ يظهر الاسف على حال العاضد ويفرك يديه ويعصر عينيه ويهز راسه وهو مطرق ثم قال « هل انت متأكد انه شديد المرض؟ »

قال « هكذا قيل لي الساعة . . شفاه الله .. انه كان رضي الخلق »

فبادر الى الجواب باهتمام وقال « صدقت يا استاذ ان الامام كان من احسن اهلنا خلقاً واطيبهم قلباً ولذلك . . . » وتنحنح وهز رأسه كانه يحاول كتمان امر خطر له ثم التفت الى قراقوش وقال « لا بد انك لحظت بدقة نظرك يا استاذ ماذا كانت نتيجة طبيب قلبه وتساهله .. وان لم تر ذلك رأي العين .. اما انا فقد رأيته ... على ان الامر

Marfat.com

الآن اعظم مما تعامه وينبغي لنا ملافاة الخطر قبل وقوعه ... انا اعلم انك ساهر متيقظ لا تحتاج الى تنبيه .. لكنني استميحك عذراً اذا رأيت فيَّ قلقاً فاني اضن بسمعة اهلي ان يلحقها ما يشوهها . وقد علمتَ ما كان بالامس من امر ذلك الغريب الذي دخل هذا القصر وخرج منه ولم نتمكن من القبض عليه لان اهل هذا القصر ارشدوه الى طريق الفرار... لا اقول ذلك طعناً باحد لاني اعتقد ذلك من عواقب الطيش عن جهل لا عن سوء نية . فسيدة الملك هذا حالها واخوها حيٌّ فاذا اصابه سوء لا سمح الله كيف يكون حالها . . » وتنحنح وتوجه بكليته نحو قراقوش وهو يظهر الثقة فيه والاعتماد عليه وقال « ولاينبغي لي ان اخفي عنك امراً اخفيته عن سائر الناس ولم يطلع عليه غير صديقي وصديقك الفقيه ضياء الدين الهكاري . اعني ان الامام العاضد بايعني بالخلافة بعده وخطبتُ اخته هذه وهي لا تعلم بعد . وانما يعلم ذلك الجليس الشريف ويعلمه ايضاً صديقي ضياء الدين والسلطان صلاح الدين وكان لي معه حديث طويل بهذا الشأن في هذا الصباح لا ادري اذا كان قد اطلعك عليه . . » وصبر ليرى ما يبدو من قراقوش فاذا هو لا يزال مصغياً لا يبدي حراكاً

فعاد ابو الحسن الى اتمام حديثه فقال «واذا كان لم يطلعك عليه لا بد انه مطلعك قريباً .. وانما جئتك الآن استعينك في صيانة عرضي وعرض الامام شفاه الله ريثما يستقر الامر في نصابه ويشرف عليه السلطان صلاح الدين حفظه الله .. هذا امر قد تم الاتفاق عليه بيني وبينه ... وانما اطلب اليك ان تحتفظ بهذا القصر وانت فاعلم ذلك . لكنني اخاف ان يتمكن الاعداء من دخوله سرًّا فارى ان تأمر بنقل اخته الخليفة منه الى قصر آخر ليس فيه سراديب ... واظن دار الضيافة افضل القصور لهذا الغرض » قال ذلك وهو يتفرس في عيني بهاء الدين وينتظر رأيه في ذلك

الفصل الخامس والثلاثون

الفرار

اما بهاء الدين فاظهر عدم الاهتمام وقال « لا ارى باعثاً على هذا القلق يا ابا الحسن والخليفة لا يزال حياً »

قال « انما العاقل من فكر في الامر قبل وقوعه اما اذا وقع فلا فائدة من التقلب

Marfat.com

اسمع .. اسمع .. اليس هذا صياح النساء في القصر؟. يظهر ان العاضد فارق الحياة .. مسكين » واخذ يفرك كفيه ويبكي »

أما بهاء الدين فحالما سمع الصياح وقف والاهتمام باد في محياه .. واشار الى بعض الغلمان ان يمضي في مهمة . أومأ الى ابي الحسن ان يمكث هناك ريثما يعود وان لا يخرج قبل رجوعه . وتحول قراقوش الى مكان آخر في القصر وقد علا الضجيج فتحقق ما بو الحسن موت الخليفة فاصبح همه القبض على سيدة الملك . وأسف لذهاب قراقوش ولم يعلم سبب ذهابه . فقعد في تلك الغرفة وهو مطرق يفكر كانه على الجمر . فسمع قرقعة اللجم وصهيل الخيل فاطل من النافذة فرأى فرساناً يسرعون نحو القصر كانهم يحيطون به من كل ناحية فعجب لذلك . ثم شعر بيد تهز كتفه برعشة فالتفت فاذا بالغلام الذي كان قد اصطنعه وجعله جاسوساً على سيدة الملك في ذلك القصر واقفاً يرتعد والبغتة ظاهرة في وجهه فصاح به « جوهر ! ما وراءك ؟ »

فقال « هلم يا سيدي . . انج بنفسك ؟ »

قال « الى اين ؟. لا .. اني باق حتى ارى هذه اللعينة وآخذها .. ألم ترها ؟ »

قال « انج بنفسك يا سيدي . . انج . . ان الامر على غير ما تظن . . اخرج من هذه الغرفة قبل ان يتم النطاق حول القصر . . اخرج » قال ذلك وجذبه بكمه واغتنم اشتغال الناس بالصياح والارتباك وخرج به من الغرفة . ولم يصدق انه صار خارج القصر وهو يلهث من الخوف . فقال ابو الحسن وهو يطاوعه في المسير « الى اين انت ذاهب بي ؟ »

فاجابه وهو يشير اليه ان يتبعه « تعال يا سيدي . . وسأقص عليك الخبر انج بنفسك . . »

وما زالا يمشيان حتى بعدا عن قصور الخلفاء ودخلا بيتاً من بيوت العامة لا شيء عليه شبهة . وهو منزل لذلك الغلام كان يختبىء فيه عند الحاجة . فلما دخلا البيت أقفل الغلام الباب وقعد وقد امتقع لونه وابو الحسن يستغرب ذلك منه ولا يزال يعتقد ان الغلام مخطىء بتوهمه اعتماداً على ما دار بينه وبين الهكاري

فلما استقر بهما الجلوس قال ابو الحسن « قل الآن ما الذي حملك على هذا الفرار ؟ . »

قال « لو لم افر بك لكنت الآن في السجن »

فضحك ابو الحسن بتهكم وقال « في السجن ؟ هه هه ... هذا امر بعيد . ولا

Marfat.com

الومك على هذا الخوف لانك لا تعلم ما دار بيني وبين القوم في هذا الصباح . . »

قال « علمت كل شيء وعلمت ان تدبيرك لم يفلح وان قراقوش اللعين لما كنت انت في انتظاره بالقصر كان هو عند صلاح الدين ذهب اليه بامر مستعجل فامره ان يحيط قصور الخلفاء بالجند . وحالما يموت الخليفة يقبض على كل ما في القصور من النساء والاولاد والرجال والغلمان وكل شيء . . »

سمع ابو الحسن هذا القول ولم يصدقه فقال « كيف عرفت ذلك ؟ ومن اطلعك على هذا السر يا جاهل ... لا يبعد ان يكون صلاح الدين قد أمر هذا الطواشي ان يحتفظ بالقصور وما فيها وهو انما امره بذلك لئلا يتعدى عليها احد من دعاة الامامة سواي . ولا الومك على توهمك لانك لا تعلم ما تم الاتفاق عليه بيني وبينهم مما ساطلعك عليه في وقت آخر »

فقال « قلت لك يا سيدي اني مطاع على كل شيء .. وما انا جاهل كما تقول بل انا عاقل ساهر على مصلحة مولاي الشريف .. وقد تحققت ان صلاح الدين امر طواشيه هذا ان يقبض على من في القصر وان يبحث عنك بنوع خاص .. واذا كنت لا تصدق ارجع الى القصر وانظر ماذا تكون النتيجة »

فطرق ابو الحسن وهو يرتعد من الغيظ واخذ يعبث بلحيته وهو يراجع ما سمعه ويستغربه والغلام ساكت لا يبدي حراكاً . ثم التفت ابو الحسن اليه وقال « يا جوهر . . . هل انت واثق مما تقول ؟ »

قال « اني واثق تمام الثقة وان شئت ان تحقق قولي اخرج متنكراً وانظر الجند يبحثون عن الشريف ابي الحسن كما يبحثون عن سائر ابناء الخلفاء في قصر النساء . ولا اضمن انهم لا يكشفون امرنا ويقبضون علينا ولو تنكرنا »

فلما تحقق ابو الحسن صدق غلامه وايقن بفشله حمي غضبه حتى اصبح صدره يرتفع وينخفض وهو يغلي كالمرجل . ونسي موقفه مع غلامه فاخذ يزمجر كالاسد ثم صار يرغي كالثعلب ويتظاهر بالتجلد والتفت الى الغلام وقال « مالنا ولهم دعنا منهم . لا اعلم السبب في نقمتهم علي ايضاً .. اني بذلت الجهد في خدمتهم .. من يا ترى سيخلف العاضد على كرسي الامامة ؟ »

فقال الغلام « لا يظهر انهم سيولون احداً مكانه لانهم ينوون القبض على كل من بقي من اصحاب هذا النسب ولذلك خفت عليك »

فعاد الى الاطراق واخذ في تدبير حيلة للانتقام لان فشله كان مزدوجاً ـ ذهب

Marfat.com

آماله في الخلافة وابعد ما بينه وبين سيدة الملك . لكنه لم يشك انها ستنتقم عليه متى اكرهها صلاح الدين على ان تكون له

اما سيدة الملك فتركناها مساء الامس بعد ذهاب عماد الدين من عندها وقد ذهبت الى الفراش . ولكن النوم لم يزرها وتراكمت عليها الهواجس . وبكرت في الصباح للاستفهام عن اخيها فقيل لها انه مريض لكن الاطباء عنده ولا تقدران تراه . فصبرت وهي تتوقع الاذن في رؤيته فلم تستطع ذلك الا بعد الظهر . فاذن لها وكان احسن حالا مما تظن فاطمأن خاطرها عليه وجعلت تخفف عنه وتطمئنه . وتذكرت مقاومتها له في ذينك اليومين بشأن خطبتها وتعب ضميرها لئلا يكون لمرضه علاقة بتلك المقاومة فندمت على ذلك

وبعد قليل انبئ العاضد بمجيء الطبيب والجليس فاشار الى سيدة الملك بالذهاب وطمأنها انه في خير . فعادت الى غرفتها وهي في قلق على اخيها ولم يطمئن خاطرها عليه . واتتها ياقوتة وسألتها فبكت واغرقت في البكاء رغم ارادتها فظنت ياقوتة ان الخليفة مات فصاحت صياح الندب فسمعتها سائر الجواري فاقتدين بها فعلت الضوضاء وابو الحسن عند قراقوش فظنوا الخليفة مات كما تقدم وهو لم يمت

الفصل السادس والثلاثون

مقابلة هامة

وكان قراقوش قد استقدمه صلاح الدين في ضحى ذلك اليوم على اثر ما جاءه به الهكاري من ابي الحسن وانبأه بما علموه عن داخلية القوم . واوصاه ان يكون على حذر وان يجعل الجند قريباً من القصور فاذا علم بوفاة العاضد احاط القصور بالجند وبعث اليه بخبر ذلك . ولا يأذن لاحد من اهلها بالخروج لاية علة كانت . ونبهه بنوع خاص الى ابي الحسن والقبض عليه . فجاء قراقوش فرأى ابا الحسن عنده فاستبقاه حتى يرى ما يكون . فلما سمع الصياح داخل القصر وظن الخليفة مات خرج لتدريب الفرسان وامر ابا الحسن بالبقاء ريثما يعود . فلما عاد لم يجده هناك فبعث في طلبه فلم يقف على خبره فاسف لنجاته وبث العيون للقبض عليه واخذ يهتم بارسال الخبر الى صلاح الدين بوفاة العاضد . ثم علم ان الخليفة لا يزال في قيد الحياة فسرّ لانه لم يتعجل في

Marfat.com

ارسال خبر الوفاة لصلاح الدين لئلا يأتي ويجد الخبر قد ذبح فيوبخه . على انه ابقى الجند حول القصر ليرى ما يكون . فلما دنت الشمس من المغيب جاءه احد الغلمان يقول « ان مولانا السلطان قادم بموكبه »

نخف قراقوش للقائه . فرآه تحول نحو قصر الذهب حيث يقيم الخليفة فاستغرب ذلك ومكث في مكانه لا يدري سبب مجيء السلطان في تلك الساعة . واذا بصديقه الهكاري يمشي نحوه فرحب به فسأله عن سبب قدوم السلطان فقال « لان العاضد طلب أن يراه »(١)

فاستغرب قوله وصاح فيه « الخليفة طلب ان يرى مولانا السلطان ؟ »

قال « وما هو مكان الغرابة ؟ »

قال « انت ادرى مني بمكانها . . وسنرى السبب بعد قليل »

فدخل قراقوش وادخل الهكاري معه وجلسا ودار بينهما الحديث عن مقتل صلاح الدين ودهاء نجم الدين ونحو ذلك

اما سيدة الملك فعلمت بعد قليل ان بكاءها وبكاء حاضنتها اشاعا خبر وفاة الخليفة فتشاءمت وسكتت . ولكنها انزوت في غرفتها لا تريد ان ترى احداً وقلبها يشتعل قلقاً على حياة اخيها فضلاً عن متاعبها الاخرى . ولما غربت الشمس انقبضت نفسها وهي في انواع من الشدة كل منها يقبض النفس ويبعث على القلق . لكن ساعة الغروب زادتها انقباضاً واصبحت شديدة الرغبة في رؤية اخيها . واذا بالحاضنة اتتها مسرعة وقالت « ان سيدي امير المؤمنين يطلب ان يراك »

فاجفلت لكنها فرحت واسرعت في الذهاب . والتفت بمطرفها وخمارها ومشت في الدهليز والحاضنة تسير بين يديها . فسمعت ضوضاء ولغطاً من جوانب الدهليز والنور ضعيف لم يساعدها على تبين الوجوه . لكنها استأنست باصوات بعض اهلها فاستفهمت الحاضنة عما سمعته فقالت « انك تسمعين اصوات ابناء اخيك واخوتك . . »

فاجفلت وتراجعت . فقالت لها ياقوتة « ما بالك يا سيدتي »

فقالت « ما الذي جاء بهم الى هنا ؟ ماذا جرى ؟ هل من بأس على اخي »

قالت « انه بعث في استقدامهم كما بعث في استقدامك . . »

فمشت وركبتاها ترتعدان وقلبها يخفق تطلعاً لما عساه ان يكون من حال اخيها لانه لا يبعث في طلب اهله الا وهو في اشد حالات المرض . ولما علم اولاد العاضد بقدومها وسعوا لها واقترب اكبرهم داود ولي العهد من عمته وقبل يدها فقبلته وهي تتماسك

(٨) كتاب الروضتين ١٩٤ ج ١

Marfat.com

البكاء تشجيعاً له . وصلت الى باب الغرفة وركبتاها ترتعدان واذناها مصغيتان لعلها تسمع كلاماً تطمئن له فسمعت صوتاً استغربته لا تذكر انها سمعته قبلاً . فالتفت بالخمار ووسع لها الحرسي وازاح الستار عن الباب والغرفة قد اضيئت فيها الشموع فارسلت نظرة الى الداخل فرأت اخاها مستلقياً على السرير وعلى وجهه دلائل الضعف الشديد . لكنه لما وقع بصره عليها ابتسم وسبقته العبرات فترامت سيدة الملك عليه ولم تلتفت الى احد من الحضور وأخذت تقبله وتقول « لا بأس عليك يا اخي ويا سيدي ... لا باس عليك »

فقبلها هو ولم يجب لكنها احست بدموعه تتساقط على خدها فتجلدت ونهضت وهي تقول « لا باس عليك يا سيدي انك في عافية الحمد لله » والتفتت الى حولها فرأت الجليس الشريف جاثياً بجانب فراش الامام . ورجلاً قاعداً على وسادة لم تكد تفرس فيه حتى ارتعدت فرائصها وتذكرت انها رأت وجهه في بعض المواقف الرسمية من خلال النوافذ وهو صلاح الدين . فاوشكت ان ترتبك بامرها ويظهر الارتباك فيها فتجلدت ولم تشك أن صلاح الدين جاء ليخطبها

وكان سائر ابناء الخليفة قد دخلوا في اثرها الى الغرفة فاشار العاضد اليهم جميعاً ان يتقدموا فتقدموا فقبلهم واحداً واحداً وهو يبكي ومنظره يفتت الاكباد . ولم يبق احد من الحضور الا بكى حتى صلاح الدين . أما العاضد فاشار الى ابنائه بالجلوس واومأ الى سيدة الملك ان تقعد على فراشه بالقرب منه . فجلست وهي تحاذران يظهر وجهها لصلاح الدين

الفصل السابع والثلاثون

الوصاية

جلسوا والسكوت مستول على المكان مدة ثم تكلم العاضد ووجه خطابه الى سيدة الملك قائلاً بصوت ضعيف مضطرب متقطع « يا اختاه انت تعرفين منزلتك عندي ... انك اختي وصديقتي ومرشدتي ... كم استشرتك وكم عولت على رأيك .. والان وقد دنت الساعة وشعرت باقتراب الاجل والذهاب الى حيث القى وجه ربي ... احببت ان اتوثق من حالك وحال ابنائي بعدي ... (وتوقف عن الكلام ريثما

يستريح والجميع مطرقون ثم قال) وقد علمت بالاختبار... ان ليس حولي من رجالي أو اهلي من اثق به واعول عليه بشأنكم . . . وانتُ تعلمين ما كان في خاطري على السلطان يوسف صلاح الدين (واشار بيده نحوه) وقد طالما شكوت لك من معاملته .. اعترف بذلك وانا في آخر ساعة من ساعات الدنيا واول ساعة من ساعات الاخرة ... اعترف اني شكوت من معاملته .. لكنني لا اجد الان من اثق بقوله واتحقق انه فاعل ما يقوله سواه . لاني محاط باقوام قوّالين غير فعالين . . يتنافسون في تملقي ويتسابقون الى ابتزاز اموالي او نيل المراتب بالحيل والدسائس ... فبعثت الى السلطان وكلفته مشقة الحضور لاوصيه بكم خيراً» واشار بانامله ان يمهلوه ريثما يستريح وسكت وهو يلهث

فاطرقوا وهم يمسكون انفاسهم ويكتمون ما يتردد في آماقهم من الدمع لا يلتفت احدهم الى الاخر تهيباً من منظر الخليفة وتطلعاً لما سيقوله . ثم عاد العاضد الى الكلام ووجه خطابه الى صلاح الدين قائلاً « هـذه يا صديقي اختي سيدة الملك التي بعثت تخطبها ... وهؤلاء ابنائي وكبيرهم داود هذا ... اني تارك امرهم اليك خوفاً من ان يصيبهم مكروه بعدي . واشهد عليك الله ان تأخذ بناصرهم . . فهل تعدني انك فاعل ما اقول ؟ »

فلما سمعت سيدة الملك ذكر الخطبة في اثناء كلام اخيها اختلج قلبها خوفاً ويأساً لئلا تكون اذا مات اخوها رهينة أمر صلاح الدين ولاسيما بعد هذه التوصية. ثم سمعت صلاح الدين يجيب اخاها قائلاً « انت يا امير المؤمنين في خير وعافية باذن الله ولا بأس عليك يدعو الى الاهتمام بالتوصية ... فانك مبلٌّ من هذا المرض قريباً ان شاء الله .. اما وقد ذكرت امر الوصاية فاعلم يا سيدي ان الخادم (يعني نفسه) قائم بما أوصيت به وليكن المولى اعزه الله على ثقة من هذا الوعد ان اهلك هؤلاء لا يصيبهم سوء ما دمت في قيد الحياة ولك علي عهد الله بذلك »

فلم تجد سيدة الملك ذكراً لها في هذا الجواب فايقنت انها واقعة في ما تتخوفه فعظم عليها الامر فضلاً عما هي فيه من القلق على حياة اخيها فاخذت بالبكاء رغم ارادتها . وارادت الخروج تخفيفاً عن اخيها فمد يده وقبض على يدها ليجاسها فاحست بارتعاش يده فاقشعر بدنها وقعدت وهي تنظر اليه فرأته ينظر الى صلاح الدين وعيناه تلمعان والدمع يغشاهما. وكانه اراد الكلام فامتنع عليه فاشار باصبعه الى اخته . ففهم صلاح الدين انه يوصيه بها فاجابه حالاً « كن مطمئناً على سيدة الملك انها اختك ونعم الاخت هي .. لكنها ايضاً اختي بعهد الله ... وكفى »

Marfat.com

فلما سمعت تصريحه انها اخته سرّي عنها ورغم ما هي فيه من اليأس والحزن اوشكت ان تبتسم لاعتقادها ان صلاح الدين لم يدعها اخته الا وقد عدل عن التزوّج بها وهوغاية ما تريده . لا سيما وقد ضمن حمايتها فاصبحت في مأمن من تعدي ابي الحسن أو غيره . ولم يكد يطمئن خاطرها من هذا الوجه وقد شغلت عن الخطر الملم باخيها فاذا هو يسعل وينتفض في فراشه من شدة الرعشة . وهي نوبة عصبية توالت عليه في ذينك اليومين . فنهض الجليس واسرع يدعو الطبيب الشيخ السديد من غرفة اخرى. فدخل الطبيب واشار الى الحضور ان ينصرفوا من المكان ليعالج المريض بما يراه فنهضوا جميعاً . ومشى اولاً صلاح الدين مشية الاسد وسيدة الملك تراقبه واحست من تلك الساعة انها تحبه حب الاعجاب وهي من طبعها تعجب برجال المروءة والنجدة وهو ما بعثها على حب عماد الدين كما علمت . فاحست بارتياح الى صلاح الدين واطمئنان الى رؤيته . ثم اومأ اليها الجليس ان تنصرف الى قصرها وكذلك سائر الحضور من اهلها

الفصل الثامن والثلاثون
ياقوتة

فانصرفوا وتزودت سيدة الملك بنظرة من اخيها وخرجت وقلبها مطمئن وقد نسيت حزنها على حاله او شغلت عنه . وكانت حاضنتها تنتظرها في الدهليز وتتوقع ان تراها باكية وخصوصاً لما علمت بوجود صلاح الدين هناك فاخذت تتأهب للتخفيف عنها .. فاذا هي مشرقة الوجه رغم ما يجول في عينيها من الدمع ورغم ما ظهر في اجفانها من الذبول فقبضت على يدها ومشت معها فعلمت من خطواتها وحركاتها انها فرحة . وما صدقت انها وصلت الى قصرها ودخلت غرفتها حتى ابتدرتها قائلة « كيف سيدي امير المؤمنين ؟ ارجو ان يكون في صحة »

فقالت وهي تنزع الخمار عن رأسها « انه في غاية الضعف وقد داهمته الان نوبة شديدة اوجبت امر الطبيب باخراجنا من عنده ليعالجه . . . وكان قبلها ضعيفاً يقطع الكلام تقطيعاً . . »

فقالت « شفاه الله . . من كان عنده وانت هناك ؟ » قالت ذلك وهي تراقب ما يظهر منها

Marfat.com

قالت « كان هناك السلطان صلاح الدين الملك الشهم .. » وسكتت

فقالت ياقوتة « لماذا سكتِّ وكيف عرفت انه شهم؟ يظهر انك رفضته قبلاً لانك لم تكوني تعرفينه جيداً أما الان عند المشاهدة فقد تبين لك انه يستحق حبك » واظهرت المداعبة ثم قالت « لكنني لم اعلم سبب حضوره عند امير المؤمنين في هذا اليوم العله جاء لاتمام طلبه وعقد الخطبة ؟ » قالت ذلك وهي تساعدها في نزع المطرف عن كتفيها

قالت سيدة الملك وهي تنظر في المرأة لتتحقق حال وجهها « ان اخي بعث اليه »

قالت « امير المؤمنين بعث اليه ؟ ولماذا ؟ . »

فتذكرت الخطر على حياة اخيها فانقبضت نفسها وقالت « بعث اليه ليوصيه بنا خيراً . . »

فبغتت ياقوتة من هذه المفاجأة وقالت « يوصيه بكم خيراً ! من تعنين ؟ »

قالت « اعني انا وابناء اخي واخوتي .. لان اخي شفاه الله ايقن انه لا ينقه من هذا المرض واعترف انه لا يجد من رجاله من يثق به ليوصيه بنا غير صلاح الدين .. فبعث اليه والينا واوصاه بنا . . »

فعادت ياقوتة الى المداعبة لتشغل سيدتها عن الحزن وقالت « طبعاً ان صلاح الدين وافق امير المؤمنين على طلبه لانه مطالب بهذه الخدمة بواجب المصاهرة » وابتسمت وعيناها تراعيان عيني سيدة الملك لترى ما تدلان عليه

فابتسمت سيدة الملك والدمع يتلألأ في عينيها وقالت « بل هو قال انه يفعل ذلك بحكم الاخوَّة وليس المصاهرة »

فاستغربت هذا التعبير وقالت « بحكم الاخوَّة ؟ وأي اخوة يا سيدتي »

قالت « لما اوصاه اخي بي فالكي يؤكد له العمل بوصيته قال له « كن مطمئناً على سيدة الملك انها اختك وهي ايضاً اختي بعهد الله وكفى »

فلم تتمالك ياقوتة عند ذلك من ضم سيدة الملك الى صدرها واخذت تقبلها وتقول « ان مصيبتنا بمرض سيدي امير المؤمنين كبيرة واذا اصابه سوء لا سمح الله فان المصيبة تكونُ اعظم كثيراً . ولكن في ظلمات هذه المصائب المدلهمة نوراً قد انار قلبي واخرجني من ديجور اليأس لان اكبر همّ كان عليَّ من جهتك انما هو طلب صلاح الدين خطبتك وانت لا تريدينه لانك عالقة القلب بعماد الدين ـ وانا اعلم سلطة صلاح الدين وانه اذا اراد أمراً لا يقدر احد على رده . وقد قلت الآن انه تخلى عن الخطبة وتعهد بحمايتك كاخت أخته ..فاطمئني ياسيدتي ولا يهمك سعي الساعين او وشاية الواشين ..

Marfat.com

فعلمت سيدة الملك انها تعني أبا الخير فاجابتها بعينيها وكل جوارحها موافقة على قولها لكنها انتبهت فجأة الى حال اخيها فعادت الى الانقباض ولطمت كفيها وقالت « ويلاه . . ان اخي في حال اليأس من الحياة . . ماذا اعمل . . كيف يصير امرنا اذا مات . . » وغصت بريقها وعادت الى البكاء واخذت ياقوتة تخفف عنها

قضت معظم ذلك الليل بالقلق ولم تفق الا صباحاً على اصوات النعاة . ولم يقع خبر موت اخيها وقعاً غريباً عندها لكن وقعه كان شديداً . ولم يمض يسير حتى تعالى الصياح في القصور واجتمع الوزراء ورجال الدولة والكتاب وغيرهم وغص قصر الذهب وسائر القصور بالناس . واراد اهل الخليفة اقامة مأتم يليق بالخلفاء وهم رجال الدولة ان يبايعوا لداود ولي العهد . واذا بالقصور قد احاط بها رجال صلاح الدين . ثم جاء بهاء الدين قواقوش الى الجليس الشريف وقال له « ان السلطان يتقدم اليكم ان تجعلوا المأتم مختصراً خوفاً من وقوع القلاقل ومن مات فقد مات ولا يجدي الصياح والعويل نفعاً »

فلم يسع القوم الا الاصغاء والرضوخ وخصوصاً بعد ما شاهدوه من استقدام الخليفة لصلاح الدين بالامس وان لم يعلموا تفصيل ما دار بينهما . وانما دلهم استقدامه على رفيع منزلته عنده . ومهما يكن من الامر فالقوة غالبة وجند صلاح الدين قابض على المدينة بيد من حديد . فاذعن القوم الى امره

الفصل التاسع والثلاثون

قراقوش

اما سيدة الملك فبلغها التشديد بمنع اهل ذلك القصر من الخروج ورأت الجند محدقاً به من كل ناحية فاكتفت بالبكاء وهي في غرفتها فهدبت اخاها وبكته والحاضنة بين يديها تبكي معها

وهما في ذلك سمعتا دبدبة في باب القصر فخافت سيدة الملك فنهضت ياقوتة وهي تقول « لا تخافي يا سيدتي بعد ان سماك صلاح الدين اخته » ولم تصل الى باب الغرفة حتى سمعت قارعاً يقرعه بلطف فسري عنها وفتحته فرأت قراقوش واقفاً باحترام وهو يقول « هل مولاتنا سيدة الملك هنا ؟ »

قالت « نعم ماذا تريد منها ؟ انها في اشد حالات الحزن »

Marfat.com

قال « اريد ان اعزيها واطمئنها واطلب اليها ان لا تهتم بما قد تراه من دخول بعض الناس الى هذا القصر او خروجهم منه . واحب ان اسألها مسألة »

فصاحت سيدة الملك من الداخل « تفضل يا استاذ ماذا تريد ؟ »

فدخل قراقوش وهو ينظر اليها نظر الاستعطاف فالتفتت اليه وقالت « ما وراءك الآن ؟ ماذا تريد .. ها ان امير المؤمنين قد مات .. فليسكن روعك وروع اصحابك .. »

وغصت بريقها

فجثا قراقوش بين يديها قائلاً « ان موت امير المؤمنين قد ساءني يا سيدتي لكنه جرى بقضاء الله ولا مرد لقضائه . وانما جئت الآن لاخبرك ان مولاي السلطان امرني ان اقبض على ما في هذه القصور من الاموال وخصوصاً ما في هذا القصر من النساء وهن كثيرات كما تعلمين . وانما استثنى منهن سيدتي اخت امير المؤمنين ومن شاءت ان يصحبها من اهل هذا القصر من غير اهلها و . . »

فقطعت كلامه قائلة « وماذا تعملون باهلي . . اين هم ؟ »

قال « لا بأس عليهم . . لان المولى الراحل رحمه الله قد اوصى السلطان بهم خيراً وهو عازم على نقلهم من هذا القصر الى قصر آخر يكونون فيه تحت رعايته لا بأس عليهم . وخصوصاً مولاتي سيدة الملك فمن تريدين ان يخرج معك من الاتباع او الخدم او ان تحمليه من الاثاث والآنية او غير ذلك ؟ »

فاطرقت وقد كبر عليها الخروج من ذلك القصر . ومع اطمئنانها بما ستناله من الرعاية عند صلاح الدين لم تتمالك عن النفور من هذا الامر وقالت « تخرجوننا من قصورنا .. وماذا تفعلون بمن فيها من النساء والرجال والاطفال فانهم يعدون بالآلاف »

قال « يا سيدتي ان مولاي صلاح الدين سيعمل بما لا يمس كرامة احد . فمن كانت من الجواري ذات بعل اطلقها مع بعلها ومن كانت حرة ولا بعل لها اطلق سراحها واما الجواري غير الحرائر فيهبهن لبعض رجاله . اما اهل الخليفة فانهم سيقيمون نساء ورجالاً في غاية الاكرام والحفاوة تحت عنايته ويفرق فيهم الاعطية والالبسة والاقوات بحيث لا ينقصهم شيء كانهم في قصورهم في حياة الخليفة رحمه الله . ولا سيما سيدتي فانها ستنال كل رعاية هي ومن معها . . »

فقطعت كلامه قائلة « وماذا تفعلون بوليّ العهد داود ألم يبايعوه . ؟ »

فبلع ريقه وقال « لا اظنهم يبايعون احداً فان السلطان نور الدين مولانا الاكبر قد امر ان نبايع للمستضيء بالله العباسي .. ولا يكون على الارض خليفتان . على اني

Marfat.com

ارى الخلافة الا تعباً لصاحبها وخطراً عليه ولا فائدة منها . . استميح سيدتي عذراً في اختصار الحديث لاني مضطر للاشتغال بتنفيذ اوامر مولاي السلطان بالقبض على ما في هذه القصور كما قلت لك . فاخبريني ما الذي تريدين ان احتفظ به لك .. » قال ذلك ونهض واظهر انه يريد الخروج فقالت « اريد ان تصحبني هذه الحاضنة وهي تخبرك بما اريد ان آخذه من الاثاث او الثياب . . » وحوّلت وجهها عنه

فتمتمت ياقوتة كلامها قائلة « دعوا هذه الغرفة والتي الى جانبها لا يمسهما احد وانا اهيئ فيهما ما يجب نقله . . بارك الله فيك يا استاذ . . »

فتحول قراقوش وخرج فلما خلت ياقوتة بسيدة الملك قالت لها « الحمد لله ان صلاح الدين قائم بوعده .. رأيتك تدققين في السؤال وتستغربين عدم المبايعة لسيدي داود .. احمدي الله انهم لم يستخدموا السيف في فناء من بقي من اهل الخلافة كما فعل غيرهم في مثل هذه الحال . ألم يأمر ابو العباس السفاح بقتل كل من بقي من بني أمية حتى لا يبقى واحد منهم يطالب بالخلافة ؟ فلو امر صلاح الدين مثل هذا الامر من يقدر على رده . . أم تظنين ذلك المغرور ابا الحسن يرده . . لعنة الله عليه »

فلما سمعت ذكر ابي الحسن أحست براحة لانها نجت من حبائله في ظل صلاح الدين ونشطت للخروج فقالت « اعدي ما نحتاج اليه من اثمن المتاع واخفه . . » فقالت ذلك وتنهدت . فاخذت ياقوتة تهتم بذلك . وكان يومهم هذا من اعظم ايام الشدة لانهم في يوم الانتقال من دولة الى دولة

الفصل الاربعون

آخر الدولة

اما قراقوش فانه قبض على ما في تلك القصور من النساء وعرضهن على صلاح الدين فاختار منهن ما وجد كثرهن من الحرائر فاطلقهنّ . وجمع الباقيات فوهبهنّ وفرقهنّ في رجاله واخلى تلك القصور من الناس . واخذ كل ما صلح له ولاهله وامرائه والخواص من مماليكه واوليائه من الذخائر وغيرها . واخذوا من الجواهر والمصوغات ما لا يحصره وصف . ونكتفي بنقل عبارة مؤرخ الدولتين في تعداد ما استولوا عليه منها قال « واخلى دوره

Marfat.com

(دور العاضد) واغلق قصوره وسلط جنـ ـى الموجود وابطل الوزن والعد عن الموزون والمعدود واخذ كل ما صلح له ولا هله وامرائه ولخواص مماليكه واوليائه من اخائر الذخائر وزواهر الجواهر ونفائس الملابس ومحاسن العرائس وقلائد الفرائد والدرة اليتيمة والياقوتة العالية الغالية القيمة والمصوغات التبرية والمصنوعات العنبرية والاواني الفضية والصواني الصينية والمنسوجات المغربية والممزوجات الذهبية والمحوكات النضارية والكرائم واليتائم والعقود والتمائم والنقود والمنظوم والمنضود والمحلول والمشدود والمنعوت والمنحوت والدر والياقوت والحلى والوشي والعبير والحبير والوثير والنثير والعيني واللجيني والبسط والفرش ومالا يعد احصاءً ولا يحد استقصاءً فوقع فيها الفناء وكشف عنها الغطاء واسرف فيها العطاء واطلق البيع بعد ذلك في كل حدث وعتيق ولبيس وسحيق وبال واسمالٍ ورخيص وغالٍ وكل منقول ومحمول ومصوغ ومعمول واستمر البيع فيها عشر سنين وتنقلت البلاد بايدي المسافرين الواردين والصادرين » اه (١)

صلاح الدين الايوبي

اما اهل الخليفة فنقلهم صلاح الدين الى دار برجوان في الحارة المنسوبة اليه واختص سيدة الملك بالاكرام والحفاوة

(٦) كتاب الروضتين ١٩٤ ج ١

Marfat.com

وكانت مصر الى ذلك اليوم خلافة مستسر يدعى على منابرها لخليفتها الشيعي العاضد لدين الله . فامر صلاح الدين ان تتحول الخطبة للمستضيء بالله الخليفة العباسي كما كان نور الدين قد طلب منه على يد ابيه نجم الدين . وكان قد اعتذر له في التأجيل خوف الفتنة والواقع انه اجلها ليستعين بذلك على نور الدين اذا اراد ان يأخذ مصر منه بالقوة . فيأخذ هو جانب العاضد ويتقوى به وبالمصريين على دفع عسكر الشام . فلما تأكد ضعف العاضد وتحقق اشتغال نور الدين عن مناهضته عزم على اقامة الخطبة العباسية مظهراً بها الطاعة لنور الدين . فلم يجسر احد من العلماء ان يبدأ بذلك الا رجلاً اعجمياً اسمه الامير العالم تصدى للخطبة . فلما كان يوم الجمعة صعد المنبر ودعا للمستضيء العباسي فوافقه الناس ولم يظهروا معارضة فكتب بذلك الى سائر بلاد مصر . وكان هذا في أثناء اشتداد المرض على العاضد وتوفي ولم يعلم به . فاصبحت مصر بذلك تابعة لبغداد من حيث الخلافة من سنة ٥٦٧ هـ ومنعوا ابناء العاضد وسائر الرجال من اهله عن الزواج حتى لايعقبوا نسلاً يطالب بالخلافة

الفصل الحادي والاربعون

الهواجس

اما سيدة الملك فلما رأت نفسها في قصرها الجديد في دار برجوان اكبرت ذلك الانتقال . ولما بلغها تحوّل الدعوة للعباسيين تحققت ذهاب دولة العلويين فشق ذلك عليها كثيراً فضلاً عن وفاة اخيها . قضت اياماً وهي منزوية في غرفة من قصرها لاتكلم احداً الا ياقوتة تتردد اليها لتخفف عنها ومهما يكن من مشاغلها المتقدم ذكرها فان امرها مع عماد الدين كان غالباً عليها . وقد فارقته في تلك الليلة المهولة وهي بين الشك واليقين من امره . وكانت وهي في ابان احزانها تود ان تفاتحها ياقوتة بحديثه لعلها تسمع ما يقوي املها بلقائه وياقوتة لاتفعل ليس عن تهيب ولكنها كانت ترى اشتغال سيدتها بحب ذلك الشاب من قبيل العبث وتود ان تنساه وتتحوّل عنه . فلا ترى من الحكمة ان تفاتحها بذكره او ان تجعل ذكره من اسباب اطمئنانها وراحتها

على انها كانت قد استأذنت صلاح الدين في الخروج للتنزه في البساتين . ولم يكن

Marfat.com

يؤذن بذلك لسواها من اهل الخليفة. ولكن صلاح الدين كان كثير العناية بسيدة الملك والاحترام لارادتها قياماً بعهده لاخيها. وكان ذلك من اكبراسباب تعزيتها على مصائبها . على انه شغل عنها مدة بالحروب في الشام وتوفي في اثناء ذلك ابوه (سنة ٥٦٨ ه) وحدثت امور اخرى شغلته عنها لكنه كان يوصي بهاء الدين قراقوش بها

مضت مدة لم تسمع فيها شيئاً عن عماد الدين ولاهي تعرف مقره ولا مصيره ولا ترى باباً للسؤال او البحث فضاق صدرها واستولى عليها القنوط وتغلبت عليها السويداء واصبحت لا تفرح بنزهة ولا ترتاح الى حديث . وقلّ طعامها وتكاثرارقها فاخذت في الهزال وياقوتة تبذل جهدها في تسليتها وكلما رأت ضعفها وانقباضها تحيرت في امرها . وكانت تظن طول غياب عماد الدين ينسيها اياه ولما لم تعد تسمعها تذكر ظنتها نسيته لكنها مالبثت ان ادركت خطأها ذات ليلة وهي نائمة في غرفة مستطرقة الى غرفتها اذ افاقت على صوت سيدة الملك وهي تناديها « ياقوتة ياقوتة ! »

فوثبت من فراشها الى فراش سيدتها فرأتها قد قعدت على السرير وشعرها منبوش وتغيرت سحنتها فترامت عليها وصاحت « مولاتي حبيبتي ماذا تريدين ؟ »

فقالت « عماد الدين . . عماد الدين ! اين هو ؟ . سمعتهم ينادونه »

فقالت « اين هو يا سيدتي ؟ . انه ليس هنا . . انك ترين حلماً . . ألا تعلمين انه مسافر ؟ »

فازاحت شعرها عن جبينها وتفرست في ما حولها وعيناها تدلان على اضطرابها وارتيابها وقالت « انه مسافر ! آه ما اطول هذا السفر .. انيسمعت اسمه في الحلم ياليتني ظللت نائمة لعلي اسمع ذكره مرة ثانية او ربما تراءى لي طيفه . . » قالت ذلك واغرقت في البكاء

فاكبت ياقوتة عليها واخذت تخفف عنها وتقول « لماذا تفعلين ذلك يا سيدتي ماذا اصابك ؟ اين تعقلك وحكمتك؟ »

فاجتذبت نفسها من بين ذراعيها وهي تقول « لا تذكري التعقل والحكمة لا محل لهما مع الحب يا ياقوتة . . يا لله ماذا جرى لي . . ويلاه لم اعد اخشى النصر بما في قلبي . . لكنني حبسته زماناً حتى كان يقتلني . . تدبري الامر واسعفيني . يا عماد الدين . . » وعادت الى البكاء

فجثت ياقوتة بين يديها وقالت « هوني عليك يا مولاتي واتكلي عليّ . لماذا تفاتحيني بهذا الامر من قبل ؟ »

Marfat.com

قالت « وما الفائدة من الكلام ؟ بعد قد كلمتك اخبريني اين عماد الدين ما العمل للوصول اليه .. ألم تعلمي مقره الم تسألي احداً عنه ؟ قولي »

قالت وهي تمسح دموع سيدتها بمنديلها « نعم سألت عنه وقد علمت من الاستاذ بهاء الدين قراقوش انه سار بمهمة سرّية اذا نجح فيها صار رجلاً عظيماً يليق بسيدة الملك ؟ . وهذا امر ذو بال يا سيدتي . لان بنت الخليفة واخت الخليفة لا يليق بها ن تتزوج بواحد من عامة الناس وو . . . »

فقطعت كلامها قائلة « لا تقولي خاينة ولا عامة .. انني اسيرة في هذا القصر وهو طايق .. وقلبي اسير ايضاً ولا ادري اذا كان قلبه كذلك . . » وشرقت بدموعها

فاخذت ياقوتة تضمها وتمسح دموعها وتقبلها وتقول « خففي عنك يا سيدتي . . وارجعي الى رشدك . . واصبري . . لنرى ماذا نعمل »

قالت « ماذا نعمل قد طال غيابه ولا ادري ما اصابه . . »

قالت « لم يصبه شيء ولا بد من عودته ظافراً ويصير من كبار الرجال . واذا علم صلاح الدين بميلك اليه زاده رفعة وتقدماً . . يظهر انك نسيت هذه النعمة . . نسيت لتفات صلاح الدين اليك ومعاملته اياك معاملة الاخ لاخته . . ؟ »

قالت « كلا لم انس ذلك ولولاه لقضيت حزناً وكآبة . . ولكن ما الذي اسمعني اسم عماد الدين في هذه الليلة ؟ »

قالت « لعل ذلك فاتحة القرب تمهلي الى الغد لنرى ما يكون . . » واشارت اليها ان تعود الى الرقاد فاطاعتها ونامت وانصرفت ياقوتة الى غرفتها وهي تفكر في سيدتها وقد ندمت لسكوتها عن ذكر عماد الدين كل هذه المدة على انها اعتقدت ان سيدتها لم تسمع اسم عماد الدين عبثاً وانه لا بد من شيء يحدث بشأنه

وقد تحقق ظنها في صباح اليوم التالي اذ جاءها قراقوش يقول « ان السلطان صلاح الدين قادم بعد قليل لمقابلة سيدة الملك . . »

فبغتت لكنها توسمت بتلك المقابلة خيراً — وصاحب اليأس يتوسم من كل جديد فرجاً فقالت « هل يطلب مولانا السلطان ان يقابل سيدتي ويخاطبها ؟ انه يفعل حسناً لانها منقبضة النفس وهي تستأنس برؤيته .. انا ذاهبة لاخبرها بقدومه » ومضت اليها

Marfat.com

الفصل الثاني والاربعون

المكيدة

وكانت سيدة الملك قد نهضت من الفراش وهمت ان تستدعي ياقوتة فلما دخلت عليها قرأت البشر في محياها فخفق قلبها وقالت « ما وراءك ؟ »

فقالت وهي تبتسم « لعل الفرج قريب .. ان السلطان صلاح الدين آت لمشاهدتك »

قالت « هو طلب ذلك مما تلقاه نفسه ؟ » وتوردت وجنتاها من البغتة

قالت « نعم يا سيدتي فلعل عنده خبراً يسرك . . قومي والبسي ثيابك »

فنهضت وساعدتها ياقوتة في اللبس فارتدت ثوباً بسيطاً واصلحت شعرها وتخمرت وخرجت الى قاعة الاستقبال وركبتاها ترتعشان من التأثر

وبعد قليل سمعت وقع خطوات في الدار واذا بهاء الدين قراقوش قد دخل وهو يقول « ان مولانا السلطان قادم . . »

فتهيأت سيدة الملك لملاقاته . ثم دخل صلاح الدين وهو يتلطف في القاء التحية فهمت بالنهوض له فاشار اليها ان تقعد وهو يبتسم وقال « اجلسي يا اختي . . . قد ابطأتُ في زيارتك هـذه المرة لغيابي عن مصر .. كيف انت ؟ ارجو ان تكوني في خير » .

فلما سمعته يناديها بالاخوة انبسطت نفسها وقالت « طالما كنت مشمولة برضى السلطان صلاح الدين فانا في خير الحمد لله . . . »

قعد صلاح الدين على وسادة بين يديها وهو يشير الى قراقوش ان يقعد . وظلت ياقوتة واقفة . فقال صلاح الدين يخاطب سيدة الملك « ارجو ان تكوني حائزة على اسباب الراحة في هذا القصر »

قالت « نعم اني من نعم السلطان لا ينقصني شيء من اسباب الراحة لان الاستاذ بهاء الدين لا يدخر وسعاً في هذا السبيل ... ويكفيني من اسباب السعادة ان يدعيني السلطان صلاح الدين اختِه »

قال « فاذا كنت راضية عن هذه الاخوة لم يبق باعث لوضع هـذا النقاب على محياك . . » وضحك

فازاحت النقاب عن وجهها وقالت « نعم صدقت » واطرقت حياءً

Marfat.com

فرأى صلاح الدين الضعف في جسمها فقال « اراك منحرفة المزاج يا سيدة الملك هل تشكين من شيء ؟ »

فسكتت وظلت مطرقة فالتفت الى ياقوتة فعلمت انه يستفهمها عن سبب ذلك النحول فقالت « انها لا تشكو الماً لكنها منحرفة المزاج قليلاً .. »

قال « لا بأس عليك يا اخية .. وارجو ان لا اكون قد ثقلت بهذه الزيارة .. وانما حملني عليها الاطمئنان عنك .. ولكي اسألك عن امر لا احب ان يطلع عليه سواك واظنك اعلم الناس به »

فتطلعت الى معرفة ما يريده وقالت « اني رهينة ما تريد يا سيدي » وشخصت في وجهه لترى ما يريد

فالتفت يميناً وشمالاً كانه يتحقق خلو المكان من الغرباء وقال « انت تعلمين ان اخاك رحمه الله اوصاني بك وبسائر اهلك خيراً واظنني قمت بواجب الوصية .. »

فاشارت بعينيها ورأسها ان « نعم »

فقال « واظنني لم اقصر ايضاً في توخي كل وسيلة لاسعاد حال هذه البلاد من كل وجه .. فرفعت كثيراً من المظالم التي كانت في عهد الدولة الماضية وقد اتاها الذين كانوا محيطين بالمرحوم اخيك . وكنت اظن هذا كافياً لاجماع اولئك القوم على الطاعة .. » وسكت

فقالت « اظنهم مجمعين .. لان مولانا السلطان لم يدخر وسعاً في تخفيف الضرائب واجراء العدل »

قال « وكان في امكاني لما تحولت هذه الدولة الى يدي ان اقتل كل من كان من الامراء والوزراء على رأي الدولة الماضية لكنني لم افعل ذلك رغبة في ان يعرفوا لنا هذا الفضل .. »

فاستغربت قوله وتوسمت من ورائه شيئاً جديداً واشارت بعينيها كانها تستفهم عما حدث فقال « ولكنني علمت ان هؤلاء الامراء والاعيان يتآمرون علينا .. »

فرفعت بصرها وقالت « يتآمرون على السلطان ؟ »

قال « نعم .. ولو تآمروا فيما بينهم فقط لهان شرهم لكنهم يستعينون علينا بالاعداء ... انهم يخابرون اعداءنا الافرنج من ساحل الشام وصقلية يحرضونهم على مناوأتنا ليتاح لهم القيام علينا او تخرج هذه البلاد من ايدينا » قال ذلك وقد بان الغضب في غنة صوته » (١)

(١) ابن الاثير ١٧٩ ج ١١

فاجفلت وقالت « يتواطأون مع الافرنج على سلطانهم ! يا لها من خيانة .. »
واطرقت لحظة ثم قالت « هل توثق سيدي من هذا الخبر ؟ »

قال « اني واثق تمام الثقة مما اقول . لان خبرهم جاءني من رجل اثق به وثوقي بنفسي . . قبحهم الله . . اذا كانوا يعدون خروج الدولة من الخلافة العبيدية الى العباسية شرًا وكلاهما اسلاميتان فكيف بانتقالها الى الافرنج وهم اعداؤنا الالداء مذهباً ووطناً . فبدلاً من ان نتعاون على صيانة بلادنا منهم ندلهم على عوراتنا ونحرضهم على فتح بلادنا ؟ . هل رأيت اضعف رأياً من هؤلاء . . ألا يحلُّ قتل الساعين في ذلك ؟ » قال هذا وقد ارتفع صوته وابرقت عيناه رغم ما حاوله من تلطيف غضبه بين يدي سيدة الملك وقد عبث بعثنونه بحكه

اما هي فانها شاركته في الغضب واحست بنوع من الخجل لان الذين قاموا بتلك المؤامرة من رجال اخيها فقالت « نعم . . انها خيانة عظيمة . . ولكنني استغرب وقوع مثل هذا العمل من قوم عقلاء . . فربما كان الساعون فيه من بعض العامة الجهلاء »

قال « انهم من اكبر الامراء والاعيان وفيهم رجل يزعم انه من سلالة العبيديين اقربائكم . ولم نوفق الى القبض عليه مع من كان في القصر منكم . وحسبناه اكتفى بالنجاة من القتل واختفى لكنه الآن من اكبر المحرضين على هذه الخيانة . . اظنك عرفته . . ولولا دخوله في هذا الامر لم اتعبك في شرح هذه الواقعة . وانما اردت الاستعانة بك في استطلاع حاله لعلك تعرفين عنه شيئاً لانه كان اقرب المقربين لاخيك رحمه الله .. حتى انه كان طامعاً بولاية العهد بعده .. اظنك عرفته . . »

فعلمت سيدة الملك انه يعني ابا الحسن فامتقع لونها غضباً وقالت « عرفته نعم .. اظنك تعني ذلك الشريف الكاذب . . انه يدعي النسب فينا وليس هو منا . . . الا تعني ابا الحسن ؟ »

قال « اياه اعني .. انه من اكبر المنافقين الخائنين لانه جاءنا والمرحوم العاضد على فراش الموت وتوسل الينا في نقل ولاية العهد اليه على ان يكون عوناً لنا في كل شيء فلم نوافقه . فانقلب الى دس الدسائس ونصب الحبائل فاطاعه جماعة من المارقين وسينال كل منهم جزاءه . . وانما التمس منك ان ترشدينا عما تعلمينه من مكان ابي الحسن » قال ذلك وهو يتلطف في السؤال بخفض صوته

فظلت ساكتة وقد تمنت ان يكون ما يقوله صلاح الدين صحيحاً ليقع ابو الحسن في

Marfat.com

شر اعماله وتتخلص منه وأحبت ان تتحقق صحة تلك الدعوة فقالت « نعم اعرف نقص هذا الرجل وسوء خلقه ومطامعه وسأبحث عن مكانه .. ولكنني ارجوان يكون سيدي على ثقة من الخبر واذا شاء ان يزيدني بياناً فانه يعينني على البحث »

قال « ان هذا الخبر تلقيته من عدة مصادر فشككت فيه حتى اتاني بشأنه كتاب من رجل لا اشك في صدقه كتب الكتاب بخطهِ وقد وصلني في فجر الامس سرًّا مع وفد ارسله الافرنج الموالون لاولئك الخائنين بحجة انهم يحملون اليَّ هدية من بعض ملوكهم وهم انما يحتالون في مقابلة تلك العصابة ليتموا المكيدة . . . وهذا هو الكتاب اذا طالعتهِ اغناني عن زيادة الايضاح » قال ذلك ومدَّ يده الى جيبه واستخرج لفافة دفعها الى قراقوش ليقرأها

الفصل الثالث والاربعون

نص الكتاب

ففتحها بهاء الدين واخذ يقرأ « اكتب هذا الكتاب الى مولاي السلطان وانا في اعماق السجن في بيت المقدس . لا يسعني الوقت لتفصيل سبب سجني فان الكلام فيه يطول وانما اسرعت الى كتابته لانقل الى مولاي خبراً هاماً عرفته عن ثقة واخاف اذا تأخر وصوله ان ينتهي بما اكره وقوعه — علمت بعد خروجي من مصر بموت العاضد وانتقال الدولة الى مولاي السلطان وسمعت وانا في هذا السجن ان بعض رجال تلك الدولة يجتمعون سرًّا في الفسطاط يتآمرون على اخراج هذا الامر من حوزته .وقد خابروا الافرنج في هذه الديار على ان يهاجموا مصر بجند كثيف يجمعونه من هنا ومن صقلية وان اهل مصر يكونون معهم على جندكم . وان اولئك المؤتمرين يرأسهم رجل من العلويين اسمه ابو الحسن وهو الذي اغرى الناقمين على هذه الدولة فوافقوه واستنجدوا الافرنج .وقد وافقهم الافرنج واخذوا يتأهبون لهذه الحملة لكنهم هيأوا جماعة بصورة وفد يحمل هدية الى السلطان صلاح الدين من ملك الافرنج لكنهم بالحقيقة يريدون الاجتماع بتلك العصابة واتمام المؤامرة . وقد وفقني الله بواسطة صديق لي هنا ان اطلع على ذلك وان ارسل هذه الرسالة مع حامل هذا الكتاب وهو بحسب الظاهر من جملة خدم الوفد او هو دليلهم في الطريق فدفعت اليه هذا الكتاب

Marfat.com

فاذا وصل اليكم ادفعوا الى حاملة مئة دينار وآكرموه — اما انا فلا ازال هنا وسابقى حتى يتاح لي الخروج للقيام بالمهمة التي وقفت حياتي للقيام بها في خدمة مولاي السلطان — وانا ظافر بها باذن الله فاما ان اعود اليكم فائزاً منصوراً او اموت في هذا السبيل فداء لمولاي لان حياتي وحياة كل رجاله مبذولة في خدمته . . »

وكانت سيدة الملك تسمع الكتاب ونفسها تحدثها في اثناء ذلك ان الكتاب يتعلق بعماد الدين . فاما سمعت قوله في الفقرة الاخيرة يذكر المهمة التي انتدب لها خفق قلبها وتبادر الى ذهنها ان يكون هذا الكتاب من عماد الدين نفسه وخصوصاً لانه يقول برح مصر قبل وفاة اخيها . . فبدت البغتة في وجهها وتسارعت دقات قلبها ولم تتمالك عند الفراغ من تلاوة الكتاب ان قالت « هل يامر السلطان ان اعرف من هو صاحب هذا الكتاب ؟ »

قال « ينبغي لنا حفظ اسمه لكنني نظراً لما بدا لي من غيرتك وصدق لهجتك لا ارى مانعاً من ذكره انه شاب جمع بين المروأة والحماسة وصدق المودة . . كنا قد انقذناه لامر هام لا يجسر عليه سواه لا اظنك تعرفينه » ووقع نظر صلاح الدين وهو يتكلم على نظر بهاء الدين قراقوش فقرأ في وجهه شيئاً يستدعي التوقف عن التصريح لكنه لم يدرك السبب ولا استطاع التوقف بعد ان وعد بالتصريح ونظر الى سيدة الملك فرآها متطاولة بعنقها وعيناها شاخصتان في شفتيه تكاد تختلب الكلام من فيه اختلاباً فقال « ان صاحب هذه الرسالة اسمه عماد الدين »

لم يكد يتلفظ باسمه حتى صاحت سيدة الملك « عماد الدين آه عماد الدين » واغمي عليها . فدهش السلطان ونهض واسرعت ياقوتة الى الماء اخذت ترش سيدتها به وتفرك يديها واقترب بهاء الدين من صلاح الدين فاصغى اليه فقال له « كنت اشرت الى مولاي ان لا يذكر هذا الاسم . . »

فقال « وما الذي يعنيها من امره ؟ هل تعرف شيئاً عن ذلك »

فقال همساً في اذنه « عرفت شيئاً منه قبل سفره لكن ضياء الدين الهكاري منعني من ابلاغه لمولاي مخافة ان يفسد سعيه يومئذ في خطبة هذه السيدة » وضحك

فقال صلاح الدين « وما هي علاقتها به ؟ يظهر انها تحبه . . »

فأومأ اليه ان يتبعه الى غرفة اخرى ريثما تفرغ ياقوتة من معالجة سيدتها فتبعه فلما خلا به قص عليه ما كان من امر عماد الدين ليلة مجيئه الى القصر في السرداب وكيف وشى به ابو الحسن ولم يتمكنوا من القبض عليه الى آخر الحديث

Marfat.com

فوقف صلاح الدين يفكر في ما اتفق وقوعه في تلك الجلسة وقد سرّ لاطلاعه على ذلك السر لانه يحب عماد الدين ويريد اكرام سيدة الملك . وشكر الله لانه لم يوفق الى خطبتها لنفسه فقال لبهاء الدين « لقد سرني اطلاعي على ذلك فيجب علينا ان نسعى في جمع شمل هذين المحبين . . والحمد لله ان سعي الهكاري لم يتكلل بالنجاح »

فقال قراقوش « ويمكننا ان نتخذ سعينا في مصالحتها وسيلة لسعي هذه السيدة في المساعدة على كشف تلك المؤامرة لانها من اقدر الناس على ذلك . فاذا أخلصت الخدمة في هذا السبيل ساعدناها على مرامها . . »

فضحك صلاح الدين وقال « لله درك يا بهاء الدين . . انك لا تنظر في خير لاحد ان لم يعد جانبٌ منه عليك .. احسنت »

قال « انما يهمني القيام بخدمة مولاي اعزه الله »

ثم تحول صلاح الدين نحو باب القاعة وسأل عن سيدة الملك فقيل له انها افاقت فدخل فراها جالسة على وسادة وقد اطرقت خجلاً وبان التعب في محياها وذبلت عيناها . فتقدم نحوها وقال « قد علمت امرك وسرني ما علمته من علاقة حبيبنا عماد الدين بك . واعلمي اني باذل اقصى الجهد في تقصير مدة غيابه .. ولا يكون الا ما تريدين وقد اوصيت صديقي بهاء الدين ان ينظر في ما كنا فيه .. استودعك الله »

فوقفت لوداعه والخجل غالب عليها ولم تجب بلسانها لكن عينيها ادتا واجب الشكر . على انها لم تستطع السكوت عما يخالج فؤادها من الخوف على عماد الدين فقالت وصوتها يرتجف « ولكنه في اعماق السجن يا مولاي »

قال « انه سيأتي باذن الله واذا ظل في السجن فاننا نفتح بيت المقدس لنخرجه منه وان في فتحه تعزيزاً للدولة الاسلام .. لا تخافي » وابتسم ومشى مشية الاسد وهي تشيعه ببصرها وتزداد اعجاباً بعلو همته وكبر نفسه . ورأت انتقال السيادة اليه وذهاب دولة اخيها امراً طبيعياً لا بد من وقوعه لما كانت تعلمه من ضعف نفوس رجال اخيها وفساد آرائهم وتنازعهم على التافه من الامور شأن الدولة في اواخر عمرها

وبعد خروج صلاح الدين تقدم بهاء الدين اليها فقال « سأعود اليك بعد قليل ريثما ترتاحين كوني مطمئنة » وضحك

Marfat.com

الفصل الرابع والاربعون

جوهر

ولم يبق هناك الا سيدة الملك وياقوتة . فقالت ياقوتة ووجهها مشرق «الحمد لله قد صدق ظني ونالتِ ما كنتُ اريده »

فتنهدت سيدة الملك وقالت « ما الذي نلناه وقد تبين لي من نص ذلك الكتاب ان عماد الدين في اعماق السجن عند الافرنج وانه مصمم على مهمة يظهر انها في غاية الخطر وانه اذا لم يفز بها ظل هناك او ... » وغصت بريقها

فقالت « الا يكفي يا مولاتي أننا علمنا بوجوده حياً ؟ وان صلاح الدين عون لك في الوصول اليه ؛ وسيقتص من ذلك الخائن ؛ هيا بنا الى الطعام واتكلي على الله »

فنهضت وقد سرّي عنها وتناولت طعامها وحديثهما في اثناء ذلك عن المؤامرة وابي الحسن . وبعد الطعام اتى قراقوش — وهو يدخل المكان بلا استئذان — وقال « ياسيدة الملك اهنئك برضى السلطان صلاح الدين فانه اوصاني بك خيراً .. انما ينبغي لنا ان نكتشف مكان تلك المؤامرة فهل تعرفين عنه شيئاً ؟ »

فاطرقت تفكر ثم قالت « انى لي ذلك وانا لا اعرف شارعاً من شوارع هذا البلد لاني قضيت عمري محبوسة في القصور »

فتصدت ياقوتة للكلام وقالت « ان كشف هذا المخبأ عليّ »

فقال قراقوش « اين هو ؟ »

قالت « لا اعلم ولكنني ارجو البلوغ الى خبره .. الا تعرف الغلام جوهر ؟

قال « اعرفه . . الم يكن من غلمان القصر ؟ »

قالت « نعم . وهو جاسوس ذلك الخائن كان يحمل اليه اخبارنا ويطلعه على اسرارنا »

قال « وما الفائدة من معرفته ان كان هذا شأنه وهو خائن لنا ؟ »

قالت « ان الخائن لا يثبت في الامانة لاحد . كان في الامس اميناً لابي الحسن على وهو الآن سيكون اميناً لنا عليه »

قال « اين هو ؟ »

قالت « هو في هذا القصر وقد اخبرني بعض الغلمان انه غاضب على ابي الحسن

Marfat.com

اساء معاملته ولم يبق له فيه وطر بعد خروج مولاتي من ذلك القصر ودخولها في حياطة مولانا السلطان . فنفر منه وجاء يتزلف الينا .. هل استقدمه اليك الآن ؟ »

قال « افعلي »

فامرت احد الغلمان ان يستقدمه وعادت . فرأت سيدتها قد ابرقت عيناها من السرور وقالت لها « بورك فيك ياياقوتة انك ساهرة »

قالت « لا بد ان يعود كيد الخائن في نحره » ثم جاء جوهر وعيناه ترقصان في وجهه من الاضطراب — وكذلك بصر المنافق لايستقر في مكانه

فنظر اليه قراقوش نظر المتفرس وقال له « ياجوهر بلغنا ان ابا الحسن خدعك حيناً حتى اخرجك عن طاعة مولاتنا .. لكن سرّني انك رجعت الى الصواب وعلمت انك لاتنال خيراً الا بصدق الخدمة في مصلحة مولاتنا سيدة الملك ومولانا السلطان.. »

فاكبَّ جوهر على يد بهاء الدين يقبلها ويتظاهر بالندم والاخلاص وقال « يعلم الله اني كنت مغشوشاً فان ذلك الرجل خدعني واوهمني انه يد الامام المرحوم يفعل ما يشاء . ثم علمت انه يريد به شرًّا وانا قد ربيت في خدمة مولاي فلا يليق بي ان اغدر به . فلما تحققت سوء قصد ابي الحسن تركته لاني اكره الخيانة . ولا سيما بمن احسن اليَّ وانا صنيعته وعبده »

فقال قراقوش وهو يظهر انه صدقه « بارك الله فيك . . واعلم اني حسن الظن بك وسأزيد في عطائك ولا اسألك عما مضى . وانما اطلب اليك امراً واحداً هو هين عليك وفيه انتقام لك من ذلك الخائن هل تطيعني ؟ »

فلم يصدق جوهر انه نال هذه الرعاية بعد جناياته الماضية فقال « اني رهين الاشارة ياسيدي »

قال « اطلب منك ان تخبرني عن المكان الذي يجتمع فيه ابو الحسن واقرانه هل تعرف اين هو ؟ »

قال « ذلك هين ياسيدي . . نعم اعرفه واعرف الذين يجتمعون معه . . قبحهم الله . . كنت عازماً ان اطلعكم على ذلك وان لم تسألوني عنه فانه فرض علينا . . وكان يمنعني الخجل من خطأي الماضي »

فربت له على ظهره وضحك وقال « عافاك الله هل المكان بعيد من هنا ؟ »

قال « هو في الفسطاط ياسيدي . . »

قال « الآن تحققت صدقك لاني كنت عالماً انه هناك . فانا واضع ثقتي فيك من

Marfat.com

هذه الساعة . وانت تعلم ان ثقتي هي ثقة مولاتنا السلطان ولا يخفى عليك ما يستفيده صاحب هذه الثقة .. اصابح ما افسدته ياجوهر . وقد اوصاني مولاتنا سيدة الملك خيراً بك واخبرتني كم كنت مخلصاً في خدمتها قبلاً . ولكن ذلك الخائن اغراك على هذه الخيانة . مضى ما مضى .. تعال معي » قال ذلك وتحوّل وتبعه جوهر وقد بادر الى العمل قبل ان يحدث ما يغير عزم ذلك الغلام المتقلب . وصمم ان لا يفارقه قبل الوصول الى المطلوب

على انه تذكر امراً احب ان يقوله لسيدة الملك قبل الذهاب فرجع اليها وقال « ينبغي ياسيدتي ان تتكلي عليَّ بكل ما يخطر لك . . ولا بد انك تذكرين اطلاعي على مجيء عماد الدين الى قصرك واحمد الله على انه نجا سالماً »

فاغتنمت تقربه اليها وتلطفه في طمأنتها وقالت « اما وانت مشعرٌ معي وقد رأيت السلطان راضياً عني اتقدم اليك ان تزيدني بياناً عن حال عماد الدين »

قال « لا اعرف عن حاله الآن غير مافي كتابه الذي تلوته عليك الساعة . . »

قالت « اعني هل عليه خطر هناك ومتى تظنه يعود ؟ »

قال « لا اعلم متى يعود اما الخطر فلا اخافه عليه لعلمي بشجاعته وتعقله ولا بد من الإتكال على الله . . كوني مطمئنة في كل حال » قال ذلك ومشى

فهرع جوهر في اثره وقد سرَّه ما يؤمله من الفوز بالمكافأة ـ لا يهمه ما يترتب على عمله من قتل النفوس وخراب البيوت ـ ان امثال هذا الخائن ينقصهم الشعور الحي الذي يسمونه الضمير . فهم ينظرون في الاعمال من حيث ما يعود عليهم من النفع ولا يشعرون بغير ذلك . والدنيا عندهم لها وجهان وجه منفعتهم وهو ماينبغي بقاءه واما الوجه الآخر فهو كالعدم في نظرهم فلا يبالون ان يمحي من الوجود او يساق اصحابه الى المجازر . وقد يسرهم ما يرونه في الآخرين من الاذى وان لم ينالوا هم منه خيراً لانفسهم . فكيف اذا كان لهم منه نفع ـ نعوذ بالله من هؤلاء . . لكنهم بحول الله قليلون ولو كانوا كثاراً لخربت الدنيا من عهد بعيد

Marfat.com

الفصل الخامس والاربعون

الفسطاط

مشى قراقوش وجوهر في خدمته وكان جوهر مملوكاً حبشياً وفيه ذكاء لكنه لم يكن له ضمير كما علمت فالتفت قراقوش اليه في اثناء الطريق وقال « يا جوهر ما العمل الآن ؟ »

قال « الامر لمولاي »

قال « انا متكل عليك في الوصول الى الغرض . . اريد ان اطلع على مجتمع القوم واسمع حديثهم هل يتيسر لك ذلك الليلة ؟ »

قال « نعم ياسيدي نذهب بعد الغروب اذا شئت »

قال « الى اين ؟ »

قال « الى الفسطاط لان القوم يجتمعون في بيت هناك اعرفه ولا يمكن ان يهتدي اليه سواي . . فانه في دار خربة لا يتصل اليها الا من ازقة ضيقة مظلمة .. ولا بد من التنكر »

قال « وماذا ترى ان نفعل ؟ »

قال « ارى يتنكر مولاي الاستاذ بلباس طبيب نصراني وانا اكون في خدمته احمل له جراب العقاقير واقود بغلته »

قال « هذا هين »

ووصلا بعد هنيهة الى منزل قراقوش فدخلا فامر قراقوش ان لا يدخل البيت احد من الناس ولو انه السلطان صلاح الدين نفسه . وامر جوهر ان يعد ما يلزم للتنكر وسأله عن محل الاجتماع اين موقعه في الفسطاط فقال « قرب جامع عمرو وسوف عين النقطة . فتركه يهيئ ما يلزم واخذ في اعداد فرقة من الجند تسبقه لتتربص في خان قرب ذلك المجتمع ودبر الوسيلة للاحاطة بالمنزل عند ابداء الاشارة

اعد كل شيء قبيل الغروب ولم تغب الشمس حتى كان قراقوش قد تزيا بزي اطباء النصارى بالزنار على وسطه والعمامة على رأسه واعدت له البغلة . ومشى جوهر في ركابه ولا يشك من يراهما انهما الطبيب وغلامه

برحا القاهرة عند الغروب وقطعا المسافة بينها وبين الفسطاط بسرعة . ثم اطل

Marfat.com

قراقوش على الفسطاط من مرتفع فرأى النار آخذة الحريق لا تزال ظاهرة فيها وقد خربت اكثرا بنيتها بامر شاور منذ بضع سنين (سنة ٥٦٤ هـ) اذ خاف شاور الوزير من وصول الصليبيين اليها واستيلائهم عليها فامر اهاليها بالخروج منها الى القاهرة والقى النار فيها وامر بنهبها . فانتقلوا ونهبت المدينة وافتقر اهاليها وذهبت اموالهم . وظل الحريق عاملاً فيها ٥٤ يوماً [1] فاختلطت الازقة حتى اشتبهت على المارة . ولولا جوهر ومعرفته الشوارع جيداً لاستحال على قراقوش الوصول الى المكان المطلوب . ولكن ذلك الحبشي كان يقود البغلة ويخطى الخرائب كانه ماش في داره . ودليله الاظهر مأذنة جامع عمرو فانها كانت بارزة في الفسطاط دون سواها

لم يتجاوزا جامع عمرو حتى خيم الغسق واظلمت الدنيا وقلّ الناس في الشوارع والمتأمل في الفسطاط يجد فرقاً كبيراً بينها وبين القاهرة فان هذه اكثر عمارة وحشمة واضخم خانات واعظم آثاراً . سكن الامراء فيها لانها خاصة برجال الدولة واما الفسطاط فانها مقر الباعة والصناع ويكثر فيها السوقة والملاحون لقربها من النيل وقد زادها ذلك الحريق حقارة

وكان قراقوش لما توسط المدينة ورأى نفسه منفرداً هناك مع جوهر خطر له ان ذلك الحبشي ربما ينوي الغدر به وهو خائن لا يركن اليه فالتفت نحوه وقال « اين نحن يا جوهر يظهر اننا قد بعدنا عن المكان الذي ذكرته وتجاوزنا جامع عمرو . . »

قال « ثق يا مولاي انني ذاهب بك الى المكان المطلوب . وقد تجاوزناه الآن حقيقة كما قلت ولكنني اريد ان نشرف عليه من منزل آخر بابه في شارع آخر . . . ألا تريد ان ترى القوم مجتمعين وتسمع ما يدور بينهم ؟ »

قال « بلى . . لكن تمهل قليلاً » قال ذلك وتفرس بما يجاوره فعلم انه على مقربة من الخان الذي اوصى الجند ان يتربصوا فيه فقال « اخبرني يا جوهر اين هو البيت الذي يجتمعون فيه ؟ دلني عليه باصبعك من هنا »

فاشار باصبعه قائلاً « ألا ترى هذا النور المعلق على تلك السارية »

قال « رأيته »

قال « ترى وراءه بيتاً خرباً انهم يجتمعون في داخله »

فتحول قراقوش ببغلته الى الخان فلقيه قائد الفرقة بالباب فاوصاه ان يفرق جنده حول ذلك البيت من كل ناحية بحيث لا يشعر به احد ولا يظهر احد من رجاله في

---

(١) تاريخ مصر الحديث ٣٥٠ ج ١ — طبعة ثانية

Marfat.com

الطرق وقال « اذا رأيتم مصباحاً يتحرك رح احد هـذه الاسطحة حركة رحوية . اهجموا على هذا البيت من كل ناحية واقبضوا على من فيه » وعاد فادار شكيمة بغلته وجوهر يقودها حتى دخل الزقاق المطلوب ووصل الى باب دقه وقراقوش لا يزال على البغلة ففتحت خوخته واطل رأس رجل شيخ قـد تدلى سالفاه على خديه

وقال « من الطارق ؟ »

فتقدم جوهر وقال « الطبيب سمعان .. افتح . . »

قال « وماذا يريد الطبيب منا ليس عندنا احد مريض »

قال « لم يأت للتطبيب لكنه يريد المبيت هنا وهو من اهل القاهرة وقد جاء للسفر في النيل فوجد السفينة التي يريد السفر عليها قد اقلعت فاراد المبيت في الفسطاط الى الصباح حتى يبكر الى الشاطيء ويركب سواها . افتح يا عماه . . »

قال « لماذا لم يذهب الى الخان انه قريب من هذا المكان »

قال « لا يريد المبيت في الخان وهو لم يتعود ذلك وانا اتيت به الى ههنا خدمة لك » وهمس في اذنه قائلاً « يظهر انك لم تعرفني يا معلم حايم »

فتفرس فيه الشيخ وقال « عرفتك يا جوهر العفو اني لم اعرفك من قبل »

قال « لا بأس . . وانا جئت بهذا الطبيب ليبيت هنا وهو كريم الخلق كثير المال لا يبالي كم تأخذون منه . . والاحسن ان تخلوا له البيت برمته واطلبوا عن كل حجرة منه ديناراً واذا قال لكم انه يحتاج الى حجرة واحدة فقط قل له انك لا ترضى الا بتاجير البيت برمته . . »

ففرح حايم بهذا الرأي ولم يكن في بيته كله ما يساوي دينارين من الاثاث . فلما قال له جوهر ذلك رفع صوته وقال « لا نقدر ان ندخل رجلاً غريباً يبيت معنا فاذا شاء الطبيب ان نؤجره البيت من بابه فعلنا »

فقال جوهر « كم اجرته ؟ »

قال « هو خمس غرف واجرته خمسة دنانير »

فتظاهر جوهر انه يخادع قراقوش بالمساومة وقال « ان خمسة دنانير كثيرة يا معلم حايم . الا يكفي اربعة ؟ » وضغط على اصبعه ان لا يقبل

فاجاب « كلا اذا لم يعجبكم فهذا هو الخان قريب من هنا »

فاظهر انه رضي وقال « لا بأس .. طيب ان مولانا الطبيب كريم . واتم اين تنامون ؟ » .

Marfat.com

قال « ليس عندي الا امرأتي العجوز فتبيت عند صهرنا وهو قريب من هنا »

فتحول جوهر الى قراقوش قبض منه الدنانير ودفعها الى الشيخ وهو يقول له همساً « هذه هي الدنانير لكن ينبغي ان تختصني منها بدينار تدفعه الي غداً صباحاً فهمت »

قال « حسناً » وهو ينوي ان لا يدفع اليه شيئاً . بل عزم ان ينتحل حجة في الصباح يقبض بها ديناراً سادساً فيدعي انهم اضاعوا شيئاً من الاثاث او نحو ذلك

ثم تحول الشيخ الى الداخل وعاد بعد قليل والمصباح بيده ومعه امرأته وهي تقول « يظهر ان هذا الضيف عزيز عليك حتى اخرجتني من البيت لاجله »

فقال « كيف لا » واشار الى بهاء الدين ان يتفضل . فتحول بهاء الدين عن بغلته فادخلها جوهر تحت قنطرة بجوار المنزل شدها الى حلقة دقت هناك لمثل هذه الغاية . ودخل . ودفع حايم المصباح الى جوهر وانصرف وهو يوصيه بالبيت خيراً

الفصل السادس والاربعون

الجلسة

وما صدق قراقوش انهما دخلا البيت ولم يبال بما يتصاعد عن دهاليزه من الروائح القذرة . فاقفلا الباب واوصداه ومشى جوهر بالمصباح بين يدي قراقوش وهما يسترقان الخطى لئلا يسمع لهما صوت . ولم يمشيا طويلاً حتى سمعا ضوضاء عميقة فقال جوهر « نحن بجانب مجلس القوم ليس بيننا وبينهم الا الحائط .. اصبر قليلاً »

وكان قراقوش منذ خروجه من منزله يتحفز للدفاع عن نفسه ويده على خنجره ليغمده في صدر جوهر اذا آنس منه خيانة . فلم يلحظ منه شيئاً فلما استمهله وقف وهو يحدق فيه فاذا هو يشير اليه ان يصعد على سلم ضيق يؤدي الى سقيفة في اعلى الغرفة . فصعد معه ومن هذه السقيفة اتصلا الى السطح من باب ضيق كالمنور . ورأيا السماء فوق رأسيهما ونظر بهاء الدين الى ما يحيط بهما فاذا هما والاسطحة حولهما . فقال جوهر بصوت ضعيف لنترك المصباح على السقيفة ونمشي في الظلام لئلا يفتضح امرنا »

فاطاعه ومشى والضوضاء تزداد وضوحاً حتى انتهى به الى حائط فقال « هذا حائط آخر من حيطان قاعة الاجتماع »

Marfat.com

فرأى بهاء الدين في صحن الحائط كوة قد انبثق النور منها فتقدم نحوها فسبقه جوهر وقال « انظر هنا »

فنظر فرأى قاعة غاصة بالناس قعوداً على وسائد مصفوفة حول الغرفة فوق بساط . وقد علت الضوضاء ووقف بالباب رجل اسنده بظهره كانه يمنع من شاء الدخول فهمس جوهر في اذن بهاء الدين قائلاً « هل ترى جيداً »

قال « نعم . . لكنني لم اعرف احداً منهم غير ابي الحسن . . من هذا الجالس الى جانبه . ؟ »

قال « ان الذي تراه الى يمينه عمارة بن ابي الحسن الشاعر اليمني . والى يساره القاضي العويرس وبعده داعي الدعاة والى الجانب الآخر عبد الصمد الكاتب وغيره . . وكلهم من الشيعة كما تعلم . انظر في وسط الغرفة ماذا ترى ؟ »

قال « أرى سيفاً ومصحفاً اظنهم يحلفون عليهما »

قال « نعم »

واخذ قراقوش يتفرس في الحضور ليعرفهم عند الحاجة . واذا هو بابي الحسن اشار بيده يطلب الاصغاء فانصتوا فقال « ابشركم ايها الامراء ان اعمالنا تكللت بالنجاح وجاء وفد الافرنج في هذا الصباح يحمل الهدايا الى ذلك الكردي . . وقد فرح بالهدية وفاته ما وراءها . جاءنا كتب اصحابنا في ساحل الشام انهم على أهبة الرحيل عند اول اشارة فابشروا بنيل المراد »

فتصدى عمارة اليمني وهو شاعر مشهور ووجه نظره الى القاضي العويرس وداعي الدعاة وهما من اصحاب المناصب الرفيعة في الدولة وقال « ان مولانا الشريف ابا الحسن اهلّ لما بايعناه عليه من الخلافة لنسبه الشريف ولان مولانا الامام المرحوم قد اوصى له بولاية العهد كما سمعتم ذلك من الجليس الشريف قبل الآن . فيجب ان نخلص له الطاعة لنعيد هذه الدولة الى رونقها وكانت قد فسدت بمن دخل في امورها من الاعاجم بسوء رأي المحيطين بالخليفة السابق وهم الذين اشاروا عليه باستنجاد نور الدين صاحب الشام فكان ذلك سبباً في صيرورة الامر الى يوسف هذا (صلاح الدين) ولكننا متى تم لنا ما دبرناه وقبضنا على ازمة الامور صرنا نتجنب هذا الخطأ في المستقبل . ولا نولي المناصب إلاّ الذين نثق باخلاصهم وتفانيهم في الدعوة العلوية من العرب ... اننا عرب ونحن مادة الاسلام والقرآن عربي فلا ينبغي ان نشرك في امرنا غير العرب كما فعل غيرنا . . »

Marfat.com

فقال عبد الصمد الكاتب « بارك الله فيك يا أخا اليمن (عمارة) قد مضى زمن الضعف والحمد لله ... ان خليفتنا هذا (واشار الى ابي الحسن) جمع بين الحزم والدهاء ووزيرنا هذا (واشار الى العويرس) لا مثيل له في اصالة الرأي و... »

فقطع كلامه رجل كان جالساً منذ ساعة لا يتكلم كأنه يفكر في امر هام لا يلتفت الى ما يدور بينهم فلما سمع كلام عبد الصمد بشأن الوزارة رفع رأسه وقال « ان الوزارة لم يتم الاتفاق عليها بعد . وانا مع احترامي للقاضي الاجل لا ارى له حقاً بالوزارة وانما هي لسلالة الوزراء آل رزيك فانهم تولوها في عهد الائمة السالفين وهم عليها فضل فلا يليق نقلها الى سواهم ... »

فتصدى رجل آخر كان قد نهض في تلك الاثناء واخذ يهمس في اذن ابي الحسن وابو الحسن يهز رأسه له هزة الرضا والاستحسان ـ تصدى هذا وقطع كلام الرجل قائلاً « مهلاً لا تتنازعوا على منصب هو حق لنا وكان في قبضتنا بالامس »

فضحك صاحب وزارة بني رزيك وقال « تريد ان ترجع الوزارة لبني شاور ؟ الم تكن هذه المصائب كلها من وزارته ألم يكن هو الذي احرق هذه المدينة الزاهرة بسوء تدبيره ؟ إن الوزارة لا تكون لغير آل رزيك . ونحن اصحابها الأولون .. »

فتكلم ابو الحسن وهو يبش ويتلطف وقال « خففوا من غضبكم وارجعوا الى صوابكم .. لسنا الان في معرض التنازع على المناصب انما نحن في الاتحاد على اخراج هذا العدو من بلادنا ومتى اخرجناه نعمل ما يتفق عليه الرأي .. »

فقال صاحب وزارة آل رزيك « طبعاً ان ابا الحسن لا يهمه البحث في المناصب الآن لانه ضمن لنفسه الخلافة بسبب نسبه في العبيديين .. ولم ينازعه احد في صحة نسبه لان الجليس الشريف شهد بصحته بناء على ما سمعه من الامام المرحوم .. »

وضحك ضحكة استخفاف

الفصل السابع والاربعون

الهجوم

وكان قراقوش مصغياً لما دار وقد شاهد كل حركة وجوهر واقف بين يديه يتطاول ليرى ما يراد . فاكتفى قراقوش بما سمعه وشاهده والتفت الى جوهر وقال بالاشارة « اين المصباح ؟ الي به »

Marfat.com

فنزل الى السقيفة واتى بالمصباح فتناوله قراقوش وصعد الى مرتفع واداره بيده بحركة رحوية كما اتفق مع قائد تلك الفرقة . ثم نزل واخفى المصباح وعاد الى الكوة . والناس يتحاجون ويتناقشون . واذا بالضوضاء قد تعاظمت ولم تمض دقائق قليلة حتى صار رجال قراقوش داخل القاعة واخذوا في القبض على من فيها . وليس فيهم من يستطيع دفاعاً لانهم لم يكونوا قد اعدوا من وسائل الدفاع غير السنتهم واسنانهم

ووجه قراقوش التفاته خصوصاً الى ابي الحسن فلم يجده بين المقبوض عليهم فظنهم اخرجوه الى خارج القاعة . ولما ايقن بفوز رجاله بالقبض على المتآمرين اشار الى جوهر بالنزول للرجوع الى القاهرة . فنزل بين يديه بالمصباح وقراقوش يتبعه ولم تطأ رجله السقيفة حتى سمع وقع اقدام مسرعة في ارض البيت تحت السقيفة فاجفل فتفرس قراقوش على النور الضعيف فرأى شبحاً بالعمامة والجبة لم يعرفه فقال له جوهر همساً « هذا ابو الحسن هلم اليه » فبادر الى اطفاء المصباح حتى لا يعرف مكانه واسرع في النزول ليقبض على ابي الحسن وهو يحسبه دخل هذا المنزل بتواطىء سابق مع صاحبه لمثل هذه الساعة على ان يبيت فيه ليلته ثم يفرّ في الصباح

نزلا الى ارض البيت وجوهر يقود قراقوش لانه يعرف دواخل المكان واصابها فلم يسمعا خطواً ولا صوتاً كأن ذلك الشبح كان ظلاً وزال . فاراد قراقوش ان ينير المصباح ليرى المكان في النور فاشار الى جوهر ان يفعل واستل خنجره وتهيأ للهجوم على من يظهر امامه . ولم يكد جوهر يبدأ بالاشعال حتى سمعا صرير باب الدار فركضا اليه فوجدا الباب مفتوحاً وليس هناك احد فاضاءا المصباح واخذا في البحث عن ابي الحسن في كل مكان فلم يجداه فتأكدا انه نجا فقال قراقوش « هل انت متأكد يا جوهر انه ابو الحسن ؟ »

قال « يغلب على ظني يا سيدي انه هو ومع ذلك قد يكون سواه .. هلم بنا لابحث في الاماكن المجاورة فاذا لم نجده فاعلم في جملة المقبوض عليهم والا فانه قد نجا فيجب ان

نخرجا وركب قراقوش بغلته واخذا في البحث عنه في تلك الدار وما يجاورها فلم يقفا له على اثر فذهبا الى القاهرة وبهاء الدين يخاف ان يكون ابو الحسن قد نجا وكان خوفه في محله

اما سائر المقبوض عليهم من المتآمرين فحكم عليهم بالصلب وفي مقدمتهم عمارة اليمني المتقدم ذكره فصلبوا في ٢ رمضان سنة ٥٦٩ هـ [1] واستتاب بلك صلاح الدين

(١) ابن الاثير ١٧٩ ج ١١

Marfat.com

من هؤلاء لكنه ما زال يفكر في ابي الحسن سبب تلك الدسائس

اما سيدة الملك فاصبحت في ثاني يوم القبض على المتآمرين وكلفت ياقوتة بالبحث عما تمَّ . فلما انبأوها بالقبض عليهم فرحت لكن ساءها فرار ابي الحسن وهو مصدر متاعبها . وتعلم انه لا يبالي ماذا يفعل في سبيل غرضه . لا يرعى ذمة ولا يتجنب حراماً فنظرت الى ياقوتة قائلة « ان صلاح الدين قد فاز بما يريد . . . »

فقالت ياقوتة « ان نجاة ذلك الخائن كدرتني كثيراً ولكن ما العمل . . لا بد من ان يرجع كيده في نحره . . لان الله غريمه . ولم يعد يهمنا أمره ونحن في حياطة صلاح الدين . . والآن جئتك بشيء يعزيك على هذه المصيبة »

فبغتت سيدة الملك وقد اصبحت تبغت لكل جديد تتوقعه لفرط قلقها على عماد الدين فقالت « ما وراءك ؟ »

فضحكت وقالت « اني عاتبة عليك بالنيابة عن عماد الدين . . كيف تعلمين بمجيء رسول من عنده رآه قبل سفره وخاطبه وعلمنا من كتابه انه سجين ولا تسألين عن ذلك الرسول حتى تستزيديه ايضاحاً او تحمليه رسالة ؟ »

فتنهدت سيدة الملك وقالت « آه يا ياقوتة قد اقلقتك بكثرة الاسئلة . . هل تتوهمين اني غفلت عن هذا الفكر ؟ . ان رسول عماد الدين يؤنسني اذا رأيته . . وكنت عازمة على استدعائه اين هو ؟ . »

قالت « اخبرني بهاء الدين الآن ان ذلك الرسول يطلب ان يراك وان عماد الدين كلفه بذلك . . »

فتوردت وجنتاها وقد اخذها الفرح ولم تتمالك ان صاحت « عماد الدين كلفه ان يراني ! . . الحمد لله انه يفكر فيَّ . . هو اذاً يحبني . . » ثم تراجعت وقد ندمت على تلك الهفوة وخجلت وادارت وجهها الى حائط عليه ستارة موشاة بالالوان الجميلة تشاغلت بالنظر اليها

فقالت ياقوتة بصوت ضعيف « يا لله من الحب ! كيف يجعل سيدة الملك سلالة الخلفاء ونزيلة السلاطين يستخفها الفرح اذا سأل عنها شاب من . . »

فقطعت سيدة الملك كلامها قائلة « لا تقولي شيئاً عن عماد الدين انه عندي فوق الخلفاء والسلاطين . . صدقت ان الحب . . آه . . صرت اذكر الحب بين يديك بلا حياء . . ان الحب يفعل كثيراً . . والآن اين ذلك الرسول دعيه يدخل . . »

Marfat.com

الفصل الثامن والاربعون

رسول الحبيب

فخرجت ياقوتة وعادت بعد قليل ومعها شاب في زي اهل بيت المقدس الذي يلبسونه في الاسفار. حول رأسه الكوفية كالخمار وقد تسربل بالسراويل القصيرة وحول خصره منطقة عريضة من الجلد غرس في مقدمها خنجراً صغيراً ولف حول ساقيه لفافة من النسيج تسهل عليه المشي السريع

فلما دخل وقف متهيباً متأدباً فارسلت سيدة الملك خمارها ورحبت به قائلة « ما اسمك يا غلام ؟ »

قال « اسمي جرجس »

قالت « انت مسيحي اذاً ! »

قال « نعم يا سيدتي »

قالت « من اين انت آت ؟ »

قال « جئت من بيت المقدس برسالة الى السلطان صلاح الدين وقد أديتها بالأمس ولكن صاحب تلك الرسالة اسرَّ اليَّ امراً خصوصياً كافني به يتعلق بسيدة الملك »

قالت « وما هو ذلك الامر ؟ انت بين يدي سيدة الملك الآن »

فاطرق احتراماً وقال « ايكما هي ؟ »

فتقدمت ياقوتة وقالت وهي تشير الى سيدتها « هذه مولاتنا سيدة الملك قل ما عندك . وارجو ان تكون صادقاً في ما تقول »

قال « وما الذي يحماني على الوقوف بين يديها ان لم اكن صادقاً في مهمتي وخصوصاً ان الامر الذي جئت به سرٌّ لم يطلع عليه احد سواي ، ولولا ذلك لم اكن لاستطلع الغيب واتصدى له »

قالت ياقوتة « صدقت يا شاب بارك الله فيك . . » ورأت ان تتولى هي السؤال عن عماد الدين فقالت « كيف فارقت عماد الدين ؟ . »

قال « لم يبق اسمه عماد الدين يا سيدتي بل هو يسمى الآن عبد الجبار »

قالت « ونعم الاسم . كيف عرفته ؟ من اسرَّ اليك هذه المهمة ؟ »

قال « عرفته في احرج المواقف وما لبثت ان تعرفته حتى تعشقت اخلاقه وصرت

افديه بروحي .. انه شاب نادر المثال بالمروءة والحمية »

ولما سمعت سيدة الملك اطراءه اشرق وجهها وخفق قلبها وتطاولت لتسمع بقية الحديث . اما ياقوتة فاجابته وهي تطهر السذاجة قائلة « امر غريب ! يظهر انك عاشق له .. قل كيف وقع ذلك .. وما هي المهمة التي جئت بها ؟ »

فقال « كان عماد الدين مارًّا ببيت المقدس في طريقه الى نواحي حلب في امر لا اعلمه فقبض عليه الافرنج خداعاً وسجنوه . وكنت انا مسجوناً مثله فتعارفنا في السجن فرأيت فيه اخلاق الملوك وتجاذبت قلوبنا فاحببته واخلص لي وتكاشفنا في امور كثيرة فلم يذكر لي شيئاً يتعلق بسيدة الملك . ثم اتيح لي الخروج من السجن وتقربت من صاحب بيت المقدس الافرنجي واصبح همي انقاذ صديقي سالم من السجن فلم يسعدني الحظ بعد . لكنني كنت اتردد عليه دائماً واتفقده بما يخفف عنه . وسمعنا في اثناء ذلك بما حدث هنا من موت الامام رحمه الله وتغيير الاحوال وانزال اهل الخليفة في هذا القصر بالاكرام وكنت اقص عليه كل ما اعلمه وفي جملة ذلك المؤامرة التي تعاميتها وقد بعثني صاحب بيت المقدس دليلاً للوفد الذي جاء لتقديم الهدايا وجئت لوداع سالم فكلفني بايصال كتاب الى السلطان صلاح الدين . ثم اسرَّ اليَّ ان ابحث عن سيدة الملك واطمئنه عن حالها وها اني بين يديها »

فقالت ياقوتة « وما الذي اطلعك عليه من علاقته بها »

قال « لم يذكر لي تفصيلاً كثيراً لان الوقت لم يكن يأذن بالتطويل ولكنني فهمت من عرض الحديث انه يجل سيدة الملك كثيراً . وقد خطر له انكم تستغشونني ولا تصدقون قولي فدفع الي هذه الجوهرة على سبيل الامارة » ومد يده الى جيب في منطقته واستخرج جوهرة دفعها الى ياقوتة فتفرست فيها واقتربت من سيدة الملك فلما رأتها قالت همساً « هذه احدى جواهر العقد الذي اعطيناه اياه تلك الليلة » وتأكدت ثقة عماد الدين به والتفتت الى الشاب وقالت « صدقت .. قد تأكدنا الان انك رسول منه . كيف هو ومتى يخرج من السجن واذا خرج الا يأتي الى هنا ؟ »

قال « سيخرج قريباً ان شاء الله وهو في خير واذا خرج لا اظنه يأتي توًّا الى هنا بل عليه مهمة لا اعرفها . وقد كلفني ان اقول لك انه سيعود الى هنا متى فرغ منها »

فانقبضت نفسها واطرقت ثم رفعت بصرها اليه وقالت « اذاً هو في خير وهذا يكفي .. اذا دفعنا اليك امانة هل توصلها اليه ؟ »

فوضع يده على رأسه وقال « كيف لا يا سيدتي اني اتمنى خدمة اوديها له ..

Marfat.com

فاشارت الى ياقوتة فدنت منها فامرتها ان تستخرج بعض الجواهر تبعث بها اليه وان تكتب اليه كتاباً تؤكد له فيه بقاءها على حبه وانها تتوقع رجوعه بفارغ الصبر

ففعلت ووضعت الجواهر والكتاب في كيس خاطته ودفعته الى الرسول . ودفعت اليه صرة فيها خمسون ديناراً وقالت هذه اجرة الطريق • فاخذها وشكر وانصرف وظلت سيدة الملك برهة بعد ذهابه وهي تخاطب ياقوتة بشأنه وياقوتة تصبرها حتى يعود

الفصل التاسع والاربعون

السلطان نور الدين

واما ابو الحسن فقد علمت انه نجا تلك الليلة من القبض عليه لانه كان لفرط دهائه وحذره يحتاط لكل شيء . وكان قد اعد منفذاً من قاعة الاجتماع الى بيت ذلك اليهودي حتى اذا داهمهم مداهم فرّ من هناك لا يبالي بما يصيب رفاقه — وانما هو يطلب النجاة لنفسه

قضى بضعة ايام مختبئاً في بعض المنازل حتى علم ما كان من عاقبة رفاقه المتآمرين وكيف قضي عليهم بالصلب فيئس من مصر ورجالها . ولكن مطامعه ما زالت تريه المحال ممكناً — والمرء اذا رغب في شيء وان كان بعيداً فان رغبته فيه تريه اياه قريباً — فاعمل فكرته في سبيل آخر يسعى فيه للانتقام من سيدة الملك • وقد علم في اثناء تربصه انها هي التي استعانت بخادمه جوهر على كشف امرهم فازداد حنقاً عليها فخطر له بعد التفكير ان يستعين بالسلطان نور الدين صاحب الشام • يحمل اليه اسراراً هو مطلع عليها تتعلق برغبة صلاح الدين في الاستقلال بمصر وما صرح به ضد نور الدين . فيشي به الى نور الدين ويحمله على محاربته واخراجه من مصر عنوة • وان يشهد هو ذلك الفتح فيجعل غنيمته منه سيدة الملك • واستسهل كل صعب في هذا السبيل رآه قريب المنال

فلما اقتنع بصحة رأيه احتال في القرار من مصر طالباً دمشق الشام وواصل المسير وجدّ فيه فوصل دمشق متنكراً بثوب تاجر مصري ونزل في خان من خاناتها قريب من القلعة وهي يومئذ مقرّ السلطان نور الدين • ودمشق زاهية بذلك السلطان العظيم واهلها فرحون بما ناله من الانتصارات المتوالية على الافرنج في مواقع مختلفة

Marfat.com

من بلاد الشام . لكنه لم يكد يستقر به الجلوس في الخان حتى سمع لغط القوم بانحراف صحة السلطان منذ ايام وقلق الناس على حياته لانه اصيب بالخوانيق . فاخذ ابوالحسن يفكر في وسيلة يتصل بها الى مجالسته والمداولة معه في امر مصر

وسأل عن طبيبه الخاص فعلم انه الرحبي وهو من حذاق الاطباء وكانت له معه معرفه . فسار اليه فوجده في منزله فاستقبله الطبيب احسن استقبال وكان قد لقيه بمصر وعرف منزلته من الخليفة العاضد فسأله ابوالحسن عن حال السلطان فقال «انه مصاب بالخوانيق وقد اشتد عليه المرض لانه ابى الفصد » فاظهر اسفه وقال « الا يتيسر لي ملاقاته لعلي اقنعه بالفصد . ولي معه حديث اذا اطلعته عليه سرّي عنه »

فرأى الطبيب ان يستعين به على ذلك وهو مطلع على قلق السلطان نور الدين من جهة مصر فظنه يرغب في استقبال ابي الحسن لعله يستطلع منه امراً جديداً فيأذن بمقابلته ولو كان مريضاً . فاستمهله الطبيب الى صباح اليوم التالي

وجاءه ابوالحسن في الصباح فقال له « ان مولانا السلطان احسن حالاً الآن وقد ذكرتك له فاحب ان يراك »

ففرح ابو الحسن بقبوله وركب مع الطبيب الى القلعة . وكان السلطان مقيماً في غرفة من غرفها اصابه المرض وهو فيها فبقي هناك . فدخل الطبيب اولاً واستأذن لابي الحسن فاذن له فدخل وهو يتلطف في التحية والاحترام . وكان قد عرف السلطان من قبل واجتمع به غير مرة وعهده به قوي البنية مشرق الوجه فرآه قد تغيرت حاله . وكان السلطان نور الدين اسمر اللون طويل القامة ليس له لحية الا في حنكه وكان واسع الجبهة حسن الصورة حلو العينين ولكن المرض ذهب بلمعانهما وقد امتقع لونه فلما رأى ابا الحسن داخلاً ابتسم له على عادته بالملاطفة والمجاملة

فاكب ابو الحسن على يده كانه يريد تقبيلها فامتنع نور الدين عن ذلك واشار اليه ان يقعد . ولم يكن في تلك الغرفة شيء من الرياش لانها ليست القاعة التي يقابل الناس فيها وانما اتفق وجوده هناك عند الاصابة

جلس ابو الحسن على وسادة وقال « كيف مولانا اليوم ارجو ان يكون في صحة لان سلامته سلامة الدولة وفي شفائه شفاء الاسلام . وارجو ان لا اكون قد ثقلت عليه بقدومي »

فقال نور الدين وصوته ضعيف من الخوانيق « الحمد لله على كل حال .. وأما قدومك فقد سرّني لعلمي انك قادم من مصر وفيها حبيبنا ووزيرنا الملك الناصر

Marfat.com

كيف فارقته ؟ »

فلما سمعه يلقب صلاح الدين بالحبيب تشاءم لكنه عزم على المراوغة فقال « هو في خير بظل مولانا السلطان الملك العادل »

قال « كيف فارقت مصر ؟ »

قال « فارقتها واهلها يتشوقون الى طلعة مولانا السلطان اعزه الله ويتمنون لو انه شرفهم بالزيارة ليرى مملكته الجديدة .. »

فاشرق وجه نور الدين وسرّه ان يسمع ذلك من امير مصري كان من المقربين للدولة الماضية فقال «ولكن بلغنا ان بعضهم تآمروا على خلع الطاعة . فهل ذلك صحيح ؟»

قال « نعم يا سيدي انهم تآمروا ولكن ليس على خلع طاعة السلطان نور الدين»

قال «وكيف اذن ؟ .. » وبدت البغتة في عينيه ونسي مرضه واخذ يعبث بجانب لحيته عند الحنك وتفرس في عيني ابي الحسن ليرى ما يبدو منه

فقال ابو الحسن « ان اهل مصر من اقرب الناس الى الطاعة ولكن .. » وبلع ريقه وتنحنح واظهر انه يكتم امراً لا يحب التصريح به

فقال نور الدين « ما بالك ؟ ... ولكن ماذا ؟ »

قال « لا احب ان ازعج سيدي السلطان بامور لا اظنها تسرّه .. »

فبدا الغضب في وجه نور الدين وقال « قل .. قل .. تآمروا على خلع من ؟ »

قال « انهم تآمروا على خلع طاعة السلطان صلاح الدين »

قال « اليست طاعته طاعتي ؟ »

قال « بلى .. هكذا يجب ان يكون ولو طلب طاعتنا باسم السلطان نور الدين لما وجد مخالفاً »

قال « وكيف طلبها اذاً ؟ »

قال « يظهر لمن اصحاب البريد يخفون الحقيقة عن مولانا السلطان فاذا اذن لي تكلمت »

قال « قل .. قد اذنت لك »

فالتفت ابو الحسن الى الطبيب كانه يستشيره في هل يضر الغضب في صحة السلطان ، فتقدم الطبيب الى السلطان وقال « أرى مولانا السلطان قد بان الغضب في وجهه وهو مريض ألا يؤجل هذا الحديث الى وقت آخر ؟ »

فقال « كلاّ .. اني في خير .. فليقل ما يشاء »

Marfat.com

فاعتدل ابو الحسن في مجلسه وقال « ان وزيرك صلاح الدين لم يطلب طاعة المصريين باسمك ولكنه طلبها باسمه وزعم انه هو صاحب الامر وليس للسلطان نور الدين شيء منه . وقد قاومناه وتآمرنا عليه لاننا لا نريد ان نعرف غير مولانا نور الدين سلطاناً . وانا استغرب اختفاء ذلك عنه . وقد صرح صلاح الدين بذلك في جلسة علنية — حتى ان اباه نجم الدين انتهره وامره بالكتمان . » قال ذلك وسكت

الفصل الخمسون

الفشل

وكان نورالدين حسن الفراسة فاطرق هنيهة يفكر في ما سمعه وهو يعبث بلحيته فلم تعجبه تلك الوشاية من عدوٍّ طبيعي لهما ولا سيما بعد ان سمع اعترافه بانه كان من المتآمرين على صلاح الدين . وأدرك انه لو كان صادقاً في طاعته لنور الدين لم يساعد على خلع الطاعة بتلك الصورة بل كان عليه ان ينقل خبر صلاح الدين اليه . فترجح لديه كذبه فقال « وماذا ترى الآن ؟ »

قال « ارى ان لا يستخف مولانا السلطان العادل بمطامع وزيره فانه قد جاهر باستقلاله بمصر قبل موت الامام العاضد فكيف به الان ؟ فما على السلطان الا ان يجرد عليه ويخضعه وانا في خدمته افديه بدمي »

فحملق السلطان نور الدين عينيه السوداوين وكاد الشرر يتطاير منهما لشدة الغضب وقال « لو كنت صادقاً في نصحك لحملت الينا هذه الوشاية من قبل . فصبرك عليها حتى الآن حجة عليك وعلى اصحابك المتآمرين . . انما انتم تآمرتم على خلع طاعة نور الدين .. بل اردتم نقض بيعة الامام العباسي لانه سني .. وطمعتم باسترجاع السيادة لانفسكم ... » وكان يتكلم وهومستلق واخذ يرتعد من الغضب فاعتدل يريد الجلوس فاعانه الطبيب على ذلك وندم على الاذن له في الكلام

فاخذ ابو الحسن يتنصل من تلك التهمة وقال « لم احسن التعبير عن مرادي يا سيدي . اني اصدقك الخبر . ان ما قلته هو الصحيح .. نحن طائعون للسلطان نور الدين و.. »

قال « لو كنتم صادقين لاطعتم وزيري ونائبي صلاح الدين .. لكنكم تعودتم التملق والتذبذب .. ما الذي اساءكم به صلاح الدين ؟ الم ترسلوا الينا شعور نسائكم تستغيثون

Marfat.com

بنا فانفذنا اليكم عمه شيركويه وقد انقذكم ؛ وهذا صلاح الدين اخمد العصيان واصلح البلاد وابطل الضرائب . فكان ينبغي ان تعرفوا له فضله ... ولكن قوماً يبلغ بهم الذل حتى يستشفعوا بشعور نسائهم لا يرجى منهم وفاء .. لا ازال اذكر سوء وقع ذلك في مجلسنا يوم اتتنا تلك الشعور في المناديل وقد عقد المجلس للنظر في طلب امامكم . وكان بين الغلمان شاب صغير لم يملك حين رأى تلك الشعور ان تقدم اليَّ ان اعطيه خصلة منها حمراء ذهبية وكان مقرباً من صلاح الدين فدفعتها اليه لارى ما يبدو منه . فلما تفرس فيها قال « ان صاحبة هذا الشعر الجميل لا تمتهن وهي اما بنت الخليفة او اخته فاني معيده اليها . فاذنتُ له باخصلة فاخذها في منديلها ولا ادري اذا كان قد وفق الى ما اراد .. فكيف ترجو ان اتوقع منكم وفاءً ؟ وقد جئتني الآن تريد الايقاع بيني وبين نائبي . هب انه اراد الاستقلال بمصر فليأخذها هو فان البيعة واحدة ولا ترجع لكم .. » ولما بلغ الى هنا بان التعب عليه وحوَّل وجهه عن ابي الحسن باحتقار وادار له ظهره وعاد الى الرقاد وهو يلهث من التعب .

اما ابو الحسن فجمد الدم في عروقه من الفشل واحس كأنك صبّت عليه ماءً بارداً . واخذ يرتعد وقد وقع خبر خصلة الشعر عليه وقوع الصاعقة لعلمه انها من شعر سيدة الملك . فاشار اليه الطبيب ان يخرج حالاً لان السلطان اصابته نكسة بسبب الغضب . فخاف ابو الحسن ان يأمر السلطان بالقبض عليه فخرج مسرعاً واختفى في مكان لا يعرفه فيه احد ريثما يرى ما يكون

وفي الصباح التالي طاف المنادون في المدينة ينعون السلطان نور الدين (توفي في ١١ شوال سنة ٥٦٩) وتناقل الناس عن سبب وفاته بعد ان تحسنت صحته انه غضب من بعض الناس فاصابته نوبة ذهبت بحياته . فاسقط في يد ابي الحسن وعمد الى الفرار وقد تولاه اليأس واظلمت الدنيا في عينيه

خرج من دمشق وهو يرغي ويزبد من شدة الغضب والخادم في ركابه لا يجسر على النظر اليه . حتى اذا مرَّ بالغوطة وصل الى عين ماء جارية يظللها ويحيط بها الشجار التفاح والسفرجل والمشمش وسائر انواع الفاكهة وقد دخل الربيع[1] وتفتحت الازهار وتغنت الاطيار . والطبيعة باسمة ضاحكة الا ابا الحسن فانه لم يكن يرى شيئاً غير الفشل نصب عينه . وانما نبهته البغلة الى الوقوف هناك لانها رأت الماء جارياً فهاجها العطش فمالت الى قناة الماء لتشرب . فانتبه ابو الحسن وقد صارت الشمس في الضحى

(١) يقع شهر شوال من تلك السنة (٥٦٩ هـ) في مايو ويونيو ١١٧٤م (التقويم العام)

Marfat.com

وهو في الخلاء لا رقيب عليه . فلاح له ان ينزل هناك ليستريح فترجل وسلم البغلة الى الخادم يهتم بامرها . وتغلغل بين الاشجار على غفلة من البستاني لانهم لا يتوقعون نزول الناس هناك في مثل تلك الساعة

أما ابو الحسن فلما خلا بنفسه قعد الى جذع مشمشة تدلت اغصانها تحمل نوعاً من المشمش يفاخر به اهل الشام سائر المشرق ويعرف الآن بالمشمش الحموي ينضج في ابان الربيع وفيه لذة وفكاهة والناس يقصدون الغوطة للتمتع بمنظره وطعمه

اما ابو الحسن فلم يخطر بباله شيء من ذلك لكن اشراق الطبيعة اذكره ماضيه واوضح له ماهو فيه فازداد انقباضاً . مكث برهة يفكر وهو في غفلة عن زقزقة العصافير وتطايرها ومداعباتها وليس فيها من يخاف الفشل لانها مثل سائر الاحياء لا تطلب من الطبيعة غيرضروريات البقاء وهي ميسورة . اما الانسان فمن مطالبه ما لا ينال الا بالجهد والعناء وهو لا يبالي ان يرتكب في سبيل نيله انواع المحرمات

وبعد السكوت مدة نبهته حشرة انسابت بجانبه بين العشب فالتفت الى ما يحدق به من جمال الطبيعة وبهائها فاتضحت له الظلمة التي هو غارق فيها . ومرّ تاريخ حياته في خاطره مرور السهم فلم يزدد الا انقباضاً وتبين له ان سبب هذا الشقاء انما هو رفض سيدة الملك له . فاشتدت نقمته عليها واغتنم غياب خادمه واخذ يناجي نفسه قائلاً :

« ويل لك يا لعينة . . تفضلين ذلك الغلام عليّ ؟ اما كان الافضل لك ان يكون ابو الحسن زوجك ويبقى هذا الملك لنا . كنت قادراً ان اقتل صلاح الدين ولم افعل لاني اريد ان استثمر تعبي بنفسي لا ان يستغله سواي . علمت انك تشكين في صحة نسبي ولا تعتقدين اني من بني عبيد الله . اصبتِ لستُ منهم ولكن شرف النسب وهمٌ . . انما الرجال بالاعمال وقد انتحات ذلك النسب لان الناس يحترمونه . وظننته يكون وسيلة اليك والى الملك فلما اوشكت الوصول الى الغرض عرقلت مساعيّ بغطرستك وتعلقك بذلك الخادم »

ثم اجفل لسقوط مشمشة وقعت على الحشيش اليابس فاحدثت حفيفاً فتحولت افكاره الى مجرى آخر . فتذكر صباه فقال « وانت يا راشد الدين قد آن الوقت لاستعين بك على هذه الفاجرة — لا لاتزوجها بل لاذيقها العذاب ثم اريها رأي العين سوء تصرفها فتندم حين لا ينفعها الندم » وكانه عزم على امر توسم النجاح فيه فارتاح باله وانقشعت السوداء عن مخيلته وقد احس بالجوع فالتفت الى ما حوله فلم يجد احداً فصفق للخادم وناداه فاتى فاوعز اليه ان يأمر البستاني يهيء له طعاماً وفاكهة . فاطاعه

Marfat.com

فاكلا . وعاد ابو الحسن الى تدبير ماعزم عليه فلنتركه في تدبيره ولنبحث عن عماد الدين فقد طال بنا السكوت عنه

الفصل الحادي والخمسون

في السجن

علمت من سياق الحديث ان عماد الدين لاقى في سفره عذاباً اذ قبض عليه الافرنج بقرب بيت المقدس لاعتقادهم انه جاسوس وسجنوه مدة تعرَّف في اثنائها الى جرجس هذا كما تقدم . ولم يكن جرجس مسيحياً كما قال وانما هو من كبار الفدائيين الإسماعيليين وأسمه الحقيقي عبد الرحيم بعثه راشد الدين لقتل أموري الافرنجي صاحب بيت المقدس . فتنكر باسم جرجس واحتال حتى جعلهم يقبضون عليه ويسجنونه ليتمكن في أثناء سجنه من التعرف الى صغار اهل البلاط ويطلع على خفايا القصر بحيث يسهل عليه الوصول الى غرضه . وعادة أولئك الفدائيين في تنفيذ امر مولاهم راشد الدين ان احدهم اذا كلف بقتل احد الملوك جعل نفسه من اصغر خدمه . والغالب ان يجعل نفسه سائساً لجواده ليتيسر له الاقتراب اليه عند الركوب والنزول فيغتنم غفلة منه يغرس بها خنجره في صدره

ففي أثناء اقامة عبد الرحيم (او جرجس) هذا في السجن تعرف الى عماد الدين واحبه وتمكنت العلائق بينهما فكاشفه عبد الرحيم بحقيقته وكيف انه مسلم وانه احتال بالسجن ليتوصل الى غرضه ويقتل صاحب بيت المقدس باشارة مولاه راشد الدين واخذ يرغبه في هذه الطائفة ونبالة مقاصدها وشدة تأثيرها . فحمد عماد الدين السبب الذي جرَّه الى ذلك السجن لانه كان وسيلة الى هـذا التعارف وسهل عليه مهمته . واظهر ارتياحه لذلك الرأي ووعده انه ينتظم في سلك الإسماعيلية بعد خروجه من السجن وهو يضمر ان يجعل ذلك الانتظام وسيلة لتنفيذ مهمته التي جاء من اجلها لقتل راشد الدين . وبذل جهده في اكتساب ثقة عبد الرحيم واطاعه في تغيير اسمه فجعله عبد الجبار »

ايام السجن طويلة لانها خالية من العمل فيملّ المسجونون الفراغ ويضطرون لقضاء الوقت بالاحاديث او الالعاب . فكان عبد الرحيم يقضي معظم الوقت في التحدث عن راشد الدين وكراماته ومقدرته وكيف انه يعلم الغيب وينبأ عن المستقبل ويحدث

Marfat.com

الاحجار ويأتي بالمعجزات. وانه يفعل ذلك لا لطمع في الدنيا وانما هو ينصر الاسلام. واستشهد على صحة قوله بالمهمة التي اتى هو بها لقتل صاحب بيت المقدس. وكان كلما ذكر راشد الدين ثارت الحمية فيه وهاجت عواطفه واصبح كله السنة تنطق بفضائله. فكان لاقواله مع التكرار تأثير على عماد الدين فاصبح يرى وجود راشد الدين قوة عظيمة يمكن الاستعانة بها على الافرنج اذا تمكن من اكتساب صداقته. على ان ماسمعهُ من معجزات ذلك الرجل وكراماته وعن جنته وسمائه حبب اليه الاطلاع على حقيقة ذلك

تمكنت هذه الصحبة بينهما. ثم انتهت ايام عبد الرحيم في السجن وخرج واهل البلاط يحبونه ويرون بوجوده نفعاً لهم لانه مسيحي يعرف لغة البلاد وعاداتها. فقربوه وهو يبذل جهده في مرضاتهم توصلاً الى غرضه فلما دارت المخابرة بين الحزب العبيدي في القاهرة وبين الافرنج وانتهت بارسال الوفد اختاروه ليكون دليلاً. فذهب لوداع عماد الدين فاسرَّ اليه ما تقدم ذكره فبذل جهده في خدمة صديقه رغبة في ادخاله سلك الاسماعيلية لانه آنس فيه من الشجاعة والذكاء ما يندر مثاله وهم في حاجة الى الشجعان

فلما عاد من تلك المهمة توسط في اخراج عماد الدين من السجن وأبلغه ثمرة كتابه الى صلاح الدين وكيف انه قبض على المتآمرين وقتلهم صلباً الا أبا الحسن اخبره انه نجا. ثم دفع اليه كتاباً من صلاح الدين يثني فيه على حميته. وصدق مودته وبعث اليه مالاً يستعين به

ثم اطلعه على ما عرفه عن سيدة الملك ودفع اليه كتاب ياقوتة والجواهر. فتناولها واعطى قسماً منها الى صديقه عبد الرحيم فازداد تعلقاً به — وليس كالسخاء يحبب صاحبه الى الناس مهما يكن فيه من العيوب. حتى جرى على السنة العامة قولهم « ما من عيب الا والكرم غطاه » فكيف اذا كان الكريم قليل العيوب او لاعيب فيه ؛ ولو علم الاغنياء ما يغطيه الكرم من عيوبهم لكرهوا البخل وبعدوا عنه — وكما يذهب الكرم بعيوب الاغنياء فالبخل يلصق بهم عيوباً ليست فيهم

واسرع عماد الدين الى كتاب ياقوتة فقرأ فيه قولها :

« سلامٌ عليك يا عماد الدين • جاءنا صديقك وسرنا انك في صحة. ولكن ساءنا ما اصابك في السجن. على ان ما عرفناه من حب هذا الصديق لك وما يظهر فيه من المروءة والشهامة طمأننا عليك .. اننا نقيم الآن في دار الاضياف تحت رعاية السلطان صلاح الدين — انه شهم وقد اكرمنا غاية الاكرام. ويسرني ان اخبرك بانه جعل

Marfat.com

مولاتي سيدة الملك اختاً له فهو يعاملها معاملة الاخت من كل وجه. وجاء ذكرك مرة امامه فاكثر من الثناء عليك وما يرجوه لك من المستقبل السعيد . انما ساء سيدتي انك في السجن على ان صديقك جرجس بشرنا بقرب خروجك منه سالماً معافى ولكن عظم علينا انك ستبطىء في المجيء الينا . عجل ولاتقطع اخبارك وعليك السلام»

فلما قرأ الكتاب احسَّ بشيء جديد لم يشعر به من قبل . وقد كان الى تلك الساعة مضطرب الافكار من جهة سيدة الملك لعلمه ان صلاح الدين خطبها لنفسه . وراى من الجهة الثانية ما اظهرته من الميل اليه حتى اوشكت ان تقول له صريحاً انها عاشقة له تتفانى في حبه . فوقع في حيرة وانما شغل عن ذلك بالاسفار وملاقاة الاخطار ليرى ما تأتي به الاقدار . فلما اطلع على كتاب ياقوتة وعلم ان صلاح الدين لا يريد الزواج بسيدة الملك ورأى عطفها عليه في ذلك الكتاب مع اختصاره احسَّ انها له وحده . واضطرمت نيران الحب في قلبه دفعة واحدة كأن لواعج تلك المدة كلها اجتمعت في ذلك اليوم وظهرت دفعة واحدة . فاصبحت صورة سيدة الملك نصب عينيه كيفما توجه وهو لا يزال يتذكر منظرها في تلك الليلة وهي واقفة تودعه وتتعجل نزوله في السراديب . ولم يكن يومئذ يشعر بشيء من تلك العواطف

الفصل الثاني والخمسون

السفر

وتذكر خصلة الشعر الحمراء وكيف تجاسر على طلبها من عماد الدين وهو غلام لا شأن له وكيف اذن له نورالدين ان يأخذها . ثم كيف وفق للاجتماع بصاحبتها وهي في اشد الخطر فانقذها ودفع اليها الخصلة . مرَّ ذلك كله بذهنه في لحظة فتحقق ان المقادير اعدت له هذه النعمة فاذا وفق الى اتمام مهمته بلغ اوج السعادة . فبدأ يشعر بالسعادة من ذلك الحين — ولا سعادة بدون الحب .. اختلف الناس في تعريف السعادة فجعلها بعضهم في المال وآخرون في الشهرة وآخرون في الصحة وذهبوا فيها مذاهب شتى : لكن المحبين يعلمون ان السعادة في تبادل المحبة بين حبيبين يرجوان ويخافان يلتقيان ويفترقان وهما في كل حال في سعادة الاجتماع اما بالفعل أو بالامل . لا فرق في ذلك رافقهما الغنى او الفقر الشهرة او الضعة .. انهما سعيدان في كل حال

شعر عماد الدين بعد تلاوة الكتاب بما لم يشعر به قبله . واصبح شديد الرغبة

في سرعة الرجوع الى القاهرة . وكان عبد الرحيم في خلال ذلك واقفاً يراقب حركات صديقه مخافة ان يكون في ذلك الكتاب ما يبعثه على تغيير خطته وهو يحب ان يدخله في طغمة الاسماعيلية . وانتبه عماد الدين لنفسه فرأى صديقه قاعداً بجانبه فقال له « اني اشكرك ايها الصديق على هذه الخدمة الثمينة جزاك الله خيراً . »

قال « هذا واجب اديته لا فضل لي به . وهل اذا اتيح لك ان تخدمني مثل هذه الخدمة تتأخر ؟ »

فثارت النخوة في رأس عماد الدين وقال « افديك بروحي » ولم يقل ذلك حتى احس بشيء في داخله يعترض ذلك القول لانه شعر من تلك الساعة ان روحه ليست له او هو يود البقاء ليرجع الى حبيبته ويتمتع باللقاء

اما عبد الرحيم فاعجبه ذلك التعبير منه وقال « سترى من هو اولى مني بالفداء . ان الشيخ راشد الدين امامنا ومولانا نفديه كلنا بارواحنا . وستذوق هذه اللذة متى صرت واحداً منا . هل انت عازم على الدخول معنا في هذا الامر ؟ ام غيرك هذا الكتاب ؟ » وضحك .

قال « لم يغيرني شيء وما هي السبيل الى ذلك ؟ كيف اذهب والى اين وما هي الطريقة ارجو ان تساعدني وترشدني »

فمرح عبد الرحيم وقال « اني طوع ارادتك . ساعطيك كتاب توصية الى دبوس نائب مولانا الشيخ الاكبر وهو يقيم معه في قلعة مصياف من جبل السماق من اعمال حلب ثم الحق بك بنفسي — يمكنك السفر اليوم . هل تعرف الطرق ؟ »

قال « اعرفها جيداً لاني ربيت في هذه البلاد »

فاخذ عبد الرحيم رقاً وكتب فيه توصية الى الشيخ دبوس نائب شيخ الجبل فتناولها عماد الدين وودعه وركب جواده قاصداً جبل السماق . وهو جبل عظيم من اعمال حلب يشتمل على مدن كثيرة وقرى وقلاع كلها للاسماعيلية وفيه بساتين ومزارع لكن المياه الجارية فيها قليلة الا ما كان من عيون ليست بالكثيرة في مواضع مخصوصة ومع ذلك ينبت فيه جميع اشجار الفواكه وغيرها حتى المشمش والقطن والسمسم

وقد اشتهر جبل السماق بالقلاع التي فيه للحشاشين الاسماعيلية وهي عديدة اشهرها مصياف وكهف والخوابي وعليقة ومرقب والرصافة وغيرها . يهمنا منها هنا مصياف وفيها يقيم زعيم الاسماعيلية راشد الدين وهي على مسافة ١٢ ساعة من حماة غرباً

Marfat.com

الفصل الثالث والخمسون

قلعة مصياف

اشتهرت هذه القلعة في زمن الاسماعيلية باقامة شيخ هذه الطائفة فيهـا . وهي واقعة على جبل مصياف وهو جبل شامخ يحيط به من الشرق والغرب مستنقعات واسعة . ينتهي من الشمال بقمة عالية فوقها قلعة منيعة هي مقر شيخ الاسماعيلية ومن اسباب مناعتها انها قائمة على صخر جوانبه عمودية يعسر تسلقها . وتشرف على ما يحيط بها من المستنقعات من كل ناحية . ومن جملة ذلك واد يقيم فيه بعض الفلاحين يزرعون الحنطة والشعير . وعلى مسافة من الجبل بلدة مصياف يسكنها طائفة من العامة (١)

اما القلعة فانها محاطة بسور غليظ ليس له الا باب سقفه عقد متين اذا دخل الرجل منه سار في دهليز كله معقود يتصل من الداخل الى قمة القلعة وما وراءها وفوقها من الغرف . وكلها مبنية من الحجر الصلد . وعلى السور ابراج متلاصقة تقيم فيها الحامية ترمي الهـاجمين عليها بالسهام او الحجارة قبل وصولهم الى الباب بمسافة بعيدة بحيث يستحيل اخذها بالهجوم الا بعد قتل المئات والالوف

برح عماد الدين بيت المقدس على جواده . وله الى جبل السماق عدة طرق لكنه احب ان يمرَّ بدمشق مرتع صباه وقد اشتاقت نفسه الى رؤيتها ومشاهدة بساتينهـا . فوصلها بعد بضعة ايام وكان وصوله اليها قبل وصول ابي الحسن بيومين وظل متنكراً لم يطلع احداً على حقيقة حاله . لكنه طاف المدينة وزار القلعة وشاهد كثيرين ممن يعرفهم . واتفق رجوع السلطان نور الدين من الميدان فرآه عائداً على جواده وحوله الامراء والاعوان . ففرح برؤيته لكنه بذل جهده في التنكر لئلا يشعر به احد وهو يعلم ما بين نور الدين وصلاح الدين من الفتور ويود زواله لكنه يميل ان يكون مولاه صلاح الدين الرابح

قضى معظم النهار في دمشق — أكل من طعامها وفاكهتها وتمتع بمناظرها ومرَّ عند خروجه بغوطتها ولعله مرَّ في نفس المكان الذي اجتازه ابو الحسن بعد يومين . وبات تلك الليلة في قرية بضواحي دمشق . وقام في اليوم التالي قاصداً جبل السماق وبات الليلة

(١) Burckhardt: Travels in Syria and the Holy Land, London 1822 . 159

Marfat.com

الثانية في بعض الخانات وقضى معظم اليوم التالي في الطريق ﴿ وكان في امكانه الوصول الى مصياف في اصيل ذلك اليوم لكنه فضل الوصول اليها في الصباح التالي

نبات في بعض القرى وركب في الصباح وبعد ساعتين اطل على جبل مصياف وعلى قمته القلعة تناطح السحاب . فهاله ما رآه من مناعتها ورسخ في اعتقاده انها امنع من عقاب الجو . ترجل هناك فجاءه شيخ من الفلاحين يعرض عليه خدمة يؤديها وقد ظنه من كبار الاسماعيلية وهم يعهدون فيهم الشدة والقسوة . وكثيراً ما شهدوا القتال بينهم وبين من جاء لمهاجمتهم من الجنود الشامية او الجبلية او المصرية فضلاً عما يتناقلونه من كرامات الشيخ راشد الدين وهم يسمونه شيخ الجبل باسم الحسن بن الصباح مؤسس هذه الطغمة . حتى اوشكوا لفرط ما استولى عليهم من الاعتقاد بكرامته ان لا يحدث حادث غريب مخيف الا نسبوه اليه ولو كان من العوارض الطبيعية كالمطر والرعد والبرق واصبح اسمه فزاعة لاعدائه وتعويذة لمريديه

وكان همُ عماد الدين عند وصوله ان يلقى الشيخ دبوس ويدفع اليه كتاب التوصية الذي يحمله من عبد الرحيم فلما جاءه ذلك الفلاح الشيخ سأله عماد الدين عن راشد الدين اين هو

فاجفل الرجل وتفرس في عماد الدين وقال « يظهر انك غريب عن هذه الديار يا سيدي ؟ »

قال « نعم »

قال « وما الذي جاء بك الى هنا وماذا تريد من شيخ الجبل ؟ »

قال « اني احمل كتاباً الى نائبه الشيخ دبوس »

قال « دبوس ! طيب . . ظننتك تطلب الشيخ راشد الدين نفسه فانه لا يطمع احد برؤيته .. حتى اصحابه واعوانه انهم لا يرونه ولا يؤذن لاحد برؤيته الا في بعض الاحوال الخصوصية »

فقال عماد الدين « وانت من انت يا عماه ؟ العلك من رجاله .. »

فقطع الشيخ كلامه قائلاً « حبذا ذلك ..ان مثلي لا يطمع بهذا الشرف ويكفينا من جواره ان نقوم بخدمته بما نغرسه من الحنطة او نرعاه من الماشية له ولرجاله في مقابل بقائنا في قيد الحياة . »

قال « والان احب ان اقابل الشيخ دبوس فهل ذلك ميسور؟ »

قال « لا ادري . اعطني الكتاب اذا شئت لاوصله الى بعض رجاله فيوصله اليه ثم آتيك بالجواب »

Marfat.com

فدفع اليه الكتاب فتناوله وركض نحو الجبل ومكث عماد الدين في انتظار عودته وقد امسك زمام فرسه بيده وادار بصره في ما يحيط به من السهل المستنقع وذلك الجبل الشامخ القائم في صدره وفوقه قلعة مصياف وقد احدق بها السور والابراج . ولم يقدر ان يتبين طريقاً يتصل به اليها كأن اهلها يصعدون اليها على اجنحة النسور أو في المناطيد . فهاله ذلك وتمثل له الخطر المحدق بمن ينوي براشد الدين شرًّا . لكنه ازداد رغبة في استطلاع احوال ذلك الرجل — فاما ان يفتك به او يقرب ما بينه وبين صلاح الدين

الفصل الرابع والخمسون

الشيخ دبوس

قضى في ذلك ساعة ثم رأى الشيخ الفلاح راجعاً ومعه شاب في لباس السعاة بالسراويل القصيرة حاسر الرأس حافي القدمين عاري الصدر كانه من العفاريت . فلما وصل الى عماد الدين حياه ثم سأله عن غرضه فقال « احب ان اقابل الشيخ دبوس ؟ »

فمد يده وفيها كتاب التوصية وقال « هذا هو كتابك وما هو اسمك ؟ »

قال « عبد الجبار »

قال « وتريد ان تقابل الشيخ دبوس ؟ »

قال « نعم »

قال « اتبعني »

فتبعه ماشيا يقود فرسه والشاب يسير بين يديه وهو يتلفت اليه بجيل نظره فيه كالمتفرس . فاستغرب عماد الدين تلفته وتفرسه ولو كان جباناً لوقع الرعب في قلبه ولكنه كان شجاعاً لا يعرف الخوف

وبعد قليل وصلا الى قاعدة الجبل فاشار اليه الشاب ان يترك الجواد هناك ويتبعه فتردد عماد الدين لحظة فقال له « لابد من ترك الجواد هنا والا فارجع من حيث اتيت »

فاطاعه ومشى في اثره في طرق متعرجة بعضها منقور في الصخر وبعضها سلالم من الحجر يصعب تسلقها . والرجل يقفز بين يديه كالنمر لا يبالي بالتعب وعماد الدين يجاريه لئلا يظهر عليه الضعف وهو ابيّ النفس

وبعد الصعود ساعة في تلك الطرق المتعرجة وصلا الى باب القلعة وهو غليظ متين. فوقف الشاب واشار الى عماد الدين ان ينتظر وتقدم هو الى الباب ودقه دقا خصوصيا ففتح وكان لفتحه صرير شديد. فدخل واغلق الباب وراءه وظل عماد الدين واقفاً ينظر الى ذلك البناء المنيع وهو لا يرى منه غير السور الغليظ وعليه الابراج. ولمح من شقوق الابراج او نوافذها الضيقة اناساً يذهبون ويجيئون كانهم الحامية

وبعد قليل عاد الرسول وقد لطف لهجته واشار الى عماد الدين ان يدخل فدخل من ذلك الباب تحت العقد الغليظ ومشى في دهليز طويل متعرج سقفه معقود وارضه من الصخر الخشن. وقد وقف الى جانبيه الحراس بالحراب والسيوف كانهم اصنام لا يتحركون. فهاله ذلك المنظر لكنه تشدد وتجلد وصمم على الصبر الى النهاية

سار في ذلك الدهليز مسافة وانتهى منه الى منفذ يستطرق الى ساحة حولها ابواب مغلقة فاشار اليه الرسول ان يتبعه ففعل حتى وصل الى باب منها فطرقه. ولما فتح تقدم الرسول الى عماد الدين ودفع اليه كتاب التوصية وتراجع واشار اليه ان يدخل. فتقدم فرأى نفسه في حجرة ببابها حراس بالحراب اشاروا اليه برؤوس الحراب ان يدخل فدخل. ثم وقف وتلفت فاذا هي غرفة واسعة قد فرشت بالسجاد وغطيت جدرانها بانواع الاسلحة. وفي جوانبها ضروب من آلات العذاب كالقيود والاغلال. وحول جدرانها مقاعد من الحجر المنحوت في ذلك الصخر فوقها غطاء من جلود الدب والاسد. وليس في تلك الحجرة حينئذ احد غير الشيخ دبوس رآه جالساً في صدر الحجرة على جانب من ذلك المقعد وعليه جبة تكسوه كله وعلى رأسه عمامة خضراء كبيرة فالقى التحية وقال « ألعلي في حضرة الشيخ دبوس ؟ »

فاشار الشيخ براسه ان « نعم » واومأ اليه ان يتقدم ويعطيه الكتاب ففعل فتناوله وفضه وقرأه. ولما فرغ من قراءته اومأ الى عماد الدين ان يجلس وهو يقول « ان ولدنا عبد الرحيم يوصينا بك خيراً . . تفضل يا عبد الجبار اقعد »

فقعد على طرف المقعد وهو ينتظر ما يكون فقال له دبوس « يقول لنا عبد الرحيم انك تطلب نعمة القربى من شيخنا وامامنا راشد الدين »

قال « نعم يا سيدي، فهل هذا ميسور لي ؟ »

فاطرق يفكر ثم قال « انه ميسور على شروط »

قال « وما هي يا سيدي ؟ »

قال « اعلم يا عبد الجبار انك قبل كل شيء ينبغي ان تنقي قلبك وتصفي نيتك

Marfat.com

وتستسلم الى هذا الامر بكليتك . هل انت فاعل ذلك ؟ »

قال « نعم »

قال « احذر ان تخدع نفسك فاني لا اقدر ان اعرف خفايا قلبك ولكن المولى الشيخ الاكبر لا تخفى عليه خافية . . انه فاحص القلوب اذا نظر في عينيك عرف مكنونات قلبك . فاذا كنت في شك من نيتك واستسلامك ارجع من هنا ولا تعرض نفسك للخطر . . اني انصح لك بناء على ما قرأته في كتاب التوصية من الثناء على شجاعتك وصداقتك . . واما اذا كنت قد أوتيت النعمة والهمت الانتظام في هذا السلك والحصول على العهد فقد ضمنت لنفسك الدنيا والآخرة . . وانا تاركك يوماً كاملا تفحص فيه ضميرك وتخبرني بما يقرُّ عليه رأيك »

فوقع كلام الشيخ من نفسه وقعاً شديداً وغلب عليه التردد وقام في اعتقاده صدق ما سمعه عن شيخ الجبل من استطلاع خفايا القلوب . ولكنه تجلد واظهر الثبات في عزمه وقال « اني على ما قلت وسأصبر يوماً آخر حسب امرك وأجيبك »

فهز رأسه استحساناً وقال له « فاخلع ما عليك من السلاح وهات ما عندك من الادوات او النقود او غيرها — تلك عادتنا في مثل هذه الحال ولا يخامرك شك في ما افعل فان هذه الاشياء تبقى عندي باسمك »

فعظم هذا الطلب عليه وعنده الجواهر . وقد شق عليه ان يفارق خنجره ويبقى اعزل فتوقف حيناً ولم يجب

فقال له دبوس « اعلم يا بني ان طالب الحصول على عهد مولانا الشيخ لا بد له من الاستسلام لكل ما يؤمر به بلا تردد . وقد خيرتك في الدخول او عدمه عملا بتوصية عبد الرحيم لانه ذو مقام عندنا . فاذا رأيت العدول عن عزمك رددنا اشياءك اليك »

فلم يرَ بدًّا من الطاعة لانه لم يوفق الى دفاع فقد يده واستخرج خنجره من منطقته ودفعه اليه . ثم استخرج ما كان عنده من الجواهر او النقود ودفع كل ذلك الى دبوس وقد احسَّ بالخوف من الخديعة لكنه اطمأن نوعاً لما رأى الشيخ يبش له وقد وضع اشياءه كلها في منديل واخفاه في حفرة باسفل المقعد . واومأ اليه ان يخرج الى غرفة أخرى يستريح فيها . فخرج وقاده احد الحراس الى حجرة خلا فيها بنفسه واخذ يفكر في ما سمعه وتحقق الخطر الذي اوقع نفسه فيه واصبح لا يعرف ماذا يعمل — أيعدل عن مهمته بعد ان وُعد صلاح الدين بها او يعرض نفسه للخطر بالدخول . وتذكر ما سمعه من صديقه عبد الرحيم عن كرامات راشد الدين وما هو شائع عن

Marfat.com

هيبته واقتداره فوقع في حيرة لان رجوعه عنها يحط من قدره عندصلاح الدين وعند حبيبته او على الاقل يحط قدره عند نفسه فانرا لا تطاوعه على الجبن . ودخوله يعرضه للقتل او لخيانة صلاح الدين

وكان يفكر في ذلك وهو يمشي في تلك الحجرة وليس فيها شيء من الاثاث سوى حصير وبساط قديم فاطل من نافذة صغيرة فاشرف على ما يحيط بجبل مصياف من المستنقعات والسهول والروابي والاودية الى مسافة بعيدة . واستغرق في افكاره حتى نسي موقفه . ثم اجفل لانه سمع وقع خطوات وراءه فالتفت فرأى رجلاً كالخادم اتاه بالطعام ودعاه الى الاكل وخرج . فاشار عماد الدين شاكراً وعاد الى تفكيره ونفسه لا تطلب الطعام لفرط اهتمامه . وقلقه وحانت منه التفاتة وهو يجيل بصره في ذلك الفضاء الى سور هال يحيط بواد لا يظهر منه غير السور فظنه قلعة او حصناً يلجأ اليه الاسماعيليون عند الاضطرار

الفصل الخامس والخمسون

المعجزة

وعاد الى هواجسه وهي تتعاظم وتتكاثف حتى ضاق صدره من كثرة التردد ودو الى تلك الساعة لم يذق طعاماً . فاحسَّ بالجوع فتحوَّل نحو الطعام الذي اتوه به وهو قاصر على بعض الاثمار وشيء من الخبز واللحم . فمد يده الى الرغيف وكأن شيئاً ارجعها عنه وخطر له سوء الظن فقال في نفسه « قد يكون هذا الطعام مسموماً » ثم تذكر صديقه عبد الرحيم وتوصيته لدبوس فغلب عليه حسن الظن واكل سايسد رمقه واقتصر على الاثمار لانها ابعد ما يكون عن التسميم

وهو يأكل سمع ضوضاء في الساحة فنهض ونظر من الباب فرأى جماعة من اهل القلعة وفيهم الحراس والاجناد يتهامسون ويتضاحكون والبشر ظاهر في وجوههم . يخاف ان يكون لذلك علاقة بوجوده هناك او ربما كان عليه خطر . فاصاخ بسمعه واذا هم يتكلمون لغات مختلفة لان رجال الاسماعيلية اخلاط من أمم شتى وفيهم العربي والتركي والفارسي والكردي والشركسي يتكلمون كل هذه اللغات وانما تغلب العربية على السنتهم

وبعد التنصت واعمال الفكرة سمعهم يذكرون السلطان نور الدين وكانهم يذكرون

Marfat.com

موته فغالط سمعه ولم يعبأ به لانه فارق السلطان منذ يومين بصحة ورآه تامة عائداً من الميدان على جواده كالاسد . واعتقد انهم يشيعون ذلك رغبة في اجتماع كلمتهم . وهو يفكر في ذلك جاءهُ رسول من الشيخ دبوس يدعوه اليه فاسرع في اثره الى مجلس دبوس فرآه قاعداً في صدر الغرفة وبين يديه جماعة من الامراء بلباس متشابه وعلى رؤوسهم العمائم تقرب من عمامة دبوس . فغلب على اعتقاده انهم من رجاله وكلهم مستبشرون ضاحكون

فلما وقف عماد الدين امامهم خاطبه دبوس قائلاً « انت قادم من بيت المقدس ؟ »

قال « نعم »

قال « الم تجعل طريقك على دمشق ؟ »

قال « بلى »

قال « كيف كان سلطانها الاتابك نور الدين هل شاهدته ؟ »

قال « نعم شاهدته على جواده عائداً من الميدان نحو الظهر »

قال « ومتى كان ذلك ؟ »

فاطرق عماد الدين وهو يحسب الوقت ثم قال « منذ يومين وبعض اليوم »

قال « لكنه مات في هذا الصباح رحمه الله »

فاجفل وبانت البغتة في وجهه وقال «مات ! هل انتم على ثقة من ذلك ؟ لا اظن الخبر صادقاً .. ثم كيف يموت في هذا الصباح ويصل خبره الى هنا الآن وبيننا وبين دمشق اكثر من يومين ؟ »

فضحك ضحكة استخفاف وضحك الجلوس معه وهم يتلفتون بعضهم الى بعض ثم قال دبوس « لا لوم عليك يابني وانت لا تعرف مصدر هذا الخبر . انه لم يأتنا بالبريد وانما هو وحيٌ هبط على مولانا الامام الشيخ الاكبر نفعنا الله ببركته وكراماته — كذلك فعل يوم مات الامام العاضد بمصر فقد جاءه علمه في يوم موته — ومصر ابعد من دمشق . وكذلك خبر المؤامرة التي قتل فيها عمارة واصحابه » ثم نظر الى الجلوس كانه يستشهدهم فبدت على وجوههم امارات المصادقة

فدهش عماد الدين ومع ذلك ما زال يظن في الامر خداعاً للايهام وان نور الدين لم يمت وقال في نفسه « اذا ثبت موته بورود المرسوم من دمشق على جاري العادة فان لهذا الشيخ لشأناً عظيماً »

ولحظ الشيخ دبوس تردده ودهشته فقال له « لا تستغرب ما تسمعه يا بني انك

Marfat.com

اذا تمت النعمة عليك ووفقت الى الدخول في طريقنا رأيت اعجب من ذلك . ان مولانا الشيخ الاكبر يخاطب الحجارة فتجيبه حتى الميت اذا كلمه اجابه في الحال » والتفت الى القوم وقال « وازيدكم بياناً ان مولانا الشيخ حرسه الله اخبرني عن سبب موت هذا السلطان قال انهُ توفي بعلة الخوانيق » ثم حول نظره الى عماد الدين وقال « ونحن ممهلوك الى الغد ريثما يأتي المرسوم اذا شئت »

فوقع عماد الدين في حيرة عظيمة مما سمعه ورآه واوشك ان يعتقد بكرامات راشد الدين . لكنه تمهل الى ورود المرسوم وعظم امر هذا الشيخ في نفسهِ . فقال له دبوس « تفضل يابني الى غرفتك حتى يستقر رأيك وانا انما دعوتك لعلمي انك قادم من دمشق لعلك علمت شيئاً من مقدمات موت نور الدين . واتعلم ايضاً ان صديقك عبد الرحيم اخلص الناصح لك . اتمَّ الله نعمته عليك وعليه لانه هو ايضاً مرشح للارتقاء في هذه النعمة اذ ينال المجتهد فيها نصيبه — هذا كلام لا تفهمه الآن ولكن سوف تفهمه . تفضل . » واشار اليه ان ينصرف

فعاد الى غرفتهِ وهو كالغائب عن الرشد لا يعرف كيف يعالل ما يشاهده من الغرائب المدهشة . وعزم في سره اذا صحت نبوته عن موت نور الدين ان يلتمس الدخول في تلك الطغمة بلا تردد . وودَّ لو كان صديقه عبد الرحيم هناك ليستفهمه عن بعض ما اشكل عليه ويستزيده بياناً

* * ▭ * *

الفصل السادس والخمسون

عبد الرحيم

بات تلك الليلة كالتائه في البحران وتوالت عليهِ الاحلام وافاق في الصباح على نقر باب حجرته . فتذعر وجلس حالاً فاذا بصديقه عبد الرحيم واقف بين يديه فاحسَّ عند رؤيته بارتياح عظيم وقد خفَّ قلقه واطمأن باله كانه لقي اباه او اخاه . واستأنس بهِ كثيراً فاكب عليه وعانقه واوشك الدمع يتساقط من عينيه لشدة التأثر

فعانقه عبد الرحيم وهو يبتسم وقال له « يظهر من تلهفك للاقاتي انك كنت في ضيق »

قال « لم اكن في ضيق ولكنني متردد في امور لا ارى لي فرجاً الا على يدك . واشعر انك اخي او ابي والقي اتكالي عليك وهناك اشياء احب ان استشيرك فيها »

Marfat.com

فهش له عبد الرحيم مطمئناً . فاشار اليه عبد الجبار قائلاً « اقعد .. من اين انت آت ؟ »

فقعد وهو يقول « اني آت من عند الشيخ دبوس وقد قص علي ما اعجبه من ذكائك وشجاعتك . وانه تلطف في معاملتك وامهلك حتى تفكر في امرك »

قال « نعم ، وهذا ما احب الاستفهام منك عنه .. ادهشني امرٌ لم اقدر على تفسيره »

قال « وما هو ؟ »

قال « اخبرني الشيخ دبوس في ظهر الامس ان السلطان نور الدين صاحب دمشق مات في الصباح . وانا رأيته بعيني قبل ذلك بيومين راكباً على جواده سليماً معافىً والصحة تتجلى في وجهه بعد ان قضى يومه مع سائر رجال دولته في السباق »

فقال عبد الرحيم « هذا كله صحيح — نعم انه عاد من ذلك الميدان صحيحاً معافى لكنه لم يصل القلعة حتى احس بالم في حلقه ظهر بالفحص انه الخوانيق »

فاطرق عماد الدين وقد بانت الدهشة في عينيه وهان عليه ان يصاب نور الدين بالخوانيق على اثر رؤيته اياه على جواده فقال « يظهر ان المرض جاءه شديداً فلم يمهله طويلاً . لكن اذا فرضنا وقوع ذلك فعلاً ومات نور الدين صباحاً فكيف وصل الخبر الي هنا قبل الظهر ؟ »

فضحك عبد الرحيم وقال « ان ذلك يا عبد الجبار من كرامات مولانا الشيخ الاكبر نفعنا الله ببركته . ألم اقل لك شيئاً من ذلك ونحن في بيت المقدس ؟ انه طالما انبانا بالاخبار حال وقوعها ولو كان بيننا وبينها مسافة ايام وليس هذه اعجب كراماته كما سترى . وهل تظن سطوته وقوة نفوذه لا اساس لهما ؟ كيف يخضع له الالوف من الناس وفيهم العقلاء والحكماء ان لم يروا فيه ما يستحق ذلك ؟ اتعلم ان اتباعه اليوم يزيدون على ستين الفاً من نخبة الناس وفيهم الشجعان والابطال والقواد وكل واحد منهم طوع ارادته يبذل نفسه في طاعته . اتظن ذلك يقع عفواً بلا استحقاق ؟ »

فقال عماد الدين « انت تشير عليَّ اذاً ان ابقى على عزمي .. »

قال « هذه نصيحتي لك »

قال « انهم اخذوا مني نقودي وسلاحي »

قال « لا خوف عليها . فاذا رجعت عن هذا الامر ان اضمن ارجاعها اليك . ولا اظنك راجعاً عنه ولا سيما بعد ان ترى الشيخ الاكبر نفسه وتسمع اقواله وتختبر

Marfat.com

كراماته .. انها كثيرة انما ... » وسكت كانه اراد ان يقول شيئاً وندم عليه

فقال عماد الدين « اراك تتردد في نصحي »

قال « معاذ الله يا اخي .. انت تعلم اننا تحابينا وتصادقنا لغير غرض سوى تقارب القلوب . ولما كانت جماعتنا هذه تضم خيرة الشجعان وذوي البسالة رأيتك اهلاً للانتظام في سلكها . وسوف تحمد مغبة نصحي . لكنني اتردد في امر احببت ان ابيح بهُ لك تخفيفاً من قلقك .. لكنه محظور عليَّ . فسكتُّ »

قال « اذا اطلعتني على شيء يخفف قلقي ضاعفت فضلك ولا يعلم به احد . . اعاهدك على ذلك »

قال وهو يخفض صوته « متى رضيت الدخول فانهم يمتحنونك باشياء لا يصبر عليها الا الشجاعُ ثابت الجأش وانت كذلك . لكنني احببت ان ازيدك اطمئنانا ان ما يظهر لك من تلك التجارب خطراً أو مستحيلاً ليس هو في الحقيقة الا ظاهرة لا طائل تحتها وانما يُراد بها امتحان شجاعة الطالب . فمهما طلب منك ان تعمله اعمله ولا تخف . . لا اقدرُ ان افصح لك اكثر من ذلك .. »

فقال عماد الدين « يمتحنون شجاعتي ؟ فليمتحنوا . . . لا ابالي وانت تعلم ذلك ولكنني أحب ان أعرف شيئاً آخر . هل تطلعني على حقيقته ؟ »

قال « قل ما تريد لعلي استطيع »

قال « كل ما اعرفه من امر هذه الطائفة ان زعيمها راشد الدين رجلٌ حكيم ذو كرامات وان اتباعه يطيعونه طاعة عمياء يبذلون انفسهم في طاعته . لكنني لا اعلم ما ينالهُ اولئك الاتباع من المكافأة . وهل هم درجة واحدة اودرجات فقد رأيت بعضهم كالخدم او الجند وآخرين كالامراء وهذا دبوس كالملك . فما هو نظام هذه الطائفة او الدولة انها غريبة في بابها .. »

قال « صدقت ان نظامها غريب لم ينسج على منواله ولا بأس من ان اقص عليك خبر هذا النظام باختصار . اعلم ياعبد الجبار ان جماعتنا هذه التي ارعبت العالم بتدبيرها وبسالة شبانها مؤلفة من طبقتين الفدائيين والمستنيرين وفوقهما الزعماء واصحاب الاسرار الحقيقية . واول ما يدخل الاسماعيلي يكون فدائياً فاذا استحق الترقي صار مستنيراً .. انا لا ازال الى اليوم من الفدائيين (الفداوية) .. »

فقطع عبد الجبارُ كلامه قائلاً « اذا دخلت انا غداً اكون مثلك ؟ »

قال « نعم . لكنني الآن مرشح لنيل العهد فاصير مستنيراً عن قريب . . لان

Marfat.com

مهمتي التي ذهبت بها الى بيت المقدس كانت آخر تجربة في سبيل الترقي وقد جئت الى هنا لكي اقتبل السر الجديد في طبقة المستنيرين »

قال « بماذا استحقيت هذا الترقي ؟ »

قال « استحقيته بصدق الخدمة في مصلحة الجماعة وبذل النفس في سبيل الطاعة . ولا بد لكل فدائي ان يفعل ذلك قبل ان يصير مستنيراً . واما انت فارجو ان يسرع ترقيك لانك اهل لذلك بما فطرت عليه من المروءة وعلو الهمة . وليس في طلاب الانتظام كثيرون مثلك ولذلك فارجو ان ترتقي على عجل »

فاطرق عماد الدين (او عبد الجبار) حيناً يفكر في امره وفي اصل مهمته وما خلفه وراءه في مصر من البواعث التي تقضي بسرعة عودته ولا سيما سيدة الملك . فانها اصبحت منذ رجوع رسوله من عندها لاتبرح من باله . لكنه اطمأن عليها وهي في كنف صلاح الدين . ولحظ عبد الرحيم تفكيره فقال له « لا حاجة الى التردد ان دخولك في هذا السلك اصبح امراً مقضياً ولا بأس عليك منه . لكنني احب ان تؤخره الى مجيء المرسوم من دمشق بموت السلطان نور الدين . وتتأكد كرامة امامنا راشد الدين قبل الدخول في طاعته . . »

فخجل عماد الدين عند سماعه ذلك لانه كان يفكر فيه ويخشى ان يقوله لئلا يدل على ضعف الثقة فبادر الى الجواب قائلاً « اني واثق بما سمعته رغم غرابته عندي »

قال « ليس هو غريباً علينا وسترى ما هو اعظم منه .. والآن استرح وكن مطمئنا انك اذا عدلت عن الدخول لا يصيبك أذى ومولانا الشيخ الاكبر لا يقبل كل من يطلب الانضمام واذا شئت ان تتحقق قولي تعال معي لاريك جماعة من اولئك الطلاب » قال ذلك ونهض . فتبعه عماد الدين والدهشة غالبة على عقله

فسارا في طريق ضيق في شعب ذلك الجبل الى ساحة سمعا فيها الضوضاء قبل ان يصلوها . فوقفا واصاخ عماد الدين بسمعه فسمع عربدة وغوغاء بلغات مختلفة وغنات متفاوتة . ثم مشى به حتى اطل من وراء حائط على بقعة ازدحم فيها الرجال جماعات بين جلوس يتسامرون او وقوف يتخاصمون واكثرهم في حال الخشونة تدل ملامحهم وثيابهم على الوحشية . فقال عبد الرحيم « انظر يا اخي . . هؤلاء هم طلاب الدخول وانت ترى الوحشية والعربدة وسفك الدماء في ملامحهم . وقد اشتهرت جماعتنا بهذه بالفتك فكل من يهون عليه قتل الابرياء ويضيق به الرزق يأتي الينا . ولكن غرضنا اسمى من ذلك على ما اظن وان كنت الى الساعة لم اطلع على سره الحقيقي .

Marfat.com

فهؤلاء يعدون بالعشرات كما ترى . وهم هنا منذ ايام لم يحفل الشيخ دبوس بهم ولا اظنه يجيب طلب غير القليلين منهم . اما انت فقد علم امتيازك عنهم ولهذا السبب ارجو ان لا يبطىء في ترقيتك الى طبقة المستنيرين »

وهما في ذلك رايا رجلاً كردياً من اولئك وقف وبيده جمجمة صبّ فيها خمراً وتمايل عجباً ثم شربها وهو يزدري برفاقه ويفاخرهم ببسالته وخشونته . فغضب واحد من رفاقه الاتراك فهزأ به ولطم تلك الجمجمة بقفا يده فرماها وتناثر ما كان فيها من الخمر على الارض . فضحك الرفاق وقهقهوا وقد اعجبهم عمل ذلك التركي . فلم يصبر الكردي على الاهانة فاستل خنجره وطعن التركي طعنة قضت عليه . فهمّ الآخرون ان ينتقموا له فصاح بهم عبد الرحيم واوقفهم وهددهم واشار الى بعض الحرس ان يقبض على القاتل . ففعل ريثما يرفع امره الى الشيخ الاعظم

الفصل السابع والخمسون

راشد الدين

ولم يزدد عماد الدين بذلك الا دهشة مما رآه وسمعه . فرجع الى حجرته وذهب عبد الرحيم لشأنه . واتاه في اليوم التالي وقد جاء المرسوم من صاحب الشام بوفاة نور الدين بالخانوق في الوقت الذي رواه شيخ الجبل . وقرأه الشيخ دبوس على مسمع من الاسماعيلية . فاقر عماد الدين على الدخول في ذلك السلك — ولا بد له من ذلك للقيام بالمهمة التي جاء من أجلها وقد تبرع بين يدي صلاح الدين بقتل راشد الدين وربما علمت سيدة الملك بعزمه فكيف يعود بخفي حنين ؟ على ان ما شاهده من مقام الرجل وكراماته جعل مهمته شاقة لكنه صمم على القيام بها . وكان يتردد في الدخول لعله يستطيع تنفيذ المهمة وهو خارج تلك الطغمة فلم ير له بدًّا من الدخول ليستطيع الاقتراب من ذلك الشيخ الامام ويغرس خنجره فيه

وفي اليوم التالي اصبح عماد الدين وهو على موعد من الدخول على الشيخ الاكبر لينضم الى جماعة الفدائيين . وكان كلما فكر في ذلك اختلج قلبه في صدره . وبعد قليل جاءه صديقه عبد الرحيم وهو يهش له تشجيعاً وطمأنة فقال عماد الدين « هل اذهب الآن الى الشيخ الاكبر ام الى الشيخ دبوس ؟ »

Marfat.com

قال « لا بد من الذهاب الى الشيخ الا كبر بواسطة الشيخ دبوس . . فهل انت متأهب لذلك ؟ »

قال « نعم » واكبران يظهر الوجل فقال عبد الرحيم « هلم بنا الى الشيخ دبوس »

فمشيا حتى دخلا عليه واطلعه عبد الرحيم على الغرض . فوجه كلامه الى عماد الدين قائلاً « هل انت مصمم ياعبد الجبار على الانضمام الينا . ؟ »

قال « نعم ياسيدي »

فامره ان ينزع ثيابه التي عليه ويرتدي بثوب ابيض كالقميص الكبير دفعه اليه . فلبسه فجلله الى عقبيه . ثم امره فنزع عمامته وحلّ شعره وكان طويلاً فارسله على كتفيه . واشار عبد الرحيم اليه ان يتقدم الى الشيخ دبوس ويقبل يده ففعل . ثم أومأ اليه ان يتبعه فمشى في دهاليز وطرقات الحرس وقوف في جوانبها بالحراب . حتى اطلّ على رواق يؤدي الى باب كبير عليه ستر وبجانبيه حارسان عظيما الهامة كانهما من الجان . فلما اقترب عبد الرحيم منهما اومأ اليهما بالاشارة (لانهما اخرسان) ان يأذنا له بالدخول وهما يعرفانه فاذنا له واستبقيا عبد الجبار خارجاً . فوقف وهومطرق يتردد بين الندم والعزيمة . واذا بصديقه قدعاد وقال له « ان الشيخ مشتغل بمحاكمة الكردي القاتل لكنه اذن لنا بالدخول »

ومشى فتبعه عماد الدين فدخلا قاعة مظلمة في صدرها كرسي كبير قد جلس عليه الشيخ الاكبر والى جانبيه رجال من خاصته جلوس وقد غطوا وجوههم وليس فيهم مكشوف الوجه غير راشد الدين . ولم يستطع عماد الدين ان يتعرف الوجوه هناك الا بعد قليل ريثما تعود نظره الظلمة . فرأى ذلك الكردي واقفاً وهو موثق اليدين ، وفي وسط القاعة جثة التمثيل ملطخة بالدماء . فاشار عبد الرحيم الى عماد الدين ان يقف معه في ناحية ففعل

واخذ يتفرس براشد الدين فاذا هومكسوّ برداء اسود يغطيه كله الا وجهه . وقد بانت الشيخوخة في ذلك الوجه بتجعده وبياض لحيته . لكن عينيه تبرقان كالسراجين يكاد الشرر يتطاير منهما . وما عتم ان صاح راشد الدين بذلك الكردي قائلاً « اتجسر يا هذا ان تقتل نفساً في جوارنا ؟ »

فصاح الرجل « اني لم اقتله يا مولاي وانما هم يتهمونني زوراً ؟ »

قال « وتكذب ايضاً ؟ . اتحسب ذلك ينطلي علينا . الا تعلم اننا نفحص القلوب ونعرف اسرارها ؟ »

فعاد الرجل الى الانكار وقال « انهم يتهمونني يا سيدي زوراً . . اذا شئت ان آتي بالشهود او اقسم لك ببراءتي فعلتُ »

قال « لا حاجة بنا الى شهود او قسم انا اسأل هذا القتيل وهو ينبئني بالحقيقة »

فلما قال ذلك اجفل عماد الدين ونظر فراى راشد الدين قد وقف وانتصب كالصنم ثم خطا خطوة نحو القتيل وصاح به وهو يشير اليه باصبعه كانه يهدده « الم يقتلك هذا الكردي ؟ قل ! »

وكان السكوت مستولياً على الحضور وقلوبهم تخفق تطلعاً الى ما يكون فسمعوا القتيل يقول بصوت ضعيف « بلى هو قتلني »

فسأله ثانياً « بماذا قتلك ؟ »

فاجاب « بخنجره »

فلما سمع عماد الدين ذلك اقشعر بدنه .. كيف لا وقد سمع الميت يتكلم وهو على نقة من تلك الحادثة لانه رآها بنفسه . اما راشد الدين فرجع الى مقعده واشار الى بعض الوقوف بين يديه من رجاله ان يذهبوا بالرجل الى السجن وان يدفنوا القتيل ففعلوا . وقد استولت الدهشة على الحضور ولا سيما عماد الدين

وبعُد قليل اشار راشد الدين الى الوقوف في مجلسه بالانصراف ولم يبق غير بعض خاصته الملثمين . واومأ الى عبد الرحيم ان يقدم عبد الجبار . فقاده بيد حتى اوقفه بين يديه فوقف وركبتاه ترتعدان من التهيب وقد عظم امر راشد الدين في خاطره

فوجه هذا كلامه الى عماد الدين قائلاً « وانت ياعبد الجبار أرجو ان تصدقنا ولا تفعل كما فعل هذا الكردي .. انت كردي أيضاً لكني اقرأ في وجهك الصدق — انت تطلب الانضمام الى رجالنا ؟ »

قال « نعم ياسيدي ؟ »

قال « وهل تعلم ما انت مقدم عليه من الامر العظيم ؟ »

قال « نعم »

قال « لا تخدع نفسك .. اذا كنت متردداً اوخائفاً ارجع من حيث اتيت . ونحن انما نطلب رجالاً اهل بسالة وصدق . وهل تعرف الخطر الذي يحدق بك ؟ »

قال « نعم »

فتنحنح وقال « ما الذي حملك على هذا الامر ؟ »

قال « ان اتشرف بخدمة مولانا الشيخ الاعظم »

Marfat.com

قال « من اين اتيت ؟ »

قال « من بيت المقدس » وخاف ان يسأله عن حقيقة غرضه فينكشف امره ويقع في خطر الموت فارتعدت فرائصه لكنه تجلد وصبر

فقال له راشد الدين « انا اعلم انك قادم من بيت المقدس الآن ولكنني احب ان تخبرني عن المكان الذي جئت منه قبل بيت المقدس . . »

فتحير في الجواب وسكت وهو يفكر في هل يصدقه ام لا . وخاف ان تكون كرامة راشد الدين دلته على حقيقة غرضه الذي جاء من اجله فتلعثم لسانه . فلم يصبر راشد الدين عليه فقال « يظهر انك خائف .. لا تخف يابني .. انك شاب شهم ولست من طبقة أولئك الزعانف الجهلاء . . نا لا اكلفك ان تقول شيئاً وانما استفهم بشعرة من شعرك وهي تنبئني » واشار الى عبد الرحيم ان يأتيه بشعرة من ذؤابة عماد الدين فجاءه بها فتناولها بين السبابة والابهام ومد يده وجعل يخاطب الشعرة قائلاً « يا شعرة عبد الجبار قولي لي اين كان صاحبك قبل بيت المقدس ؟ »

فسمع عماد الدين الجواب آتياً من ناحية الشعره ضعيفاً كانه صادر عن وترٍ رنان وهو « من القاهرة »

فقال « قولي لي اين كان صاحبك هناك ومن هو ؟ »

فقالت « كان عند يوسف صلاح الدين وهو من رجال خاصته »

فلما سمع عماد الدين ذلك اوشك ان يسقط على الارض من الارتعاد واطرق لا يحير جواباً . وخاف ان يواصل الاسئلة ويطلع على سر قدومه الى هناك ... مرت عليه دقيقتان هما اطول من سنة . ثم رأى راشد الدين تنهد عند سماعه اسم صلاح الدين ورمى الشعرة من يده وقال « صلاح الدين يوسف ؟ . اطال الله بقاءه »

فاستغرب عماد الدين قوله وانتعشت آماله لكنه ظل ساكتاً . فقال راشد الدين « كيف فارقت صلاح الدين .. هل هو في صحة وسلامة ؟ »

قال « نعم ياسيدي »

قال « الحمد لله على ذلك . . » ولحظ عماد الدين تغيراً في وجه راشد الدين لم يفهم سببه . لكنه ما زال خائفاً من افتضاح امره حتى سمع راشد الدين يخاطبه قائلاً « احمد الله على سلامة صلاح الدين .. والآن هل انت مصمم على الانضمام الى رجالنا ؟ »

فقال « نعم يامولاي »

قال « اتعلم ماذا يطلب منك ؟ »

Marfat.com

قال « كلا .. لكنني طوع امر مولانا بما يريد »

فابتسم راشد الدين ابتسامة لم تغير شيئاً من انقباض سحنته وقال « اعجبني جوابك يا عبد الجبار . وانت اذا اتيح لك ان تكون من رجالنا كسبت الدنيا والآخرة . لكن ذلك ليس بالامر الهين ... » قال ذلك ووقف واشار اليه ان يتبعه فتبعه وهو يسترق النظر الى عبد الرحيم استئناساً برأيه ولو بالاشارة . فرآه يشجعه ويطمئنه . حتى وصل راشد الدين الى جانب من جوانب تلك القاعة الواسعة المظلمة فوقف وقال لعماد الدين « انظر هنا » واومأ باصبعه الى حفرة بين يديه

فنظر فاذا هو على شفا هوة لا قرار لها . فقال له « اذا كنت صادقاً في ما تقوله الق نفسك في هذه الهوة »

فاعاد النظر اليها فلم يشك انه اذا اطاعه قتل لا محالة . فالتفت الى عبد الرحيم خلسة فاذاهو يشجعه ويشير اليه بعينيه ان يخطو . وهو واثق بصدق صديقه لكنه خاف ان يكون في الامر دسيسة وان راشد الدين اطلع على حقيقة مهمته فاراد الانتقام منه على هذه الصورة . على انه تذكر ما نبهه اليه عبد الرحيم من قبل وهو لم يتعود الخوف او التردد فسبقت قدمه الى الوثوب نحو فوهة تلك الهوة مدفوعاً بوعده وشجاعته . فاذا هو قد تلقته عارضة برزت وغطت تلك الفوهة وفتحت فوهة أخرى في المكان الذي كان واقفاً عليه . فلم يصدق انه لا يزال حياً

اما راشد الدين فامسكه بيده وهو يقول « الآن تأكدت صدقك . ولو لم تصدقني لقتلت لان فوهة الهوة تحولت الى موقفك الاول » وأشار اليه ان يتحول نحو القاعة وهو يقول « قد استحقيت النعمة التي تطلبها .. انك منذ الآن من ابنائي الصالحين »

وعاد راشد الدين الى مجلسه وأشار الى واحد من الخدم الوقوف بين يديه بالاشارة ان يأتيه بقدح فاتاه به فتناوله وصب فيها سائلاً من اناء بجانبه وقال « هذا ماء الحياة وطريق النعيم اذا كنت صادقاً مخلصاً وهو سم قاتل اذا كنت كاذباً . فاذا كنت على وعدك بالطاعة وصدق النية اشربه »

فتناوله وتردد لحظة وهو ينظر الى صديقه عبد الرحيم فرآه يشجعه فشرب ما في القدح واومأ اليه الشيخ ان يقعد . فقعد واحس بعد قليل بالخدر ثم غاب رشده

Marfat.com

الفصل الثامن والخمسون

نعيم الحشاشين

ولا تسل عن دهشته لما افاق من غيبوبته وفتح عينيه فرأى نفسه في حديقة كالجنة بما يصفونها به من جري الانهار وتعانق الاشجار وتجاوب الاطيار من صادح وسانح . واول ما نبهه من رقاده نسيم مر على وجهه ويد لمست جبينه . فنظر فاذا هي يد غادة او حورية كانها البدر عليها ثوب يجللها لكنه لا يكسوها لشفافته . يمناها مروحة من ريش النعام تروح له بها. وقد وضعت يسراها على جبينه كانها تمسح عرقه فظن نفسه لاول وهلة في حلم وخاف اذا نهض ان يفقد تلك المناظر البديعة فصبر قليلاً فاذا بتلك الحورية تخاطبه بصوت رخيم قائلة « انهض يا حبيبي الى متى الرقاد ؟ »

فنهض ونظر الى نفسه فرأى عليه ثوباً يشبه اثواب الامراء لم ير على السلطان صلاح الدين احسن منه . وعلى رأسه عمامة من نسيج مزركش بالقصب . وقد جلس على بساط من اجمل ابسطة عصره عليه الصور المنسوجة بالذهب — قضى برهة وقد اخذته الدهشة ينظر تارة لنفسه وطوراً لتلك الحورية واونة لما بين يديه او لما يقع عليه بصره من الاشجار والازهار وما يسمعه من خرير الماء وتجاوب الاطيار وما يفوح من الروائح العطرية مما لم ير مثله ولا خطر بباله

وهو يفكر في ذلك تقدمت اليه تلك المرأة وقد ازاحت نقابها عن رأسها وارسلت شعرها الذهبي على كتفيها وهي تنظر الى عماد الدين بعينين تكادان تنطقان بعبارات الحب وتشكيان لواعج الغرام . على انه تجلد ونظر اليها وصبر لما يبدو منها فمدت يدها للمصافحة فناولها يده وهو لا يزال يحسب نفسه في رؤيا فقبضت على انامله وهي تقول « ما بالك يا عبد الجبار الا تزال تحسب نفسك في منام ؟ انسيت انك شربت ماء الحياة من يد مولانا الشيخ الاكبر ؟ انك في الجنة الآن التي لا يدخلها الا المستحقون »

فتذكر القدح الذي شربه من يد راشد الدين فغلب على اعتقاده صدق دعوى ذلك الرجل وانه في الواقع انتقل الى الجنة بانهارها واشجارها واطيارها وان هذه المرأة حورية من حواريها . ثم تذكر سيدة الملك فاجفل وقال في نفسه « ما لهذه المرأة تهم بي لتختطفه وهو ليس لي .. » فتباعد عنها فتباعدت وبان العتب في وجهها وتحولت عنه ثم غابت عن عينيه

فتركها ومشى على ارض مكسوة بالشعب الاخضر الملون كالبساط المزركش وقد

Marfat.com

فاحت منه الروائح المنعشة فوقع بصره عن بعد على قناة يجري فيها الماء لامعاً كانهُ الزلال وعلى ضفتيها اشجار الفاكهة وقد وقعتْ اشعة الشمس من خلال الاغصان على ذلك الماء وهو يجري فتلون بالوان قوس قزح . فدنا من تلك القناة ووقف على ضفتها ينظر الى الاشعة الواقعة على الحصى في قاعها كيف تتكسر وتلون . وهو في ذلك رأى في الجانب الآخر حورية برزت من بين الاشجار ومشت نحوه وهي تبتسم له . فسره ان بينه وبينها قناة تحول دون وصولها اليه وتوقع ان تقف على الضفة الاخرى وتخاطبه . فاذا هي تجاوزت الضفة و لم تزل ماشية اليه فوق سطح الماء ولم تبتل قدماها

وتعاظمت دهشته لما رآها وصلت اليه وقدماها العاريتان تتنقلان فوق سطح الماء الجاري لا تقع فيه ولا تعكره او تعيق سيره . فتحقق لديه انه في مكان غير الارض وان اولئك الحواري من الملائكة . وصلت تلك الحورية اليه والهواء يعبث بشعرها ويلاعب اطراف ردائها . وبسطت يديها نحوه كانها تستقبله وهو يحارب هواه ويتذكر سيدة الملك وحبها اياه ويهم بالابتعاد . فرأى في وجه تلك الحورية شيئاً يشبه ملامح حبيبته فذعر وتفرس بها جيداً وحدثته نفسه ان تكون هي بعينها وان مجيئها الى تلك الجنة من جملة معجزات راشد الدين . فوقف ريثما وصلت الحورية اليه ومدت يدها نحوه فمد يده وتصافحا وهو يتفرس في وجهها فكانت كلما دنت منه بعدت المشابهة بينها وبين سيدة الملك . لكنه استأنس بها واحب ان يحادثها عما يراه . فلما دنت منه فاحت رائحة الطيب من ثوبها فوضعت يدها على كتفه فاقشعر بدنه فقال لها « من انت يا هذه وأين انا ؟ »

قالت « الا تعرف اين انت انك في جنة شيخ الجبل مولانا الامام الاكبر »

قال « وهل هذا مقرُّ اتباعه اجمعين ؟ »

قالت « نعم . ولكن لا يمكث فيها الا من احسن البلاء في طاعته . »

وامسكت بيده ومشت فمشى وأومأت اليه ان يتبعها فوق تلك القناة فتردد هنيهة فجذبته بيده وهي تقول « لا تخف امش » فمشى فاذا هو يخطو على شيء صلب يفصل بين قدميه الماء . فظن الماء جمد تحت قدميه . فاتصل الى الجانب الآخر وسار مع الفتاة وهو شديد الرغبة في معرفة حقيقة ما يراه فلما سمع قولها قال « فانا باق هنا ؟ »

قالت « انت حديث العهد وانما جئت لترى ما اعده المولى لاتباعه ومريديه اذا قاموا باوامره . وعسى ان تكون من اولئك المستحقين » .

فعلم انه هناك الى أجل ولا يلبث ان يعود . فمشى لترويح النفس وعيناه تتنقلان بين

الاشجار والرياحين ويرى الاطيار تتنافر بين ايدي تلك الحورية وفيها الكراكي، والطواويس بالوانها الجميلة . والبلابل والحساسين تتجاوب بالتغريد أو الزقزقة . والفتاة تناديها فتأتيها وتقع على كتفها او على يدها وتنتقل كما تأمرها كانها تفهم لغتها

ثم سمع عماد الدين زئيراً علم انه زئير الاسد وكان قد سمعه مراراً فاجفل وقال « اليس هذا زئير الاسد ؟ »

قالت « بلى ... وهل خفته ؟ ان الاسود لا تؤذي اهل هذه الدار » ومشت حتى دنت من مربض الاسد تحت شجرة . فاذا هو مقعٍ وعيناه تبرقان لكنه لم ينتقل من مكانه فتقدمت الفتاة اليه ومدت يدها الى رأسه وعبثت بشعره كما تعبث بشعر الهر فلم يتحرك فاستغرب عماد الدين ذلك ايضاً

وعاد الى التمشي فوقع نظره في بعض جوانب الحديقة على غرف مفردة تغطيها الازهار والاغصان فسألها عنها فقالت « هذه مساكن الذين استحقوا البقاء هنا يتمتعون بالملذات والنعيم لا يعكر عليهم ذلك احد »

وبعد المسير برهة بين صعود وهبوط وقفت به الفتاة عند حائط وقالت له « انظر الى هنا »

فنظر من كوة في الحائط تشرف على واد اجرد لاشيء فيه من الماء ولا الخضرة . فاجفل لما رآه هناك من الثعابين والوحوش المفترسة تسرح بين جماجم البشر فقال لها « اظن هذه هي الجحيم »

قالت « .. نعم هذه هي . . فلو لم تطع الشيخ الامام لكنت في عداد المغضوب عليهم هنا »

فلم يشأ ان يقف هناك طويلاً ؛ فتحول وعادت معه حوريته وهي تلاطفه وتقطف من الاثمار وتعطيه وهو كالتائه في افكاره لا يدري ماذا يفعل ولا ماذا يرى . واذا هو يسمع صوتاً اهتزت له جوارحه وجمد الدم في عروقه لانه صوت سيدة الملك كانها تستغيث به .. فاخذ يتلفت يميناً وشمالاً وهو يحسبها على مقربة منه والحورية تنظر اليه بدهشة قائلة « ما بالك ما الذي اوقفك ؟ »

قال « الا تسمعين شيئاً ؟ »

قالت « كلاَّ .. ماذا تسمع ؟ »

فاطرق وهو مصيخ بسمعه فلم يعد يسمع شيئاً . فترجح عنده انه مخطىء وانما سمع ما سمعه لفرط تفكيره بسيدة الملك فأتت روحها لزيارته او هو صوتها. جاء السلام

Marfat.com

عليه . لكنه لم يطمئن لهذا الفكر والصوت الذي وصل اليه صوت استغاثة فهل هي في شدة ؟ فاذا كانت كذلك ما اجدره ان يسعى في اغاثتها

وكان قد شعر براحة لتلك الحورية لطول رفقتها وكثرة ما بذلته في سبيل استرضائه واجتذاب قلبه وهو شاب في مقتبل العمر . فغلب على اعتقاده انه في جنة او مكان يشبه الجنة جاءه بكرامة اومعجزة من معجزات راشد الدين . واوشك ان يشتغل عن سيدة الملك فلما سمع ذلك الصوت توهم انه صوت ضميره للثبات في حب حبيبته فلا يشتغل عنها بسواها فاحس بانقباض وود الخروج من ذلك النعيم

وهو يفكر في ذلك لا يلتفت يميناً ولا شمالاً سمع وقع خطوات غير خطوات رفيقته فالتفت فرأى غلاماً كالبدر طلعة وبهاء قد تمنطق بمنطقة من الخز ارسل قبساً منها الى الامام كالمئزر وارسل شعره ضفائر ذهبية وعليه ثوب سماوي اللون فلما دنا من عماد الدين انحنى انحناء الاحترام وقال بصوت رخيم «الا يتفضل المولى لتناول الغداء »

فالتفت الى رفيقته كانه يستزيدها بياناً فابتسمت له قائلة «تفضل يامولاي الى الطعام فقد آن وقت الغداء »

وكان في شاغل عن الطعام فلما ذكره احس بالجوع . فمشى في طرقة مسواة كانها فرشت بالزعفران يحف بها من الجانبين سياج من الازهار الجميلة ينتهي في آخره بباب كباب القصر الفخم . وقبل الوصول الى الباب فاحت روائح الطعام الشهي مما لم يعرف مثله الا في قصور الفاطميين في اثناء الاعياد . ولما اقتربوا من ذلك الباب فتح لنفسه وتقدم غلامان آخران يرحبان بالقادم ومشيا بين يديه من باب الى باب حتى وصل غرفة المائدة . وهو يتلفت الى الجانبين وقد ادهشه ما على جدران الدهليز من الستائر المصورة تمثل البساتين والقصور ومواقف البذخ والرخاء تستلفت النظر وتجتذب القلب . واما غرفة المائدة فقد ذهبت برشده واوقفته موقف الحيرة ونسي مكانه لان جدرانها الاربعة مكسوة بالمرايا على طول الحائط . فيظهر الشخص الواحد عشرات من المرار من كل جانب — ولم يكن ذلك مألوفاً يومئذ فدبره راشد الدين في جملة ما يجتذب به القلوب

فتقدمت الفتاة اولاً واشارت الى عماد الدين ان يتفضل فقعد على مقعد مغشى بالديباج المزركش وبين يديه مائدة مكسوة بملاءة من الحرير الوردي . ولم تمض دقائق قليلة حتى تواردت الاطباق وعليها الالوان من اللحوم والفاكهة . وجلست تلك الحورية بجانب عماد الدين وهي تلاطفه وتقدم له اللقمة بعد اللقمة وتبالغ في اكرامه والغلمان

Marfat.com

وقوف بين يديهما للقيام بالاوامر . فعاد عماد الدين الى نسيان سيدة الملك وقد سحرته تلك الفتاة بجمالها ولطفها . ولا سيما بعد ان دارت الاقداح وفيها الخمور اللذيذة فاصبح لا يعرف غير تلك الساعة وقام في ذهنه انه في النعيم الحقيقي

ولما رأت تلك الفتاة ميله ورضاءه اخذت بالاعراض عنه وهو يزداد شغفاً وقد زادته الخمور اندفاعاً حتى اصبح يتزلف اليها ويغازلها وهي تتمنع . فلما تحققت افتتانه بها قالت « لا تخرج عن حدك فانت انما جئت الى هنا على سبيل التجربة . وليس الوصول الى ما تطمع به سهلاً . . ان من دونه بذل النفس في طاعة الامام الاكبر »

فشق عليه هذا الاعراض لكنه زاد افتتاناً وقال « قد كنتِ منذ هنيهة تقربين وانا ابعد فهل كنت تخادعينني ؟ »

قالت « كلا ولكن لابد من ان تأتي عملاً يؤهلك الى المقام في هذا النعيم دائماً وعند ذلك اكون طوع ارادتك واذا خاطبت الاطيار اجابتك وتجد النعيم الحقيقي من كل شيء . وليس ما تراه الا مثالاً صغيراً من ذلك النعيم .. فعسى ان تعمل عملاً يؤهلك من هذا الجوار .. والحق يقال اني فتنت بجمالك وبسالتك واشعر نحوك بما لم اشعر به قبلاً نحو احد . ولكنني لا اقدر ان آتي امراً يخالف رضى مولانا ولا اقدر ان اخفي عنه شيئاً لانه فاحص القلوب يطلع على خفايا السرائر . ولكنني تأكيداً لعلائق المودة بيننا ادهن شعرك بطيب خاص بي » قالت ذلك واستخرجت حقا من بين ثوابها فتحته ففاحت منه رائحة لم يشم مثلها في حياته . فاخذت بعض الطيب ودهنت به يديه وشعره : فلذّ له ذلك وطابت نفسه . ثم قالت « احفظ هذه الرائحة تذكاراً بيننا حتى نلتقي اللقاء الدائم ان شاء الله » وبان الاعجاب بعينيها فازداد هو تهيباً من ذلك الشيخ العجيب فسكت

وبعد الفراغ من الطعام والشراب احس عماد الدين بميل الى النعاس فقيد فراشاً من الحرير المحشو بريش النعام وتلك الحورية الى جانبه تداعبه وتعرض عنه ولم تمض دقائق قليلة حتى غلب عليه النوم واستغرق في رقاده

Marfat.com

الفصل التاسع والخمسون

اطال الله بقاء صلاح الدين

وافاق في اليوم التالي فاذا هو في قاعة راشد الدين كما كان من قبل وعليه الثوب الابيض وشعره محلول . فجعل يتلفت يميناً وشمالاً وينظر في ثوبه فتبادر الى ذهنه لاول وهلة انه رأى حلماً . ثم ما لبث ان شم رائحة الطيب في شعره ويديه فلم يبق عنده شك انه راى ما رآه حقيقة . وانتبه بعد قليل لنفسه فرآى راشد الدين جالساً كما تركه ورأى صديقه عبد الرحيم بجانبه . فهش له وضمه الى صدره فقال له عبد الرحيم « ان رائحة الجنة تنبعث من شعرك .. هنيئاً لك وعسى ان يتاح لك النعيم الدائم . قم واجث عند قدمي مولانا وقبل ركبته وادع بطول بقائه »

فنهض وترامى على قدمي الشيخ عن اعتقاد صحيح بكرامته . وقبل ركبته فمنعه ودفع اليه يده فقبلها ثم قال له الشيخ « انت الآن من ابنائنا الفدائيين ويلوح لي انك لا تلبث ان ترتقي الى مصاف المستنيرين . قم الى غرفتك وقد اوصيت الشيخ دبوس بك خيراً . ولكنني احب قبل خروجك ان ازودك بعهد مني » قال ذلك ونهض وانهض عماد الدين معه وهو يحدق في عينيه وعماد الدين يشعر بقوة تنبعث من عيني ذلك الرجل وتوشك ان تغلبه على امره . وقد قبض الشيخ على يدي عماد الدين بيديه قبضاً شديداً

مكث كذلك عدة دقائق ثم صاح به « افتح فمك » ففتحه فتفل فيه وقال « كن فدائياً مطيعاً » وتركه واشار الى عبد الرحيم ان يذهب به الى غرفته

فمشيا الى غرفة الشيخ دبوس وهما صامتان وقد استولت الدهشة على عماد الدين واصبح كالماخوذ او من اصابه السحر . فلما وصلا الى الشيخ دبوس بدل عماد الدين ثيابه وهنأه دبوس بما ناله من رضى الشيخ الاكبر واعاد اليه خنجره ونقوده وجواهره واصبح واحداً منهم

على انه حالما عاد من دار النعيم الى دار الشقاء عاد الى ذكرى صلاح الدين وسيدة الملك فاصبح همه ان يخلو بعبد الرحيم ليسأله سوالاً شغل خاطره بالامس — وهو قول راشد الدين . « اطال الله بقاء صلاح الدين » فانه لم يقدر على تعليله وهو يعلم تعمده قتله مراراً

اما عبد الرحيم فاستأذن صديقه عبد الجبار بالغياب تلك الليلة لانها الليلة التي عينوها

Marfat.com

لترقيته الى درجة المستنيرين . فبات عماد الدين على احرَّ من الجمر وقد تراكمت عليه الهواجس واخذته الغرائب . وكلما تضوعت رائحة الطيب من شعره تذكر تلك الفتاة وما لاقاه هناك من اسباب السعادة

نام تلك الليلة نوماً متقطعاً ولم يصدق طلوع النهار واذا بصديقه عبد الرحيم جاءه والبشر يتجلى في عينيه فنهض له عماد الدين وقبله وقال « قد اصبحت منذ الآن أرقى مني ولا يحق لي ان اناديك اخي كما كنت افعل »

فضحك عبد الرحيم وقال « ان صداقتنا امتن من ذلك كثيراً كنا غريبين وتحابينا ونحن الآن اخوان من عهد واحد . ولا تلبث انت ان ترتقي الى مثل رتبتي . اتمنى ذلك لك قريباً بل انا اتوقعه عن ثقة »

ولم يكن ذلك الشرف ليهمه وانما اصبح همه استطلاع رأي راشد الدين في صلاح الدين فاذا علم انه لا يزال ينوي قتله عاد الى مهمته الاولى . واما اذا تحقق صدق دعائه بطول العُمر كان له راي اخر فقال « اما انا فلا اتوقع قرب الترقي كما تظن .. ويكفيني ان تكون صديقاً لي .. ولا احب ان احملك ثقلة صداقتي لشيء اطمع به على يدك . وانما اتقدم اليك ان تفسر لي كلاماً سمعته من الشيخ الاكبر بالامس فوقع عندي موقع الاستغراب ولم اصدقه ولعلك شعرت مثل شعوري ..»

فقال « اظنك تعني قوله : اطال الله بقاء صلاح الدين ؟ »

قال « نعم هذا الذي اعني كيف ترى ؟ الاتستغرب قوله ؟ وهل هو يعني ما يقوله حقيقة ؟ . وانا اعلم انه بعث اناساً لقتل صلاح الدين غير مرة فكيف يفعل ذلك وهو يطلب بقاءه ؟ هذا هو الامر الذي احب تفسيره »

فابتسم عبد الرحيم وهو ينظر الى عماد الدين ويهم بالكلام ويمسك نفسه . فلما رآه عماد الدين يتردد قال له « اذا كنت تعرف الحقيقة ارجو ان تخبرني بها لان ذلك يهمني كما تعلم . ولعلك من اعلم الناس بامري مع هذا السلطان »

فاعتدل عبد الرحيم بمجلسه واظهر الاهتمام وقال « اعلم ياصديقي عماد الدين ان عبارة الشيخ الامام التي ذكرتها كانت مغلقة عليَّ الى مساء الامس فلما صرت من المستنيرين دخلت في جملة ما عرفته . وليست هي سرًّا اؤتمنت عليه مثل سائر اسرار هذه العشيرة لكنني اطلعت عليه بالعرض ولذلك لا يمنعني الواجب ولا الخوف من من ان اجيبك على سؤالك »

فتطاول عماد الدين بعنقه وقال « قل بالله . هل يريد الشيخ الاكبر حقيقة ان

Marfat.com

يطول بقاء مولاي السلطان صلاح الدين ؟ »

قال « نعم . انه يتمنى ذلك من كل قلبه وهو يطلبه ليل نهار »

قال « ياللعجب كيف يبعث من يقتله ثم هو يدعو بطول بقائه ؟ »

قال « العالك تعني ما حدث لصلاح الدين قبيل خروجك من مصر اذ نهض في الصباح فوجد الخنجر فوق راسه ورسالة التهديد بجانبه »

قال « نعم هذا ما اعنيه »

قال « هذا دليل على رغبة الشيخ الاكبر في طول بقاء صلاح الدين . ولولا ذلك لامر الفدائي الذي تمكن من الدخول عليه حتى غرس الخنجر في مخدته عند راسه ان يغرسه في صدره ولم يكن ثمة ما يمنعه . ولكنه امره ان يكتفي بالتهديد مع رغبته في بقائه حياً »

فاستغرب عماد الدين ذلك وقال « لكنني لم افهم الباعث على تلك الرغبة وهذا شيخنا حفظه الله قد اشتهر فتكه بالملوك والسلاطين . ولم يبق فيهم من لا يخافه حتى صلاح الدين نفسهُ فكيف هو يحب بقاءهم احياء و .. »

فقطع كلامه قائلاً « لا . لا . انه لا يلتمس طول البقاء لاحد من هؤلاء غير صلاح الدين »

فقال « ولماذا ؟ ارجو ان تفصح لي »

قال « السبب ياالخي ان شيخنا ايده الله علم بالوحي انه يموت في نفس السنة التي يموت فيها السلطان صلاح الدين . فمن مات منهما قبل صاحبه لا بدَّ للثاني ان يتبعه في تلك السنة .. فهو لذلك حريص على حياة صلاح الدين حرصه على حياة نفسه .. وهل عندك شكٌّ بصدق هذا الشيخ العظيم — قد رايت من معجزاته ما يكفي وان كان قليلاً من كثير »

فاطرقَ عماد الدين واخذ يفكر في ملسمعه ـ وهو مصدق لما يقوله راشد الدين بعد ما شاهده بنفسه فاعتقد موت الرجلين في سنة واحدة فاصبح من مصلحة صلاح الدين ان يطول عمر راشد الدين . فتحولت مهمته الى لمحافظة على حياة هذا الرجل لا قتله [1] واعتبر مهمته قد انقضت واصبح في ميل الى الخروج من ذلك الحصن والاسراع الى صلاح الدين لينقل اليه تلك البشرى ويرى حبيبته سيدة الملك . واعترضت افكاره رائحة الطيب ومناظر تلك الجنة لكن الحقيقة تغلبت على الوهم . واشتد ميله الى

(١) في التاريخ ان صلاح الدين وراشد الدين توفيا سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م)

Marfat.com

الخروج ولا سبيل الى ذلك الا ان يرسله راشد الدين بمهمة لقتل احد الملوك او الامراء فالتفت الى صديقه عبد الرحيم والامتنان بادٍ في وجهه وقال « لا انسى صداقتك يا عبد الرحيم اني اشعر بصدق مودتك شعوراً يكاد يلمس باليد . ولذلك كانت ثقتي بك عظيمة فلا ينبغي لي ان اخفي عنك شيئاً فهل تأذن لي ان استخدم تلك الثقة ؟ »

قال « قل ما بدالك فانت في موضع ثقتك »

قال « لا حاجة بي الى بيان الاسباب التي تلجئني الى سرعة الخروج من هذا الحصن فانت تعلم علاقتي بمصر فاتقدم اليك ان تساعدني على ذلك »

قال « خروجك لا يتم الا اذا دبروا لك مهمة تذهب في انفاذها لقتل كبير من الكبراء »

قال « فليكن ذلك وانا فاعل ما يأمرون به »

قال « امهلني يوماً او يومين لاغتنم فرصة تساعدني على ذلك . . »

قال « اني في انتظار وعدك بارك الله فيك »

قال « واسمح لي بالذهاب الآن فان عليَّ واجبات تتعلق برتبتي الجديدة لا بدَّ من انجازها وساعود اليك بما اوفق اليه »

قال « اشكرك يا اخي »

ونهض عبد الرحيم وانصرف

الفصل الستون

القلق والشكوك

لما خلا عماد الدين بنفسه بعد ما انتابه من الاهوال وما مرَّ به من الغرائب اخذ يفكر في ما رآه وسمعه فلم يزدد الا استغراباً وراجع ما كان يسمعه عن تدجيل ذلك الزعيم فاخذ اعتقاده بكراماته يضعف ولكنه لم يستطع تعليل ما شاهده من المعجزات تعليلاً معقولاً .. كيف يطلع على الوقائع قبل وصول اخبارها وكيف يكلم الميت فيجيبه والشعرة فتطاعه على السر ؟ وهذه الجنة بما فيها من الطيبات والحور اللواتي يمشين على سطح الماء فلا يتعكر ويخاطبن الاطيار فتطيعهن ويلاعبن الاسود فلا تؤذيهن . فاذا تمثلت له هذه الظواهر لم ير مندوحة عن الاعتقاد بكرامة الشيخ راشد الدين "

وتعب من التفكير فخطر له ان يتمشى في ذلك الحصن ولم يبق ثمة ما يمنعه لانه اصبح من اهله . فنهض ومشى فرأى ارض الحصن وما يحيط به خلواً من النبات الا ما بين يدي ذلك الجبل من السهول البعيدة . فتذكر ما شاهده بالامس من امثال النعيم من الاشجار والانهار فمال الى استطلاع خبره واين يمكن ان تكون . فصعد الى بعض المرتفعات لعله يشرف منها على تلك الحديقة فلم يوفق الى شيء من ذلك . لكنه وقع نظره وهو يجيل بصره في السهل الذي نزل فيه يوم وصوله الى هناك على ركب لم يستطع ان يتبين وجوههم لبعد المسافة . ولما اقتربوا وجدهم ماثمين وهم بضعة فرسان في ركابهم جماعة من المشاة كالخدم . فلم يهمه امرهم وعاد الى التفكير بما هو فيه من الهواجس التماساً لسرعة الخروج من هناك

وحدثته نفسه ان يفرّ فوجد ذلك مستحيلاً عليه الا بالتعرض للخطر الشديد وهو في غنى عن ذلك اذا استعان بصديقه عبد الرحيم ولا شك عنده انه لا يدخر وسعاً في سبيل انقاذه

واعاد نظره الى ذلك الركب فرآهم دنوا من الجبل حتى حجبهم سفحه عن عينيه . فترجح لديه انهم من اهل ذلك الجبل او النازلين في جواره . واحس بالجوع فتحوّل الى مجتمع الفدائيين فتناول الطعام معهم ولم يجد فيهم من يبلغ مبلغه من علو النفس ورقة الاحساس . فازداد رغبة في الخروج من هناك ولبث ينتظر عودة عبد الرحيم وهو على مثل الجمر

قضى ذلك اليوم واليوم التالي ولم ير عبد الرحيم فاشتغل خاطره ولم يعرف سبب تخلفه . وزاد بلباله لما شاهد غياب الشيخ دبوس ايضاً عن غرفته في اثناء ذينك اليومين . وبلغه انه في شاغل مع الشيخ الاكبر للمباحثة في امور هامة حدثت بعد مجيء اناس وصلوا بالامس . فتذكر الركب الذين رآهم قادمين اول البارحة فمال الى استطلاع حقيقتهم فلم ينبئه منبىء . لان هذه الاخبار لا يتناولها الا الخاصة من المستنيرين . فصبر نفسه حتى يأتي صديقه عبد الرحيم فلما استبطأه استفهم بعض الرفاق عنه فقيل له انه مع نخبة المستنيرين في شاغل عند الشيخ الاكبر

فازداد شوقاً الى الاستطلاع لكنه لم ير بدًّا من الانتظار ومضى نصف اليوم الرابع ولم يره فضاق ذرعاً واخذ الملل منه ماخذاً عظيماً وهم بالبحث عنه واذا هو قادم نحوه فاستقبله استقبال الظمآن للماء . فاكب عليه عبد الرحيم وقبله واخذ يعتذر عن تأخره وقال « اعذرني يا اخي . . كنت في شاغل لم يكن في الحسبان وكلما عزمت على

المجيء اليك بحدث شاغل جديد »

قال « نسيت قلقي واضطرابي حال رؤيتك . واشعر اني اسبب لك تعباً . لا بأس يمكنك ان تتخلص من هذه الاتعاب بتدبير مهمة اخرج بها من هذا الحصن — هل وفقت الى شيء من ذلك ؟ »

قال وهو يضحك للمداعبة « وفقت الى نصف الطلب فقط »

قال « كيف ذلك »

قال « انت تطلب امراً بالخروج من هذا الحصن لقتل احد الامراء وقد استصدرت لك امراً بقتل احد الامراء ولكن بلا خروج من هذا الحصن »

فاستغرب عماد الدين قوله وحمله على المزاح فقال « بالله قل لي الصحيح . . الم توفق الي شيء بعد ؟ »

قال « اقول لك الصحيح تماماً قد صدر امر الشيخ الاكبر لك ان تفتك بامير هو مقيم في هذا الحصن .. »

ورأى الجد في عيني عبد الرحيم فانقبضت نفسه لان رغبته انما هي في الخروج من هناك وليس في القتل والفتك فقال « افصح يا أخي فانك ازعجتني بهذه البشارة .. وانت تعلم اني اطلب الخروج قبل القتل »

قال « اعلم ذلك ولكن ما الحيلة وقد صدر امر الشيخ ؟ وهي ثقة كبرى فيك لان المهمة التي سيعهد بها اليك شاقة . وهي ستكون السبب في تعجيل ارتقائك وقد رايت مولانا الشيخ كثير الرغبة في ذلك »

فاطرق عماد الدين واعمل فكرته في ما سمعه ولم يجد فيه حيلة فقال « هل اعتبر كلامك هذا بلاغاً لي ؟ »

قال « كلا . سوف يستقدمك الشيخ الامام نفسه ويبث فيك روح العزيمة والثبات ويأمرك بما يريد . اما انا فاخاطبك مخاطبة الصديق سراً لعلمي انك في قلق »

فقطع كلامه وقال « اسمح لي يا اخي ان اقول لك انك زدتني بهذا الخبر قلقاً »

قال « ستحمد عاقبة هذا القلق يا عبد الجبار . . » وابتسم كانه يكتم سراً لا يريد ان يبوح به.

فقال « لم افهم مرادك . . بالله الا خففت بعض ما بي ولو بالتلميح انا اعلم فضيلة المحافظة على السر . ولا اطلب منك ان تبوح بسر مقدس اؤتمنت عليه لكنني ارجو تخفيف قلقي بعض الشيء .. قل لي من هو الامير او الكبير الذي سيعهد الي قتله

Marfat.com

وهو مقيم هنا ؟ اني لا اعرف كبراء هذا الحصن »

قال « ليس هو من كبرائنا وانما هو طارق جاءنا منذ يومين .. »

فالتفت عماد الدين للركب الذين رآهم قادمين في ذلك السهل فقال « رايت ركباً قادماً الى هذا الجبل منذ بضعة ايام العله كان فيه ؟ »

قال « نعم هو جاء في ركب . . اعلم اني اسر اليك امراً خطيراً .. » وخفض صوته

فقال عماد الدين « علمت ذلك ولكنني استغرب قدوم هذا العدو ليلقي حياته بين يدي عدوّه . وهو يعلم قدرته على قتله »

قال « ليس هو عدوًّا للشيخ بل هو من اصدق اصدقائه واخص اخصائه . تعارفا وهما صغيران قبل ان تصير المشيخة الى مولانا راشد الدين . ولعلك تعلم ان مولانا هذا قبل ان صارت اليه الامامة كان يقيم في مكان اسمه عقر السدن وخدم شيخ الاسماعيلية في الاموت بالديلم وتفقه على يده بالعلم والدين ثم انتقل الى سوريا ونزل حلب واخذ يعظ ويعلم واشتهر بالتقوى فتقاطر اليه الناس افواجاً . وكان يجلس على صخر ويعظهم وهو جامد كالصخر . وانما سحر الناس ببيانه وكثر اصحابه ومريدوه . وكان شيخ الاسماعيلية يومئذ رجلاً اسمه ابو محمد خافه على منصبه فبعث اليه من يقتله فاختفى في كهف قرب حلب وما زال مختفياً حتى ضعف امر ابي محمد فخافه وانتقل الى هذا المكان . هذه خلاصة سيرة مولانا فضيف اليوم من اعز اصدقائه الذين جاهدوا في نصرته ورافقه الى الكهف ثم شغل عنه بالاسفار . وعاد الآن بمهمة لا اعلم ما هي فلاقاه مولانا احسن ملاقاة واختلى به غير مرة لا ادري ما دار بينهما . لكن الشائع بين رجالنا ان مولانا فرح به كثيراً وانه من اعز اصدقائه . ومع ذلك فانه بعث اليَّ بالامس سرًّا واخبرني عن تقديره بسالتك حق قدرها وسألني اذا كنت تليق بمهمة خطيرة فاكدت له اقتدارك على ذلك وانك راغب في مهمة تعهد اليك . ولم اكن احسبه يجعلها داخل هذا الحصن . فرأيته ابدى اهتماماً كثيراً ووضع فيَّ ثقة كبرى واسرَّ اليَّ انه يجب ان يتخلص من هذا الصديق القديم على يدك . ولا يخفى عليك انها ثقة عظيمة فيك وانت لم تنتظم في سلك الفدائيين الا منذ بضعة ايام »

وكان عماد الدين في اثناء حديث عبد الرحيم مصغياً يفكر في دهاء هذا الطاغية وكيف انه عمد الى الفتك بصديق قديم له لانه رأى بقاءه حجر عثرة في طريقه — فضعف اعتقاده بكرامته لانه لا يعرف ولاية او كرامة تأمر بخيانة الاصدقاء . واخذ

Marfat.com

ظنه يتغير فيه . واصبح يخافه على نفسه اذ قد يتوهم ضرراً يأتيه على يده فيأمر بقتله . لكنه احب السكوت عن هذا الخاطر ولم يجسر على التصريح به فقال « بالحقيقة انها ثقة عظيمة فينا كلينا .. ولكن هل انت واثق ان الرجل المشار اليه كان من اصدقاء مولانا الشيخ ؟ »

قال « اني على ثقة تامة ولا ريب عندي بذلك مطلقاً واعلم اشياء كثيرة تؤيد ذلك لا اقدر ان اقولها لك الآن . . ولكنك ستعلمها في حينها . وقد يخطر لك ان تنتقد عمل مولانا الشيخ لانه عمد الى قتل صديقه ولكنك ستحمد عمله بعد حين . . فالآن . . . »

فقطع كلامه قائلاً « ربما كان مصيباً بعمله من حيث دفاعه عن سلطته فاعذره عليه . لكنني اصبحت منذ الآن اخاف على حياتي وحياتك » قال ذلك بلحن التصريح عما في الضمير ولو تحت الخطر

ووافق ذلك التصريح هوى من نفس عبد الرحيم فابتسم ابتسام المصادقة وقال « لا الومك على هذا الشك لانه خطر لي ايضاً . وهناك امور ظهرت لي بعد انتظامي في سلك المستنيرين ربما سنحت الفرصة ببيانها . واما الآن فالمطلوب ان تعلم المهمة التي ستعهد اليك فلا تتردد بقبولها وسترى اني ناصح لك . . . لا يلبث ان يأتيك رسول الشيخ يدعوك اليه ... انا ذاهب الآن وسنلتقي بعدئذ » قال ذلك وانصرف

الفصل الحادي والستون

الشيخ سليمان

ومكث عماد الدين على مثل الجمر وهو يردد ما سمعه عن راشد الدين . وتغلبت عليه الشكوك في كراماته . لكنه ما زال مكبراً اقتداره . وهو في ذلك جاءه خادم للشيخ اصم ابكم مثل سائر خدمه — وانما يقتني الصم البكم للخدمة لئلا يفهموا شيئاً مما يدور بينه وبين رجاله . فهم يحملون الاوامر بالاشارة . فلما جاءه ذلك الابكم يطلبه مشى في اثره حتى دخل به على راشد الدين وهو في غرفة صغيرة ليس فيها سواه . وقد تخفف بعمامة صغيرة وجعل يتمشى ذهاباً واياباً ويداه وراء ظهره وفيه عرج قليل

فلما وقع نظر عماد الدين عليه تهيب ووقف وقفة الاحترام . فاشار راشد الدين الى

Marfat.com

الحرسي ان ينصرف . واقفل الباب وراءه ولم يبق عنده الا عماد الدين . فناداه اليه فمشى فابتسم راشد الدين وقال له « انظر في عيني »

فنظر فاذا هما تلمعان ويكاد الشرر يتطاير منهما

فقال راشد الدين « ماذا ترى فيهما ؟ »

فاستغرب سؤاله وقال « لا ارى شيئاً يا مولاي غير النور والذكاء »

قال « اما انا فارى في عينك اشياء كثيرة .. اني اقرأ فيهما ما يكنه ضميرك »

فخاف عماد الدين ان يطلع راشد الدين على ما خامره من الشكوك فيه فقال « لا غرابة في ذلك فقد تحققناه من قبل »

قال « ويسرني اني تحققت صدق طاعتك واخلاصك . ولذلك رأيت ان اسرع في مكافأتك وهذا لا يكون الا بمهمة تقضيها . ورغبة في التعجيل جعلت ذلك قريباً في هذا الحصن . . فهمت ؟ »

قال « اني طوع امرك يا مولاي »

قال « ان في هذا البيت المنفرد داخل سور هذا الحصن اميراً كبيراً ينبغي ان يذهب من هذا العالم بلا ضوضاء ولا شكوى وان يكون ذلك على يدك . فما رأيك ؟ »

فانحنى انحناء الطاعة وقال « وهل للعبد رأي بين يدي مولاه ؟ انما يأمره فيفعل »

فقبض على انامل عماد الدين بكفيه وامره ان ينظر في عينيه ثم قال له « اريد ياعبد الجبار ان تقتل الشيخ سليمان اللعين . تقتله وتخمد انفاسه . . هكذا أريد . . »

فاحس عماد الدين عند سماع ذلك الصوت على هذا الشكل بقشعريرة جرت في عروقه . وكأن شرارة كهربائية تطايرت امام بصره . فاغمض جفنيه رغم ارادته . فقال راشد الدين « قد احسنت ياعبد الجبار انك فاعل ما أويد وسوف تنال جزاء امانتك .. واعلم انك منذ الآن خادم لسليمان او الشيخ سليمان كما يسمونه تخدمه في حاجياته — فالبس لباس الخدم وغير قيافتك وابذل جهدك في ارضائه حتى تغتنم منه غرة تقتله فيها ولا يشعر احد بك . واحب ان يكون ذلك خارج القلعة . وانت عند ذلك من طبقة المستنيرين » ثم ادنى شفتيه من اذنه وقال له « ومع الرجل امرأة بارعة في الجمال ستكون غنيمة لك مع سائر ما يمتلكه من اثاث وغيره . ويمكنك التعويل على صديقك ولدنا عبد الرحيم في بعض التفصيل . وهذا يكفي .. امض الآن الى نائبنا الشيخ دبوس وهو يتم جهازك بما يلزم » قال ذلك وترك انامله فودعه وخرج وهو يرتجف من عظم التأثر واخذ يفكر في من عساه ان يكون سليمان هذا . ولم يهمه ان تكون امراته جميلة وهو

Marfat.com

لا يرضى من سيدة الملك بديلاً

سار توًّا الى الشيخ دبوس ولم يحتج في تفهيمه الى كلام لانه كان على بينة مما يطلب منه فحال دخوله عليه قال له « ادخل يا عبد الجبار واقفل الباب »

فدخل ونهض الشيخ دبوس بنفسه اعطاه لباس الخدم واصلح شعره وقيافته بحيث تغير شكله كثيراً ودفع اليه كتاباً وقال له « تأخذ هذا الكتاب الى ذلك المنزل وتكون خادماً لصاحبه كما امرك مولانا الشيخ الاكبر . . فهمت ؟ »

فاشار مطيعاً وخرج وهو كالخادم تماماً . وقبل خروجه نظر الى وجهه في المرأة فانكر نفسه . وفي يده بطاقة الشيخ دبوس الى سليمان وهو يتردد في ذهابه ويقول في نفسه « كيف اقتل هذا الرجل ولا ثأر بيني وبينه » ثم خطر له قول عبد الرحيم انه سيجد في قتله راحة فوقع في حيرة

وما عتم ان وصل الى المنزل الذي ذكروه له فوجد الباب مقفلاً . فاخذ في البحث عن الشيخ سليمان في ذلك الجوار فلم يقف له على خبر فقعد على صخر في ظل البيت ينتظر قدومه لعله ذهب في حاجة لا يلبث أن يعود منها . واستغرق في هواجسه وتفقد الخنجر الذي خبأه تحت اثوابه للفتك عند سنوح الفرصة . لكنه ما زال يتردد في أمر القتل

وهو في ذلك رأى رجلاً قادماً عن بعد وعلى رأسه عمامة خضراء اللون كبيرة الحجم وقد ارسل شعره تحتها حول رأسه الى كفيه وتزمل بجبة طويلة وعلق في صدره سبحة طويلة وحمل سبحة أخرى بيده يعدد حباتها ويتمتم كانه يصلي او يدعو كما يفعل المنقطعون عن العالم الى الصلوات والدعوات . فتحقق انه الشيخ سليمان لا محالة فجعل يراقب حركاته وهو قادم حتى دنا منه فتقدم اليه وهم بتقبيل يديه ودفع اليه بطاقة الشيخ دبوس . فتناولها وفضها وقرأها وهو لم ينظر الى عماد الدين بعد فلما اتم قراءتها رفع بصره اليه وقال « يقول اخونا الشيخ دبوس ان مولانا الشيخ الاكبر بعثك لخدمتنا »

قال « نعم يا سيدي وهل يتم لي هذا الحظ ؟ »

قال « كنت في غنى من الخدم لاني احب الخلوة بنفسي للصلاة والدعاء وطعامنا يأتينا من مطبخ الجماعة فما هي الحاجة الى الخدم ؟ »

وكان عماد الدين يسمع قوله وهو يتفرس في سحنته كانه رأى ذلك الوجه وسمع ذلك الصوت من قبل . فلما فرغ الشيخ سليمان من قوله اجابه عماد الدين « قد امرني

Marfat.com

الاستاذ الاكبر ان اقف بباب مولاي اخدمه بما يحتاج اليه فان كان في شاغل بالصلاة او غيرها فلا شأن لي به وانما الي امره اذا امرني فاجلب له الطعام او ما يحتاج اليه من الامور »

قال « حسناً . . ما هو اسمك ؟ »

قال « عبد الجبار »

قال « طيب اقعد هنا واني شاكر لاخينا الشيخ على فضله . وعلى كل حال لا حاجة لي بك في الليل فاذا غابت الشمس انصرف الى مكانك » ومشى نحو الباب وتناول المفتاح ليفتحه وعماد الدين يراقب حركاته ويبحث في ذاكرته عما يعرفه عن ذلك الرجل واين رآه في دمشق او القدس او مصر فلم يخطر له شيخ يعرفه بهذا الاسم

دخل الشيخ سليمان المنزل وظل عماد الدين جالساً على حجر وقد شغل خاطره بامر هذا الرجل . ولم يتذكر اين رآه فظن نفسه واهماً في تصوره فصرف فكره عنه وعاد الى التفكير في صلاح الدين والخروج من ذلك الحصن ليخبره بما علمه ويرى سيدة الملك على فراغ واطمئنان

وكانت الشمس قد مالت الى الغروب فذهب ليأتيه بالعشاء وكانوا قد اعدوه له في اطباق فحماها فوق راسه حتى اتى الباب وقرعه وطال انتظاره قبل ان فتحه له . ولما فتحه تناول الطعام منه وادخله بيده ودفع اليه ديناراً وقال له « قد جاء الغروب فانصرف لشأنك يا عبد الجبار »

فتناول الدينار واظهر الامتنان وانصرف وهو يفكر في امر هذا الرجل وحرصه الشديد على منزله حتى لا يأذن لخادمه بالدخول اليه . وهو في الطريق لقيه عبد الرحيم فسلم عليه وسأله عما جرى فاخبره بما شاهده وما استغربه من حال الشيخ سليمان فضحك عبد الرحيم وقال « لم يسمح لك بالدخول لا بأس . . . الم تتذكر انك تعرفه من قبل »

قال « تصورت لاول وهلة اني رايت ذلك الوجه او على الاقل سمعت ذلك الصوت . لكنني غيرت فكري لاني وجدت نفسي واهماً »

فقال وهو يحك عثنونه ويخفي ضحكه « قد تكون واهماً وستبدو لك الحقيقة بعد قليل لكن كيف اشار بانصرافك الآن وهو قد يحتاج اليك في الليل ؟ »

قال « لا ادري . ويظهر لي انه يكتم اشياء لا يحب ان اطلع عليها . اظنك عرفت عنه شيئاً لم تفصح علي »

قال عبد الرحيم « عرفت عنه اشياء كثيرة لا اقدر ان ابوح بها كما تعلم . لكنني اقدر ان اقول لك بانه من اصحاب المطامع السياسية وهي التي ستجر اليه حتفه . ويظهر لي انه اراد ان يشارك شيخنا بسلطانه او انه طلب منه اموراً لا يوافقه عليها . وهو يعرفه صغيراً فخاف اذا اغضبه ان يشيع عنه اموراً تقلل هيبته فاحب التخلص من حياته . هذا الذي لحظته الى الآن وسترى الحقيقة وانت اولى مني بكشفها »

فقال « هذا اول يوم رأيته فيه وقد صرفني ساعة الغروب وسأعود اليه في صباح الغد »

قال « هب انه صرفك فيمكنك ان تبقى قريباً من منزله لعله يحتاج اليك او لعلك ترى فرصة مناسبة للقيام بمهمتك »

الفصل الثاني والستون

في الطريق

وكانا ماشيين وقد اخذت الاظلال تتكاثف واوشك الظلام ان يسدل نقابه . فقال عماد الدين « الى اين نحن ذاهبون الآن ؟ »

قال « الى حيث تشاء »

قال « احب ان احادثك ببعض الامور »

قال « تعال الى غرفتي انها على مقربة من هذا المكان » ومشى حتى دخل الغرفة وفيها مصباح ضعيف اضاءه له بعض الخدم . فقال عماد الدين « احب ان نكون في خلوة »

فأومأ عبد الرحيم الى خادمه بالانصراف وقعد واشار الى صديقه ان يقعد فقعد وهو يتنهد فقال له عبد الرحيم « ما بالك يا صاحبي لماذا تتنهد ؟ »

قال « اتنهد يا اخي لاني اشعر كاني في قفص لا أرى لي منه مخرجاً وقد أطعتك في كل شيء كما رأيت ولا يمكنني ان انكر صدق نصيحتك لي كل مرة . لكنك تعلم ايضاً اني لا اقدر على البقاء هنا طويلاً ولي في مصر اناس ينتظرون رجوعي وو.. » وسكت

Marfat.com

فادرك عبد الرحيم ما يعنيه فقال «اتريد ان تخرج من هذا الحصن ؟»

قال « نعم اريد ذلك . ارجو ان تساعدني عليه »

قال « وعدتك اني فاعل ما تريد ولكل أجل كتاب . اني مدبر طريقة لخروجنا كلينا »

ففرح عماد الدين بهذه البشرى وقال « وانت ايضاً عازم على الخروج ؟ »

قال « نعم وربما اتفق خروجنا معاً »

قال « هذا هو الافضل .. قد اطمأن بالي الآن — وان كنت لا اعرف سبب رغبتك في الخروج بعد ان صرت من خاصة الاسماعيلية واطلعت على اسرارها .. »

فأشار اليه بسبابته على فمه ان يسكت وقال « سوف نتكلم عن ذلك في فرصة أخرى . اما من حيث رغبتك في الخروج فتدبيره علي حالا تفرغ من مهمتك . تعال اليّ فتجدني هنا في اكثر الاوقات وانما يطلب منك ان تسهر على مهمتك المعلومة »

قال « حسناً . اني ذاهب كما قلت . » وأشار الى خصره وقال « وهذا هو الخنجر الذي سأغمده في صدر هذا الشيخ . لغير ذنب له عندي » ثم استأنف الكلام قائلاً « ولكن الشيخ راشد الدين قال لي أن للرجل زوجة ستكون لي غنيمة فهل هي معه في هذا المنزل . وقد أوعز اليّ الشيخ ان اعوّل عليك ببعض التفاصيل فما هو رايك ؟ »

قال « رأي ان تفتك بهذا الضيف باول فرصة . اما امرأته التي أشار اليها شيخنا فليست هنا . وانما هي في منزل خارج الحصن بجوار القرية القريبة منه مع سائر اهله وخدمه »

قال « وسمعت من شيخنا انه يفضل ان اقتله خارج الحصن . فهل هو يذهب الى هناك ؟ »

قال « قد اذن له بالذهاب متى شاء وهو يذهب كل ليلة تقريباً . فالافضل ان تغتنم وجوده خارجاً وتقضي عليه ومتى قتلته اصبحت امرأته وسائر ما يملكه حلالاً لك »

فقال عماد الدين « اسمح لي ان استشيرك بامر آخر . ما قولك اذا قضيت مهمتي هذه وأنا خارج هذا الحصن ان ابقى خارجاً وانصرف في طريقي »

قال « نعم الرأي هو . وانا اتبعك على عجل »

فقال « وكيف تعلم اني فرغت من مهمتي »

قال « متى صرت في آخر هذا النهار اوقد مشعالاً مزدوجاً وحالما أرى المشعال من

Marfat.com

هنا اخرج اليك ونذهب معاً »

فانبسطت نفس عماد الدين لهذا الرأي وهمَّ بالانصراف فامسكه عبد الرحيم وجذبه اليه وقال « احذر ان تحدثك نفسك وأنت خارج الحصن ان تفرّ بدون ان تقتل الشيخ سليمان . بل يجب ان تقتله ولو لم تستطع الفرار .. اسمع نصحي هذه المرة ايضاً . . »

قال « حسناً سأفعل كما تقول .. ولكن هل أقدر على الخروج من باب الحصن بلا اذن ؟ »

قال « اذا داهمك الوقت قبل ان استأذن لك يكفي ان تقول للبواب شعار الخروج فيفتّح لك الباب »

قال « وما هو ذلك الشعار »

قال «قل له : حسن بن الصباح في الاموت : فيطلق سراحك »

قال « بارك الله فيك — قد انشرح صدري الآن وسأذكر لك هذا الفضل في جملة افضالك » قال ذلك ومشى نحو منزل الشيخ سليمان وقد اشتد الظلام . فلما دنا من المنزل رأى ذلك الشيخ خارجاً منه وبيده مصباح

فتقدم اليه كانه راه بالصدفة وحياه واكب على يده يقبلها وقال « كيف تحمل المصباح لنفسك وانا خادمك قد امرني مولانا الشيخ بخدمتك » قال ذلك وتناول المصباح منه ومشى بين يديه حتى دنا من الباب ففتحوه له . فأحب الشيخ ان يسترجع المصباح منه فأبى ان يعطيه اياه تخفيفاً للثقلة عنه وقال « اذا علم مولانا الشيخ الاكبر اني لم أقم بحق خدمتك غضب عليَّ وعنفني »

فأطاعه ومشى ولم يعترضه أحد لانه أسرَّ الشعار الى البواب . مشى بين يدي الشيخ والطريق اكثره منحدر حتى اذا فرغ من الانحدار وقف الشيخ وقال « بارك الله فيك هات المصباح .. انني على مقربة من منزلي »

قال « اني أسير بين يديك الى باب المنزل »

قال « لا حاجة الى تعبك .. هذا هو المنزل » وأشار باصبعه الى نور ضعيف لايظهر سواه في ذلك السهل

فقال « بل اسير معك حسب امر مولاي »

فوقف الشيخ ومد يده ليتناول المصباح منه فامتنع عماد الدين عن ان يناوله اياه فغضب الشيخ وقال بانتهار « هات المصباح يا غلام . وانصرف لسبيلك .. »

فقال عماد الدين « أهذا جزاء من يريد القيام بخدمتك ؟ » قال ذلك واستل خنجره واغمده في قلبه . فوضع الشيخ كفه على موقع الضربة وصاح « آه . قتلتني يا لعين . ويلاه آه .. ماذا فعلت معك ؟ . »

فهم عماد الدين ان يثني الضربة فأمسكه بيده الأخرى وهي ترتعد وقال « هذه الطعنة تكفي لقتلي ... فأغمد الثانية بصدر تلك .. الخائنة ... انظر .. اني مسامحك على قتلي .. لاني استحق القتل .. ولكن ... هناك امرأة .. هناك .. في هذا المنزل حيث ترى ... النور... امرأة ... احق بالقتل مني .. بالله ألا ذهبت اليها ... وقتلتها وخذ ما في جيبي من النقود والجواهر مكافأة لك ... » قال ذلك وسقط وعماد الدين يستغرب قوله فاكب عليه وفتش جيبه فوجد فيه اوراقاً ونقوداً وجواهر استخرجها وتركه يختبط بدمه

مشى وهو يفكر في هل يذهب الى ذلك المنزل ام يسير توًّا الى مصر ومعه النقود . فترجح لديه الذهاب الى مصر مخافة ان يكون في ذهابه الى المنزل ما يعيقه عن المسير او ربما بعث راشد الدين في استقدامه فيعود الى الحصن . وقد كان في عزمه ان يمرّ قبل قتل الرجل لو لم يلح عليه عبد الرحيم بقتله فاطاعه وهو لا يعلم السبب لكنه استخلصه ورأى في طاعته خيراً

الفصل الثالث والستون

المنزل

فلما رجح الفرار وقف يفكر في الطريق المؤدي الى مصر وقد اشتد الظلام وهو لا يميز الطرق ولا يعرف الجهات . وتذكر وصية القتيل وغرابتها واستدل منها انه ناقم على امرأة يريد قتلها . فرأى ان يذهب الى المنزل ويستدل من هناك على الطريق . فمسح خنجره واغمده وأصلح من شأنه واطفأ المصباح حتى لا يراه احد ومشى نحو النور . ولما اقترب من المنزل جعل خطاه خفيفة كأنه يلتمس الطريق وأصغى بسمعه وتطاول بعنقه . وخطا خطوات قليلة حتى اوشك ان يدق الباب. فسمع رجلاً يخاطب رفيقاً له في ذلك البيت قائلاً « ألم تر مصباح الشيخ ؟ »

فاجابه الآخر « رايت مصباحاً منذ هنيهة على بعد يشبه مصباحه »

قال « بل هو هو بعينه ثم انطفأ ... ماذا جرى له يا ترى ؟ »

Marfat.com

قال لا تخف عليه ... انه طويل العمر .. »

قال « اراك تحسده على حياته وهو من اشقى خلق الله .. »

قال « صدقت لم ار اشقى حياة منه .. »

فقطع الآخر كلامه قائلاً « بل اشقى منه هذه المسكينة التي لا يبرح يعذبها ويضربها و ... »

فقال « صدقت . . مسكينة . . ان قلبي يتقطع عليها احياناً . . وكم حدثتني نفسي ان انتصر لها ... »

فقال ذاك « مالنا ولها .. انما نحن نلتفت الى مصلحتنا فاذا وفى لنا بما وعدنا به .. حصلنا على السعادة الحقيقية . . اليس كذلك ؟ اذ نصير من كبار الامراء . . . »

فقال الآخر « هل تعتقد كل ما يقوله الشيخ صحيحاً ؟ . »

فقال « اذا لم يصح الا بعضه فاننا نكون سعداء . . يظهر انك لم تفهم حقيقة مهمته عند شيخ الاسماعيلية »

قال « فهمتها . . كيف لا ؟ »

قال «لا . لم تفهمها كما هي .. اعلم ان مولانا الشيخ هذا كان صديقاً للشيخ راشد الدين سنان رئيس الاسماعيلية الآن قبل ان صار رئيساً وقد اعانه وارتكب معه اموراً كثيرة حتى تمكن راشد الدين من هذه الرئاسة . فحسده صاحبنا فاراد ان يعمل عملا يفوق به على صاحبه فذهب الى مصر وطمع بالخلافة . . »

فضحك الآخر وقال « بالخلافة ؟ »

قال « نعم طمع ان يكون خليفة وسمى نفسه ابا الحسن وادعى النسب الفاطمي وصدقه الناس. ولما مات خليفة مصر العاضد بايعه جماعة من المصريين. ثم انكشف امره لصلاح الدين وقبض على رفاقه ونجا هو بنفسه وجاء الشام .. وانت تعلم ما جرى بعد ذلك . وكيف كلف بعض الفدائيين الذين يقتلون بالقتيل بدرهمين فاختطفوا له هذه المراة من بيتها وهي تكرهه ولا تطيق ان تراه .. »

فقطع الآخر كلامه وقال همساً «احذر ان تذكر الفدائيين بسوء . فاننا في دارهم وأما هذه المرأة فانت لا تعرف من هي : مسكينة كم قاست منه . . قبحه الله .. لا اظن لها نجاة الا بموته .. »

فضحك ذاك وقال «انه طويل الحياة .. لا خوف عليه لا سيما اذا نجح بمهمته عند راشد الدين . . والحق يقال انه يحب هذه المرأة ويعدها بكل خير اذا احبته . لكن

Marfat.com

لا تحبه . فطبعاً هو يضربها »

فتفهم عماد الدين من هذا الحديث انه قتل ابا الحسن لكنه لا يعرف علاقته بسيدة الملك وانما يعرف انه من الناهضين على صلاح الدين وانه نجا من القتل . فرقص قلبه فرحاً لانه سيذهب الى صلاح الدين بخبرين مهمين : الاول ذهاب الخطر عن حياته من رائد الدين والثاني انه نجاه من ابي الحسن . لكنه سمع في اثناء الحديث انه يعذب امرأته حتى اشفق عليها الخدم . وتذكر ان ابا الحسن أمره بقتلها واجازه عليه سلفاً . وكان عماد الدين قد اصبح بعد تعلقه بسيدة الملك يشفق على كل انثى لاجلها . فاحس بميل الى انقاذ هذه المسكينة . ورأى الخدم مشعرين بظلامتها فتقدم الى الباب وطرقه فاجفل الرجلان وصاح احدهما « من الطارق ؟ » وقال لرفيقه « لعله مولانا الشيخ سليمان ألم اقل لك اني رأيت مصباحه ؟ »

فقال عماد الدين « افتح اني رسول من الشيخ سليمان »

ففتح احدهما الباب ودخل الآخر فاتى بالنور وادناه من وجه عماد الدين فرأياه ورآهما فلم يذكر انه يعرف احدهما . لكنه عرف من زيهما انهما من اهل دمشق . وكان قد لحظ ذلك من لهجتهما . وكلاهما في حدود الكهولة فتقدم احدهما وقال لعماد الدين « ماذا تريد ؟ »

قال « بعثني الشيخ سليمان بمهمة ومعي هذا المصباح علامة لصدق الرسالة فانطفأ في أثناء الطريق »

قال « صدقت وما الذي تريده ؟ »

قال « أمرني ان آتيه بامرأته على بغلتها وهو في انتظارها بباب الحصن »

فالتفت الرجلان احدهما الى الآخر لفتة الاستغراب ولسان حالهما يقول « كيف يبعث الرجل يطلب امرأته على بغلتها الى الحصن وما الذي يريده منها هناك ؟ » فقال احدهما « وهل يطلب امرأته وحدها ؟ »

قال « يطلبها مع ما تريد حمله من متاعها وثيابها »

قال « علينا ان نبلغها الرسالة » ودخل الرجل والنور بيده وظل عماد الدين واقفاً وقد اصاخ بسمعه . واول شيء سمعه قبل وصول الرسول انين وتأوه وصوت ضعيف يقول : « ويلك من الله يا خائن .. ألا تخاف العقاب يوم الدين ؟ . اين انت يا موت .. متى تأتي ساعتي واتخلص من هذه الحياة .. آه .. ما بالهم يتأخرون علي ؟ . »

ولما سمع عماد الدين ذلك الصوت اقشعر بدنه لانه كثير الشبه بصوت سيدة الملك .

Marfat.com

وحدثته نفسه ان يتقدم ليراها ولكنه صبر ليسمع ما يدور بينها وبين الخادم . فاذا هو يقول لها « ان سيدي الشيخ بعث يطلب مولاتي اليه في هذا الحصن »

فصاحت فيه «الى اين ؟ من هو سيدك هذا . ما بالكم تزعجونني بالاسئلة . دعوني لعلي انام لحظة انسى فيها مصائبي »

قال « لا تغضبي يا سيدتي .. ان مولاي بعث رسولاً خصوصياً من خدمة الشيخ راشد الدين ان يحملك اليه بما تريدين حمله من متاعك وثيابك و .. »

فقالت « لا .. لا اذهب اليه .. الا محمولة على خشبة . دعوني منه . لعنة الله عليه . ويا ويله من الله .. ومن يوم الدين ... آه ... آه . حملني الى بلاد ليس فيها من يعرفني ولم يشفق على قلبي .. آه ... كل بلائي من هذا القلب .. »

واصبح عماد الدين يرتعد من عظم التأثر لان الصوت صوت سيدة الملك . ولو كان عالماً بما بينها وبينه لم يشك انها هي لكنه استبعد وصولها الى هناك وهي تحت ظل صلاح الدين . وانما ارتعد انتصاراً لامرأة مظلومة اكراماً لحبيبته لانها من جنسها . وزادت نقمته لان صوتها يشبه صوتها . ثم سمع الرجل يخاطبها قائلاً « والآن يا سيدتي ماذا تريدين ان نفعل .. لا بدَّ لنا من اخذك اليه حسب امره وهذا رسوله واقف بالباب . وهل في الامكان رد طلبه .. ؟ فالاوفق ان تنهضي راضية .. »

فلما سمعت تهديده صاحت صيحة قف لها شعر عماد الدين قائلة «اتهددونني بالاخذ قهراً ؟ . يريد هذا الشقي ان يحملني على ايدي اللصوص كما فعل قبل الآن ؟ . » ثم خفضت صوتها وغصت بدموعها وقالت « ولكن الله بعث الي في تلك المرة ملاكاً شجاعاً انقذني من مخالب الموت وانقذ شرفي وحياتي » ثم تنهدت وقالت « آه . أين انت يا عماد الدين ؟ . »

فلما سمع عماد الدين نداءها لم يتمالك عن الوثوب كالاسد الكاسر وقد تحقق ان تلك المظلومة حبيبته سيدة الملك واجابها « لبيك .. لبيك .. لبيك .. يا سيدتي .. »

وما لبثت ان سمعت صوته حتى رأته بين يديها وقد ازاح الخادم بيده وتقدم نحوها وهو يقول « مولاتي سيدة الملك انت هنا في هذا العذاب ؟ »

فشخصت اليه شخوص الابله كانها اصيبت بجنة وقد جمدت عيناها وعقد لسانها ولم تعد تستطيع النطق لكنها تماسكت وتوهمت نفسها في حلم فقالت وصوتها يتقطع وهو مختنق «عماد الدين ! عماد .. الدين ! آه .. ياليت ذلك كان في يقظة » وغطت وجهها بكفيها واخذت في البكاء

Marfat.com

فتقدم عماد الدين نحوها وقد تقطع قلبه لرؤيتها من شدة الضعف ولو شاهدها بدون ان تناديه لما عرفها — فامسك بيدها وقال « انت في يقظة ياسيدتي .. انا عماد الدين .. انت في يقظة .. روحي فداك لا تخافي .. »

الفصل الرابع والستون

الحقيقة

فلما سمعت صوته ثانية فتحت عينها والدمع يغشاهما ونظرت اليه وهو في زي غير زيه . لكنها عرفت صوته وتفرست في وجهه وهي لا ترى شيئاً من الدمع فمسحت عينيها بكمها فعرفت عينيه فصاحت « عماد الدين ! انت عماد الدين ؟ من ارسلك الي ؟ . لا . لا . لست عماد الدين . انت خادم ذلك الخائن جئت لتأخذني اليه .. بالله قل لي . هل انت عماد الدين ؟ » وضحكت كالابله المعتوه وقالت « انت عماد الدين ؟ .. ان المعجزات لا تتكرر .. نعم اتى عماد الدين لانقاذي في مثل هذا الضيق فياليته يأتي الآن » ثم سكتت كانها استرجعت رشدها ومسحت عينيها ثانية ونظرت الى عماد الدين نظر متفرس وهو جاث بين يديها وعيناه شاخصتان في عينيها وقلبه يكاد يتفطر . فما لبثت ان تحققت انها ترى عماد الدين فصاحت ملء فيها « عماد الدين ! عماد الدين ! » وترامت عليه وقد اغمي عليها . فانهضها وتراكض الخدم بالماء فرشها به وهو يمسح وجهها وعينيها بمنديله — وسقاها جرعة من الماء . فانتعشت واعادت النظر الى عماد الدين وهي تضحك ضحك طفل استرجع شيئاً كان يبكي لفراقه

لكن تلك الضحكة ابكت عماد الدين وقد شق عليه ان يرى تلك الملكة اخت الخليفة قد ذهب ملكها وصارت اسيرة في حيازة صلاح الدين ثم سيقت كرهاً مع ذلك الشيخ اللعين لكنه حالما تذكر ان قتله سرّي عنه وعاد الى تطمين سيدة الملك وقال « صدقت اني يا سيدتي عبدك عماد الدين »

فصاحت « الا تزال تقول انك عبدي انت سيدي وتاج رأسي . انت منقذي من الموت والعار مرتين .. انت روحي .. انت حياتي .. انت .. آه انت .. دعني لقد خلعت العذار .. » وغطت عينيها خجلاً

فانتبه عماد الدين لوجود ذينك الخادمين وكان قد عرف كرههما لابي الحسن

Marfat.com

وشفقتهما على سيدة الملك فقال لكبيرهما « ربما استغربتما ما رأيتماه في هذه الليلة وقد علمت انكما ناقمان على ذلك الشرير وان قلبكما مع هذه السيدة اليس هكذا ؟ » قال ذلك ومد يده الى جيبه وفيه نقود ابي الحسن واعطاهما بلا حساب

فاعجبهما كرمه واريحيته واجابه احدهما « صدقت .. ويظهر انك لست خادماً كما ادعيت • بل انت امير ارسلك الله لانقاذ هذه السيدة .. انها قطعت قلبنا واوشكنا ان نأخذ بيدها ونخلصها من ذلك الظالم »

فقال « إذن انتما مسروران بنجاتها »

قال « نعم ونحن رهينا الاشارة في اي خدمة تريدها منا ولو كانت بقتل ذلك اللعين »

قال « لا حاجة الى قتله فقد كفانا الله شره في هذه الليلة . وهذه النقود التي كانت معه اعطيتكم بعضها وهذا البعض الآخر » ودفع اليهما دفعة اخرى

فزادهما دهشة فقال احدهما « قتلته ؟ • لا رحمه الله •• »

وكانت سيدة الملك تنظر الى عماد الدين وهو يخاطب الرجلين نظر الاعجاب والحب وعيناها غائرتان من الضعف والهزال وقد امتقع لونها . فلما سمعت التحدث بقتل ابي الحسن قبضت على عماد الدين واجتذبته نحوها وهي تقول « قتلته ؟ »

قال « نعم . وكنت اود اني عرفته قبل قتله لاشبعه قتلاً واخبره وهو في حشرجة الموت اني قتلته في سبيل طاعتك انتقاماً لفظاعته »

فقالت « وماذا قتلته وكيف ؟ »

قال « فعلت ذلك بامر رجل يظهر انه كان عارفاً نقمتي عليه فالح علي ان اقتله وقال اني سأحمد مغبة عملي وقد اصاب » — ثم تذكر وصية ابي الحسن قبل موته وقال « لعنة الله عليه . . لم اسمع برجل اعظم شراً منه اتعلمون ماذا قال لي ؟ قال انه يستحق الموت ودفع الي هذه النقود وقال اطلب اليك ان تقتل امراتي التي في منزلي لانها احق بالقتل مني •• انظروا ماذا قال وهو في آخر لحظة من لحظات الحياة وقد اشرف على الآخرة . انه يريد ان ينتقم من هذا الملاك ودفع اجراً على ذلك قد اخذتموه فانتم اولى به »

ثم التفت الى الرجلين وقال لهما « هل تحبان البقاء معنا ؟ »

قالا « نعم •• نحن في خدمتكما كما تشاءان »

قال فاتقدم اليكما ان تتأهبا للمسير الساعة •• هيأا الاحمال ولنسافر الآن »

فاخذا في الاستعداد وجلس عماد الدين بين يدي سيدة الملك يسألها عن سبب وصولها

Marfat.com

الى هُناك . فاخبرته ان ذلك اللعين احتال في اختطافها على يد فدائي جعل نفسه خادماً وراقبها حتى خرجت من القصر الى بعض البساتين ومعها حاضنتها ياقوتة وقد كمن لهما جماعة دُسهم ابو الحُسن فهجموا عليهما ودافعت ياقوتة دفاعاً حسناً لكنهم ضربوها حتى سقطت لا تبدي حراكاً . وان اولئك الاشقياء حملوها وحدها وخرجوا بها وهي مكمومة الفم مغلولة الايدي . وكان ابو الحسن بانتظارهم في ضواحي القاهرة واخذ يعذبها انتقاماً منها لانها كانت سبب شقائه وفشله ثم انتقل بها الى الشام وهناك استخدم هذين الخصيين وغمرهما بالمال . ثم جاء بهم جميعاً الى هذا الحصن فتركها معهما في ذلك المنزل ودخل على راشد الدين ليستعين به على الانتقام من صلاح الدين لعل بعض الفدائيين يقتله

هذه خلاصة ما قصته سيدة الملك على عماد الدين وهو جالس بين يديها يصغي اليها بكل جوارحه ، وهي لم يمر عليها يوم في حياتها شعرت فيه بلذة الحياة مثل شعورها في تلك الساعة مع انها في برية مقفرة وقد اضناها الضعف — ولكن الحب مصدر السعادة كما هو مصدر الشقاء ولولاه لكانت الحياة جامدة باردة لا لذة لها ولا معنى فيها

وقصَّ عليها عماد الدين مهمته في مصاحبة صلاح الدين وما قاساه من العناء وكيف انتهت بالفوز واصبح صلاح الدين في مأمن من الفدائيين . فلما سمعت اسم صلاح الدين اشرق وجهها وقالت « بارك الله في صلاح الدين انه نادر المثال »

فضحك وقال لها « الم اقل لك ذلك في آخر ليلة رأيتك فيها وانت ناقمة عليه ؟ »

قالت « لم اكن اعرفه .. وفي كل حال فاني امتدح مروءته وعلو همته . واما انت فكنت تمتدحه في معرض آخر .. فهو في ذلك المعرض لا يزال حكمي عليه كما كان .. ولا سيما اذا قابلته بعماد الدين . . » وضحكت وكانت تتكلم وعيناها شاخصتان فيه تكاد تتلقفه بهما

ثم جاء الخادمان وقد اعدَّا الركائب وشدَّا الاحمال فركبوا جميعاً وقد توسط الليل واطل القمر من وراء جبل السماق . فتذكر عماد الدين صديقه عبد الرحيم وما اوصاه به فلما امعن في السهل امر احد الرجلين ان يوقد مشعالاً مزدوجاً ففعل

وسار الركب وبغلة سيدة الملك بجانب فرس عماد الدين وهما يقصَّان ما جرى لهما في تلك المدة الطويلة — والمحب اذا غاب عن محبيبته ساعة عاد ومعه عدة حكايات يرويها وهو يرى في ذلك لذة خصوصية لا يشعر بها غير المحبين . والغريب ان المحب لا يصبر على كتمان شيء عن محبيبه كأنه يرى في كتمانه خيانة او كأن قلبيهما يطلبان

Marfat.com

المكاشفة في كل شيء . فكما يتشاركيان ويتعاتبان . فهما ايضاً يلذ لهما نقل ما في قلب لواحد الى قلب الآخر من حب او عتب او شكاية او حديث

الفصل الخامس والستون

عبد الرحيم

وهم في ذلك وقد بعدوا عن جبل السماق سمعوا وقع حوافر جواد وراءهم وكان عماد الدين لا يفتر يترقب سماع ذلك التماساً لمجيء صديقه عبد الرحيم وقد اصبح في شوق لرؤيته ليستطلع منه ما لمح اليه به وهما في الحصن

فلما سمع وقع حوافر الفرس تباطأ في المسير ووقفت معه سيدة الملكة . فاشار اليها ان تبقى سائرة والخادمان يتبعانها فمشت وتأخر هو لحظة فوجد صديقه عبد الرحيم يسوق فرسه كأن وراءه اناساً يطاردونه فناداه « عبد الرحيم ؟ »

فاجابه « عماد الدين ؟ »

قال « ما وراءك ؟ أراك مسرعاً هل عليك بأس ؟ »

قال « كلا . لكنني خفت عليكم »

قال « ما الذي اخافك علينا ؟ اننا في امان »

قال « كنت في اثرك ساعة طعنت ذلك اللعين الطعنة القاضية وتربصت بعد ذلك وانا اراقب حركاتك حتى علمت انك دخلت منزله ثم طال انتظاري ولم اشاهد مشعالك فخفت ان تكون قد اصبت بسوء فركبت نحو المنزل من طريق آخر فلم اجد هناك احداً ثم رأيت المشعال فهرعت اليك .. هل عليكم بأس ؟ »

قال « لا بأس علينا والحمد لله بل نحن في خير وبركة »

قال « هل علمت من هو الشيخ سليمان الذي قتلته ؟ »

قال « نعم علمت انه ابو الحسن صاحب ثورة القاهرة التي ذهبت بسببها الى مخبر . . . بتلك الرسالة المباركة وجئتني بذلك الجواب الثمين . . وقد ظهر لي من الحاحك علي بقتله ان في الامر سراً وقد ظهر الآن انك اعنتني على التخلص من هذا الشرير وهذه بشرى سنزفها الى مولاي صلاح الدين ولك الفضل فيها »

قال « وستزف اليه بشرى اخرى ان حياته في مأمن من عائلة الاسماعيليين »

Marfat.com

قال « طبعاً . وسأزف اليه واليك بشرى هي في نظري اهم مما تقدم »

فقال « وما هي ؟ »

قال « لم تسألني عن هؤلاء الرفاق من هم »

قال « كنت عازماً على سؤالك لكنني تنبأت انهم زوجة ذلك الشرير وخادماها وهي الآن زوجك طبعاً »

قال « لا . لا . لم تكن زوجاً له قط »

قال « من هي ؟ . »

قال « اتذكر الرسالة التي جئتني بها من القاهرة والسيدة التي خاطبتك وذكرت لي اعجابك بلطفها وكمالها ؟ »

قال بدهشة « سيدة الملك .. اخت الخليفة ؟ »

قال « نعم . سيدة الملك .. اختطفها هذا الخائن على يد بعض الفدائيين اصحابنا وجاء بها الى هنا تحت العذاب الشديد وقدر لي ان انقذها . »

فقال « هذه الراكبة على البغلة سيدة الملك ؟ »

قال « نعم هل تريد ان تراها »

قال « كيف لا .. ولكن تمهل قليلاً ريثما نصل الى مكان ننزل فيه عند الفجر . اذ لا بد لها من الراحة »

قال « هل انت ذاهب معنا الى مصر ؟ »

قال « اذا كنتم تقبلونني »

فاسرع في الجواب بلهفة قائلاً « ان ذلك يكون من حسن طالعي . كم احب ان تكون معي فنعيش سوية لعلي اقدر على مكافأتك وسأخبر السلطان صلاح الدين بما كان من فضلك في اتمام هذه المهمة وهي بشرى رابعة ازفها اليه . ولكن كيف تركت طائفة الاسماعيلية بعد ان صرت من كبار رجالها وصارت لك هذه الدالة على رئيسها العجيب الغريب . اني لا انسى ما شاهدته من المدهشات في هذين اليومين .. »

فتنهد وقال « لو لم ارتق الى درجة المستنيرين لم يخطر ببالي ان اعتزل هذه الطائفة . الم تنتبه الى تغيري بعد ذلك الارتقاء . لو بقيت فدائياً لظللت مشتاقاً الى الارتقاء والاطلاع على الاسرار . فاما اطلعت عليها رأيتني كنت مغشوشاً وندمت على دخولي »

فقال « يا للعجب . لماذا لم يفعل ذلك الذين ترقوا الى مثل هذه الدرجة قبلك »

قال « لانهم يرون في بقائهم ما يسد مطامعهم من الملذات واسباب السعادة البدنية

Marfat.com

لا يهمهم ان يتم لهم ذلك بتضحية الشبان الشجعان الفدائيين امثالك . اما انا فلا احب هذه العيشة بما فيها من الغدر »

فاطرق عماد الدين وتشاغل بتمشيط عرف فرسه بانامله وهو يعجب بكمال ذلك الصديق . ثم قال « الا تزال تعتقد كرامة الشيخ راشد الدين ومعجزاته ؟ »

قال « كنت اعتقدها حتى ارتقيت وعرفت سرّها فانكرتها .. وفي الدنيا كثير من الظواهر المدهشة اذا عرفت سرّها احتقرتها »

قال « اني شديد الرغبة في معرفة سر ما شاهدته من معجزات الرجل مثل اطلاعه على الاخبار قبل وصولها ومخاطبة الاموات والاحجار وسماع جوابها وناهيك بجنته التي يمشي حورها على سطح الماء وتخاطبن الاطيار وغير ذلك . انها من المعجزات المدهشة »

قال « صدقت انها مدهشة وكنت اود ان اكاشفك سرها لولا اني اقسمت على الاحتفاظ بها الايمان المغلظة وانت لا ترضى لي الحنث باليمين . لاني وان تركت هذه الجمعية وتخليت عنها فلم اتخل عن شرفي وضميري . لكنني اقول لك ان هذه المعجزات ليس فيها شيء من الخوارق التي لا يقدر عليها الناس وليست هي من قبيل الوحي الالهي او المقدرة الخصوصية كما كنا نظن . والآن قد دنونا من محطة فيها عين ماء وخان اعرف صاحبه أرى ان ننزل هنا ريثما نستريح ثم نستأنف المسير كما تشاءون »

فاسرع عماد الدين الى سيدة الملك واخبرها برأي رفيقه عبد الرحيم فوافقت عليه وكان الفجر قد لاح فنزلوا . وتقدم عماد الدين ومعه عبد الرحيم الى سيدة الملك فقدمه لها واخبرها عن فضله في نجاح مهمته فاثنت عليه كثيراً

الفصل السادس والستون

اللقاء

فلنتركهم ريثما يستريحون ولنعد الى القاهرة فقد طال سكوتنا عن اهلها . تركناهم بعد صلب عمارة واصحابه المتآمرين وخروج رسول عماد الدين (عبد الرحيم) بالكتاب والجواهر الى بيت المقدس . وقد اطمأن بال سيدة الملك وسرّها انها خطرت ببال حبيبها وقد ذكرنا ما كان من نقمة ابي الحسن بعد فشله في دمشق . وانه اصبح

همه الانتقام من سيدة الملك باي وجه كان . فاغرى بعض الاشقياء من الفدائيين على الاحتيال باختطافها وذهب هو الى مصر. فاغتنموا خروجها مع حاضنتها الى البساتين على مقربة من قصر صلاح الدين واختطفوها كما تقدم وسقطت ياقوتة وقد اغمي عليها ولم تفق من الا بعد ساعات . وكان اللصوص قد نجوا بغنيمتهم فاخبرت قراقوش بذلك فاطلع صلاح الدين عليه فغضب وامر بالتفتيش عن سيده الملك في كل مكان وبث الجواسيس في الاطراف فلم يقفوا لها على خبر

فشق ذلك عليه كثيراً وزاد غضبه لانقطاع اخبار عماد الدين وندم على الاذن له في الذهاب لانه احس بحقيقة منزلته بعد ما رآه من ثبات عزمه في خدمته . وكان يود ان يعود ليزوجه بسيدة الملك ويفرح به فكان غيابهما سبباً لتنغيض عيشه وكاد يشغل خاطره عن حروبه مع الصليبيين وهي على اشدها في ذلك العهد وقد اخذ يتهيأ لفتح بيت المقدس

وهو في ذلك جاءه قراقوش يقول « ان رسول عماد الدين الذي جاءنا في المرة الماضية اتى ومعه بشرى هامة » فامر بادخاله ورحب به فوقف متأدباً فقال له « ما وراءك ؟ انك لا تأتينا الا بالبشائر الحسنة »

قال « ان ذلك بتوفيق الله وبركة مولانا السلطان . اخبر مولاي ان عبده عماد الدين عاد من مهمته سالماً ظافراً وكان يود ان يحمل هذه البشرى بنفسه لكنه شغل بسيدة الملك فاستأذنته ان احمل هذه البشرى اليكم قبل وصوله »

فصاح فيه صلاح الدين « وسيدة الملك معه ؟ »

قال « نعم يا مولاي ؟ »

فالتفت الى بهاء الدين يلتمس مشاركته في الاستغراب فقال بهاء الدين « إن ذلك غريب .. هذه المرة انقذها ايضاً من الخطر؟ — اليس ذلك دليلاً على انهما خلقا ليقترنا ؟ »

قال « لاشك في ذلك .. وهذا غاية ما اتمناه فابعث من يستقبلهما في موكب يليق بمقامهما »

فاعد قراقوش موكباً حافلاً استقبل القادمين في الخانقاه بجوار القاهرة ومعه هودج لسيدة الملك . ولما دنا الموكب من قصر صلاح الدين حولوا الهودج الى قصر سيدة الملك وكانت ياقوته قد علمت بقدومها فاستقبلتها وترامت على يديها تقبلهما وشكرت الله على هذه النعمة . ورأت الضعف لا يزال ظاهراً في وجهها فأخذت تداعبها

Marfat.com

بذكر عماد الدين وانه لا يلبث ان يصير زوجها فقالت لها « هل رأيت يا ياقوتة ان هذا الشاب يستحق قلبي ؟ . انه انقذني من الموت والعار مرة أخرى » وقصت عليها خبرها باختصار

اما عماد الدين فترجل قبل الوصول الى قصر السلطان ومشى حتى دخل عليه راكب على ركبته يقبلها ويقول « اشكر الله لانه أراني وجه مولاي السلطان في خير » وتقدم اليه الوزراء والقواد وسلموا عليه وهم لا يعرفون الغرض من مهمته ولكنهم جاروا السلطان باكرامه

ثم امر السلطان بخلوة لم يشهدها غير بهاء الدين وعماد الدين . وسأله عن نتيجة مهمته فقص عليه ما جرى من اوله الى آخره فاعجب بهمته وما اظهره من الصبر وما لاقاه من المصاعب والمشاكل وتغلب عليها جميعاً . وكان اغرب ما سمعه قتله ابا الحسن وانقاذه سيدة الملك. فلما وصل الى هنا ابتسم السلطان وقال « باراك الله فيك .. هذه همة عالية .. رحم الله والدي انه كان صادق النظر في الرجال . وسم فيك مناقب كبار القواد وقد صدق توسمه لانك اتيت ما لم يستطعه سواك من رجالنا . فانت الآن من كبار قوادنا ورجال خاصتنا »

والتفت الى بهاء الدين وقال « يا بهاء الدين هذا هو الشاب الذي فرّ من بين يديك من قصر النساء وشكوته الي — الا تراه يستحق ان يكون زوجاً لسيدة الملك وقد انقذنا من ابي الحسن وغيره كما سمعت »

قال « انه اهل لكل التفات ويكفي ان يكون مولانا نجم الدين قد توسم فيه ذلك .. »

قال « قد آن له الآن ان يستريح من وعثاء السفر — واحب ان تحتفلوا بزواجه احتفالاً يليق بالملوك وكبار القواد »

فاكب عماد الدين على يدي صلاح الدين يقبلها فقبل صلاح الدين رأسه ثم قال عماد الدين « استأذن مولاي بكلمة عن صديقي عبد الرحيم فقد سمعت بلاءه في خدمتنا وسيكون عوناً لنا في حروب الافرنج لانه يعرف بيت المقدس بيتاً بيتاً و »

فلم يصبر صلاح الدين حتى يتم حديثه فقال « انه اهل ليكون من خاصتنا وهذا بهاء الدين يعرف له قدره وينزله في منزلته . واحب الآن ان أرى سيدة الملك والمئنها بالسلامة »

فأسرع بهاء الدين الى قصر النساء يبشر سيدة الملك بزيارة السلطان . فاستعدت

Marfat.com

لاستقباله فاما اقبل عليها حياها وقال « قد اصبت لانك فضلت عماد الدين عليَّ فانه انقذك من الموت مرتين وخلصنا من اشر الاعداء . فهوَّ جدير بك ونعقد له عليك بما يقتضيه مقامك »

فخجلت سيدة الملك خجلاً يمازجه الفرح والاعجاب واطرقت حياء ثم رفعت بصرها اليه وقالت « لم افضل عماد الدين الا لمناقب تعجب السلطان صلاح الدين وقد رفعه بسببها من عامة الناس الى مخاصتهم وجعله جليسه . وهب اني قلت بتفضيله من بعض الوجوه لكنني انا وهو لا نفضل احداً على صلاح الدين . ونحن في رعايته وتحت ظله »

فاعجبه جوابها فقال « كنت في رعايتي ولكنك الآن في رعاية البطل عماد الدين ويحق لك ان تفتخري به كما يحق له الافتخار بك فاهنأا » قال ذلك وخرج وغادر سيدة الملك وقلبها يرقص فرحاً وقد نسيت كل مصائبها الماضية

واحتفلت مصر بزفاف سيدة الملك الى عماد الدين احتفالهم بزواج الملوك

﴿ تمت الرواية ﴾

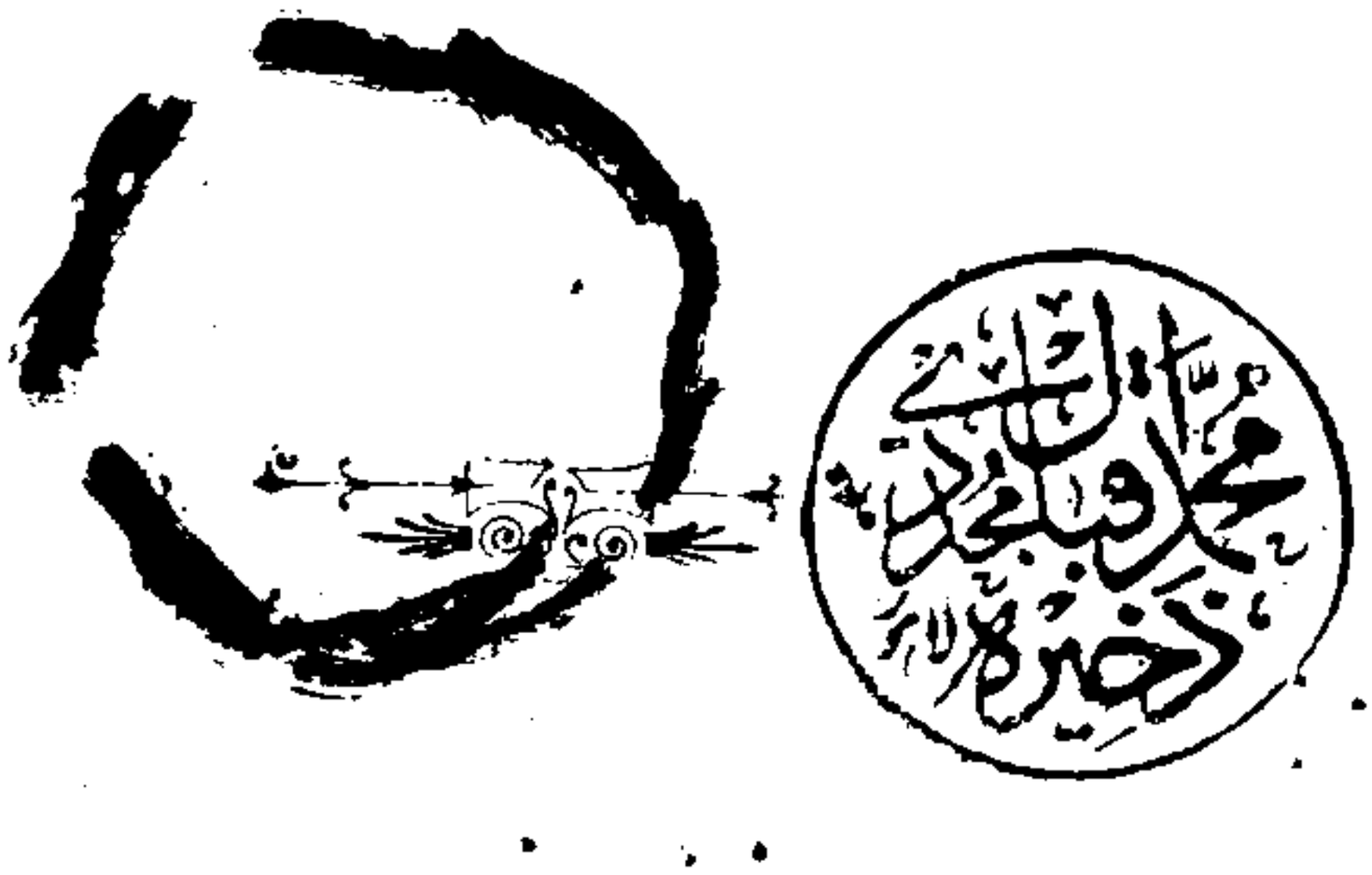

Marfat.com